إعجاز القرآن

تأليف

القاضي السعيد شيخ السنة ولسان الملة

أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني

المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

القاهرة

١٣٤٩

المطبعة السلفية ومكتبتها

إعجاز القرآن

تأليف

القاضي السعيد شيخ السنة ولسان الملة

أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني

المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

القاهرة

١٣٤٩

المطبعة السلفية - ومكتبتها

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين * وصلّى الله على خير خلق الله أجمعين * سيدنا محمد وآله وصحبه وحَمَلةَ هدايته * وسلَّمَ تسليماً كثيرا

أما بعد فان أنبياء الله أقاموا على الناس الحجة بمعجزاتٍ كانت وزالت ، واختص الله خاتم انبيائه صلوات الله عليه بمعجزة خالدة الى يوم الدين ، وهي القرآن الحكيم

ومن خير ما ألفه أئمة الهدى في بيان اعجاز كتاب الله كتابُ القاضي أبي بكر الباقلاني ، وان للقاضي أكثرَ من مائة كتاب بادت كلها في مياه دجلة بكارثة التتار ، ولعلَّ (اعجاز القرآن) هو الكتاب الوحيد الذي بقي من مؤلفات هذا الامام . وكان قد طبع في القاهرة عام ١٣١٥ ونفدت نسخه من سنين كثيرة ، فأعدنا طبعه الآن معارَضاً بنسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية . وقد اقترح علينا المستشرق الشهير الاستاذ تلينُو أن ندلَّ في كل آية وردت في هذا الكتاب على رقم سورتها ثم على رقم الآية من تلك السورة ففعلنا . وأعانني على تصحيحه في بدايته صديقي الاستاذ السيد محمود محمد شاكر ، ثم قام بمثل هذه المروءة فضيلة الاستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد في بعض كراريس منه . فشكراً لهما . وأرجو الله أن يجعل هذا الكتاب نافعاً ، وأن يثيبنا على نشره انه أكرم مسئول

القاهرة : ربيع الثاني ، ١٣٤٩ — محب الدين الخطيب

أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني

شيخ السُنَّة، ولسان الأُمَّة : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد ابن جعفر بن القاسم الباقلاني.

نشأ نشأةَ العبقرية والنبوغ في مدينة البصرة أيام عزّها في القرن الرابع للهجرة. وكانت البصرة يومئذ لا تزال على باب البادية (في موضع بلدة الزبير الآن) وكانت عامرة بأعلام البيان وفحول علماء الاسلام : فيها رجال العلوم العقلية الذين تبوءوا مراتبَ الحكمة وقلَّبوا في الكون أوجهَ النظر، وفيها حُفّاظ الشريعة الذين يَرجع الناس اليهم في فهم كتاب الله الحكيم وصيانة السُنَّة من عبث الوضاعين ودسّ الكذّابين، كما كان في رجالها أهلُ الاهواء الذين يرون واجباً عليهم هدم هذا الاسلام والثأر منه للمجوسية والصابئية وسائر الظُلمات التي أشرق عليها نورُ القرآن فأزال غياهبها، ونكس رءوس أهلها، وقضى على أضاليلها وسفاهاتها. وبين أولئك وهؤلاء علماء التاريخ العارفون بوقائع الدهر وحوادث الزمان. وزينة البصرة ومفخرتها يومئذ أهلُ العربية الذين انتهتْ اليهم الامامةُ في فنونها وقوانين بيانها والاحاطةُ بمادّتها والبصرُ في سُنَنِ العرب في كلامها، لاتّصالهم بالأعراب الخُلَّص من صدر الاسلام الى أن شيبتَ الفُصحى بغيرها.

في هذا البحر المتلاطم بأمواج المعارف نشأ محمد بن الطيّب الباقلاّني، فكان من خير الناشئين في الاسلام : عقلا وعلماً وفصاحةَ لسانٍ وسرعةَ بادرة وقوّة ادراك للحقائق

شيوخه

أخذ محمد بن الطيّب العلم عن ابن مجاهد الطائي، وهو أبو عبد الله محمد بن

أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد البصري المالكي صاحب الامام أبي الحسن الاشعري . وكان الباقلاني أخص تلاميذ ابن مجاهد وعنه أخذ علم الكلام وفقه مالك بن أنس واصوله وانتفع بعلمه وصحبته ما شاء الله أن ينتفع

ومن أساتذة الباقلاني الشيخ الصالح أبو الحسن الباهلي الذي كان يُعَدُّ جبلا من جبال العلم ، وكان مع علمه متفرّداً في الزهد والتقوى واعتزال الناس ، فكان يحلو له في جميع أوقاته أن يخلو بربّه فلا يخرج من خلوته هذه الا الى درسٍ في العلم يلقيه على مثل طبقة الباقلاني وابن فُورَك والاسفراييني ، وكان منهم في حجاب يرخي الستر بينهم وبينه كيلا يروه ، لانه كان يريد أن لايراه غيرُ ربه ، وكان يريد أن لايتعلق قلبه الا بالله عزَّ وجلَّ . وأبو الحسن الباهلي هذا كان أيضاً من أخصّ الناس بالشيخ أبي الحسن الاشعري

قالوا ومن شيوخه القطيعي ، ونحسبه أبا بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي (نسبة الى قطيعة الرقيق ببغداد) وكان مسندَ العراق في القرن الرابع توفي سنة ٣٦٨

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الابهري المالكي ، وأبو أحمد الحسين ابن علي النيسابوري ، وأبو محمد بن ماسي ، وأبو بكر بن مالك وغيرهم

ومن زملاء الباقلاني في طلب العلم أمثالُ أبي اسحق ابراهيم بن محمد الاسفراييني المتوفَّى سنة ٤١٨ ، وابي بكر محمد بن الحسن بن فُورَك المتوفَّى سنة ٤٠٦ ، وكان هؤلاء الثلاثة مضرب المثل في النبوغ حتى قال فيهم الأديب الاكبر الوزير الصاحب بن عباد : « ابن الباقلاني بحرٌ مُغْرِق ، وابن فُورَك صِلٌ مُطرِق ، والاسفراييني نار تُحرِق » . قال الحافظ ابن عساكر : وكأنَّ رُوحَ القدس نفث في روع الصاحب بن عباد حيث أخبر عن هؤلاء الثلاثة بما هو حقيقة الحال فيهم

ظهور الباقلانى

وأول حادثة كبرى في حياة الباقلانى استدعاؤه الى شيراز لمناظرة المعتزلة في مجلس عضد الدولة فناخسرو . وكانت شوكة المعتزلة شديدة في العراق الى أن كان زمن هذا الملك ، وكان قاضي القضاة في وقته معتزلياً ، فقال له فناخسرو يوماً :

— هذا المجلس عامر بالعلماء ، الاّ أني لا أرى أحداً من أهل السنّة والاثبات ينصر مذهبه

فقال له قاضي القضاة :— ان أهل السُنّة والاثبات عامةٌ رعاعٌ أصحاب تقليد وأخبار وروايات ، يروون الخبر وضده ويعتقدونهما وأحدهما ناسخٌ للثاني أو متأوّل ، ولا أعرف منهم أحداً يقوم بهذا الأمر

فقال الملك : — مُحالٌ أن يخلوَ مذهبٌ طبّق الأرض من ناصر ينصره ، فانظروا أيّ موضع يكون مُناظِرٌ ليُكتَبَ فيه ويحضر مجلسنا

فلما عزَم في ذلك قال له قاضي القضاة المعتزلي :

— أصلح الله الملك أخبَرُوني أن بالبصرة رجلين — شيخاً وشابا — أحدهما يُعرَف بأبي الحسن الباهلي ، والشاب يُعرَف بابن الباقلاّني

وكانت حضرة الملك يومئذ بشيراز ، فكتب الملك الى العامل ليبعثهما اليه ، وأطلق مالا لنفقتهما من طيّب المال . قال القاضي أبو بكر الباقلاّني : فلما وصل الكتاب الينا قال الشيخ (يعني أبا الحسن الباهلي) وبعضُ أصحابنا :

— هؤلاء القوم فَسَقة لايحل لنا أن نطأ بساطهم ، وليس غرض الملك من هذا الاّ أن يُقال ان مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم ، ولو كان ذلك لله عزّ وجلّ خالصاً لنهضتُ ، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم

فقال القاضي : — كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهما من المتكلمين : ان المأمون لانحضر مجلسه ا حتى ساق احمد الى طرسوس ثم مات المأمون وردّوه الى المعتصم ، فامتحنه وضربه ، وهؤلاء أسلموه ، ولو مرّوا اليه وناظروه لكفّوه عن هذا الأمر ، فانه كان يزعم أن القوم ليست لهم حجة على

دعاويهم . . . وأنت أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد ، ويقولون بخلق القرآن ونفي رؤية الله تعالى ، وها أنا خارج ان لم تخرج

قال : فخرجتُ مع الرسول نحو شيراز في البحر حتى وصلنا اليها . ثم ذكر من دخوله على الملك ومناظرته مع المعتزلة وقطعه اياهم ما ذكر .

وقد بلغ من احترام الملك عضد الدولة فناخسرو هذا العالمَ الشابَّ النابغةَ أن دَفَع إليه ابنه يعلّمه مذهبَ أهل السنّة ، وألف له كتاب (التمهيد)

سيرته وعلوّ همتــــه

قال الحافظ ابن عساكر : كان القاضي أبو بكر رضي الله عنه فارسَ هذا العلم مبارَكاً على هذه الامة ، وكان يُلقَّبُ شيخَ السُنة ولسان الأُمّة ، وكان . . فاضلا متورّعاً ممن لم يُحفظ عليه زَلّةٌ قطٌّ ، ولا انتسبت اليه نقيصة ، وكان حِصناً من حصون المسلمين

ويكفي لتعلمَ علوّ همة هذا الرجل العظيم أن تراقب استعماله لوقته لترى كيف كانت حياته مباركا فيها . فقد كان نوابغ الطلبة يزدحمون على باب منزله في نهر طابق ببغداد ليتلقوا دروس العلم منه نهاره وأكثر ليله[1] . وكانت له في جامع المنصور ببغداد حلقة عظيمة يجلس فيها مجلساً عاما يحضره علماء المذاهب ورجال الدولة ودعاة النحل المختلفة فيسمعون من معارفه العجب العجاب . ومثل هذا العمل في منزله وفي جامع المنصور كافٍ ليكون القائم به محسناً الى العلم والدين . ولكن القاضي الباقلاني لم يكن يقتنع من حياته بهذا وحده ، بل كان يزيد عليه أنه كان كلّ ليلة اذا صلّى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه وكتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً من حفظه . ثم ينام فاذا استيقظ وصلّى الفجر دفع ما كان كتبه قبل النوم الى بعض أصحابه وأمره بقراءته عليه ، وفي خلال ذلك يملي عليه الزيادات فيه

---

(١) من نوابغ تلاميذه ابو عبد الله الازدي وابو طاهر البغدادي الناسك ، وقد رحلا الى القيروان وانتفع الناس هناك بعلمهما ومواهبهما

و كان القاضي من عباد الله الذين يحلو لهم طول القيام بين يدي الله ، فمن ذلك أنه كان بعد أداء فريضة العشاء يصلّي كل ليلة عشرين ترويحة ما تركها في حضر ولا سفر . روى الحافظ ابن عساكر عن أبي حاتم محمود بن الحسن القزويني أن القاضي أبا بكر كان يضمر من الورع والديانة والزهد والصيانة أضعاف ما كان يظهره . وقيل له في ذلك فقال : انما أظهر ما أظهره غيظاً المخالفين لئلا يستحقروا علماء الحقّ

ومما امتاز به القاضي الباقلاّني أنه كان في عصره أحسن الناس خاطراً وأجودهم لساناً وأوضحهم بياناً وأصحّهم عبارة . وروى ابن عساكر عن أبي محمد اليافي انه كان يقول « لو أوصى رجل بثلث ماله أن يُدفَع الى أفصح الناس لوجب أن يدفع الى أبي بكر الاشعري » . وقال أبو القاسم بن برهان النحويّ « من سمع مُناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذّ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين ، والفقهاء ، والخطباء والمترسّلين ، ولا الاغاني أيضاً ، من طيب كلامه وفصاحته وحسن نظامه واشارته »

سفارته الى ملك الروم

وفي سنة ٣٧١ أرسله عضد الدولة الى ملك الروم في جواب رسالة وردت منه ، فقام بمهمته أحسن قيام ، وترك وراءه أثراً بليغا . وكان من مراسم المثول بين يدي ملك الروم في ذلك الحين أن يقبّل الزائر الأرض بين يدي الملك . والظاهر أن ملك الروم علم أن القاضي الباقلاّني لن يقوم بهذه المراسم عند مثوله بين يديه ، فاحتال لاجبار القاضي على أن يكون في هيئة الراكع له عند دخوله عليه ، فأمر بجعل سريره أمام باب منخفض لا يمكن الدخول منه الا بانحناء . فلما جيء بالقاضي ليدخل على الملك من هذا الباب فطن القاضي لما أريد به فأدار ظهره الى داخل القصر وحنى رأسه ودخل من الباب ماشياً الى خلفه حتى اذا صار في داخل مكان الاستقبال تقدم الى الملك منتصب القامة . فعجب الملك من فطنته ووقعت له الهيبة في نفسه

وأدخلوه مرة وهو في عاصمة الروم على بعض المطارنة ، فقال القاضي لكبيرهم

على سبيل التحية : كيف أنت ، و كيف الاهل والاولاد ؟ فتعجب الرومي وقال له : ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الامة ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون من الاهل والاولاد ؟ فأجابه القاضي أبو بكر : رأيناكم لا تنزهون الله سبحانه عن الاهل والاولاد ، فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟

وأراد كبير الروم أن يخزي القاضي فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فأجابه : هما اثنتان قيل فيهما ماقيل : زوج نبينا ومريم أم المسيح . فاما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وقد برأهما الله مما رميتا به . فانقطع الرومي ولم يحر جوابا

مصنفاته

قال أبو بكر الخوارزمي : كل مصنف ببغداد انما ينقل من كتب الناس الى تصانيفه ، سوى القاضي أبي بكر كان صدره حوى علمه وعلم الناس . وقال علي بن محمد بن الحسن الحربي المالكي : كان القاضي أبو بكر يهم بان يختصر ما يصنفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه و كثرة حفظه . وما صنف أحد خلافا إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين غير القاضي فان جميع ما كان يذكر من خلاف الناس فيه صنفه من حفظه

وقد رأيت آنفاً كيف ان القاضي الباقلاني كان يصنف في كلّ ليلة خمساً وثلاثين ورقة . ولما توفي القاضي أمر الشيخ أبو الفضل التميمي مناديا أن ينادي بين يدي جنازته « هذا ناصر السنة والدين ، هذا امام المسلمين ، هذا الذي كان يذب عن الشريعة ألسنة المخالفين ، هذا الذي صنف سبعين ألف ورقة رداً على الملحدين » . هذا مانودي به يوم وفاة هذا الامام العظيم ، ولاشك في أن مؤلفاته كانت موجودة في تركته ، اذ كانت تتداولها أيدي علماء بغداد وأفاضل الامصار . ولكن أين هي الآن هذه المؤلفات ؟ لقد فقدناها وبالاسف وصرنا لا نستطيع

الوصول الى أسمائها . وأخشى أن يكون أثره الوحيد الباقي بين أيدينا هو كتاب (اعجاز القرآن) دون غيره من مصنفاته التي تكاد تملأ خزانة

أما الكتب التي بقي اسمها وفُقد رسمها فمنها كتاب له في (الملل والنحل) ، وآخر اسمه (الانتصار) وثالث عنوانه (كشف أسرار الباطنية) وكتاب (التمهيد) الذي ألفه لابن الملك عضد الدولة . وذكر صاحب كشف الظنون كتاباً بعنوان (هداية المسترشدين في الكلام) لأبي بكر بن الباقلاني الشافعي ، ولا أدري هل كلمة « الشافعي » من زيادات النساخ والطابعين أم هي خطأ من المؤلف أم الكتاب لغير هذا الامام

مذهبــــه

لا شكّ أنه كان من فقهاء المالكية ، وقد ترجم له ابن فرحون في الديباج المذهب وعدّه من الطبقة السابعة من أهل العراق (١)

هذا مذهبه الفقهي . وأما مذهبه الكلامي فانه كان أشعريا كما علمت ، وله في كتب الكلام آراء منسوبة اليه ، من ذلك أنه كان يقول بالواسطة بين الموجود والمعدوم ، لانه ذهب الى أن المعلوم ان لم يتحقق أصلا فهو المعدوم وان تحقق بوجه فان لم يكن باعتبار ذاته فهو الحال وعرفوه بأنه صفة لموجود لاموجودة ولا معدومة وان كان فهو الموجود في الخارج (٢)

ومن مواطن الخلاف بين المعتزلة والاشاعرة مسألة القدرة ونسبتها الى العبد ، فالمعتزلة كانوا يشنّعون على الامام أبي الحسن بأن قدرة العبد لما لم تكن مؤثرة فتسميتها قدرة مجرّد اصطلاح . فان القدرة صفة مؤثرة على وفق الارادة . وبأن

---

(١) ان القاضي ابا بكر الباقلاني لشدة قيامه في نصرة مذهب الشيخ ابي الحسن الاشعرى صار يقال له الاشعرى . فالتبس الامر على الناس في بعض الاحيان حتى اذا عزي امر الى القاضي ابي بكر الاشعري (اي الباقلاني) يظن ان المراد الامام ابو الحسن الاشعري . وعلى هذا يحمل وهم من توهم ان ابا الحسن الاشعري كان مالكياً فان منشا ذلك ان ابا بكر الباقلاني هو المالكي ، فلما قال من قال الاشعري مالكي ــ وهو يريد ابا بكر الباقلاني ــ ظن من سمع ذلك ان ابا الحسن الاشعري مالكي وليس كذلك (انظر طبقات الشافعية للسبكي ٢ : ٢٥٥)

(٢) انظر اول رسالة البصائر من علم الكلام للشيخ عبد الصمد بن محمود الكردي

الفرق بين القدرة والعلم بتأثير القدرة وعدم تأثير العلم وبانه لما لم يكن للعبد اختيار فلا يستحق الثواب والعقاب . والاشاعرة ومن يذهب مذهبهم يردون على المعتزلة بان القدرة ليست صفة مؤثرة بالفعل ، بل صفة من شأنها التأثير على وفق الارادة ، سواء أثرت بالفعل أو لم تؤثر ، وبه يحصل الفرق بينها وبين العلم ، اذ ليس من شأن العلم التأثر المذكور . والكسب عند الاشعري مقارنة الفعل للقدرة والارادة من غير أن يكون للقدرة تأثير ولا للعبد مدخل سوى كونه محلا للفعل . وللقاضي الباقلاني مذهب في الفرق بين القدرة والكسب هو أن الكسب ما يقع به المقدور في محل القدرة ، ولا يصح انفراد القادر به في وجود المقدور ، والخلق بخلافه [1]

ونسب اليه صاحب روضات الجنات[2] القول بعدم استعمال المصطلحات الشرعية في خلاف معانيها اللغوية أبدا ولو مجازا ، بزعم أن الخصوصيات المؤثرة من جانب الشارع المقدس شروطصحتها خارجة عن أصول تلك المسميات ، نظير ما يقوله الذاهبون الى وضع الحقائق الشرعية للاعم من الصحيحة منها والفاسدة نظرا الى صحة الاطلاق عليه ، فلا نقل عنده الى احد من تلك المعاني المجعولات . وان قيل ان المشهور اختياره المذهب الثاني في الحقائق الشرعية ، وهو كونها مجازات لغوية

وفاته

وكانت وفاة هذا الامام آخر يوم السبت لست بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ ودفن يوم الاحد لسبع بقين منه ، وصلى عليه ابنه الحسن . ودفن أولا في داره بنهر طابق ، ثم نقل الى مقبرة باب حرب ودفن فيها بقرب قبر الامام احمد بن حنبل رضي الله عنهما . ومما رثي به :

أنظر الى جبل تمشي الرجال به ... وانظر الى القبر مايحوي من الصلَفِ
وانظر الى صارم الاسلام منغمدا ... وانظر الى درة الاسلام في الصدف

(١) انظر حاشية الكلنبوي على العقائد العضدية ص ٢٥٦

(٢) من الشيعة . انظر ص ٦١٦ (٤ : ١٧٧) منه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم اليه من الايمان ، والمتمم احسانه بما أقام لهم من جليّ البرهان * الذي حمد نفسه بما أنزل من القرآن ليكون بشيراً ونذيراً ، وداعياً الى الله باذنه وسراجا منيرا * وهاديا الى ما ارتضى لهم من دينه ، وسلطانا أوضح وجهَ تبيينه * ودليلا على وحدانيته ، ومرشدا الى معرفة عزته وجبروته * ومفصحا عن صفات جلاله ، وعلوّ شأنه وعظيم سلطانه * وحجة لرسوله الذي أرسله به وعلَما على صدقه ، وبينة على أنه أمينه على وحيه وصادع بأمره * فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله ، ورسالة تشتمل على تصحيح قول مؤدّيها ، بيّن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها الى بيّنة تعدوها ، أو حجة تتلوها * وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات ، والتشكك في المشاهدات * ولذلك قال عز ذكره (٦:٧) « ولو نزّلنا عليكَ كتاباً في قِرْطاس فلمَسُوه بأيديهم لقال الذين كَفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين »وقال عز وجل (١٥:١٤-١٥) « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلُّوا فيه يَعْرُجُون ، لقالوا إنما سُكّرت أبصارُنا بل نحن قوم مَسحورون » * فله الشكر على جزيل احسانه وعظيم مننه * والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله وسلم .

ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قِواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهانا ، ولمعجزته ثبتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد النفاق ، مستولٍ على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس . وأهله

في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود في صنعته . فقد أدّى ذلك الى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قلّ أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله ، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره . فمن قائل قال انه سحر ، وقائل يقول انه شعر ، وآخر يقول انه أساطير الأولين ، وقالوا لونشاء لقلنا مثل هذا ، الى الوجوه التي حكى الله عز وجلّ عنهم أنهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه اليه . وذُكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه . وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم الى عظم ما يقولونه اخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول أمره استبان رشدَه ، وأبصر قصدَه ، فتاب وأناب ، وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوّة اتقانه ، لا لتصرف لسانه ، بل لهداية ربه وحسن توفيقه . والجهل في هذا الوقت أغلب ، والملحدون فيه عن الرشد أبعد ، وعن الواجب أذهب . وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن ، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ، أن يبسطوا القول في الابانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه ، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء ، ودقيق الكلام في الأعراض ، وكثير من بديع الاعراب وغامض النحو ، فالحاجة الى هذا أمسُّ ، والاشتغال به أوجب . وقد قصر بعضهم في هذه المسألة ، حتى أدّى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها ، ورأوا أن عجز أصحابهم

عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا يستنصر فيها ولا وجه لها ، حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا ، وانتهوا الى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا . ثم رأوا ماصنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه ، ولا مستوفىً في وجهه ، قد أُخل بتهذيب طرقه ، وأهمل ترتيب بيانه . وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه ، وذهاب عنه ، لان هذا الباب مما يمكن احكامه بعد التقدّم في أمور شريفة المحل ، عظيمة المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المـأخذ . واذا انتهينا الى تفصيل القول فيها استبان ما قلناه من الحاجة الى هذه المقدمات ، حتى يمكن بعدها إحكام القول في هـذا الشأن . وقد صنَّف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى

وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال وتنتهي الى ما يخطر لهم ويعرض لافهامهم من الطعن في وجه المعجزة . فأجبناه الى ذلك متقرّبين الى الله عز وجل ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومعونته * ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا ، ونشير اليه ، ولا نبسط القول ائلا يكون ماأَلفناه مكررا ومقولا ، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب خاصة ، ونصف مايجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه الـكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته سبل البراعة ، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع ، ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم اليه الـكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجاري الخطاب وان كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح وتقصد فيه البلاغة ، لان هذه أمور يتعمل لها في الاغلب ، ولا يتجوّز فيها . ثم من بعد هذا الـكلامُ الدائر في محاوراتهم ، والتفاوت فيه أكثر لان التعمل فيه أقل . إلا من نزارة

طبع أو فطانة تصنع وتكلف ، ونشير الى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظيم محل القرآن ، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه ، وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز ان يوازن بينه وبينها ، أو يشتبه ذلك على متأمل . ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الادب ذاهبا ، وعن وجه اللسان غافلا ، لان ذلك مما لا سبيل اليه إلا ان يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا اليه من أهل صناعة العربية قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ، وعرف جملة من طرق المتكلمين ونظر في شيء من أصول الدين . وانما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من وصفناه فقال (٤١ : ٣) « كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » وقال (٤٣ : ٣) « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »

فصل

﴿ في أن نبوة النبي صلى الله عليه وسلم معجزتها القرآن ﴾

الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة اعجاز القرآن ، أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة وان كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة الا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة ، و نقل بعضها نقلا متواتراً يقع به العلم وجوداً ، و بعضها مما نقل نقلا خاصاً الا أنه حكي بمشهد من الجمع العظيم انهم شاهدوه ، فلو كان الامر على خلاف ما حكي لأنكروه أو لأنكره بعضهم فحل محل المعنى الأول وان لم يتواتر أصل النقل فيه . و بعضها مما نقل من جهة الآحاد ، و كان وقوعه بين يدي الآحاد . فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين ، ولزوم الحجة بها في أول وقت وروده الى يوم القيامة على حد واحد ، وان كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الاتيان بمثله وجه دلالته فيغني ذلك عن نظر مجدد في عجز أول العصر عن مثله ، وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الاتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول . وانما ذكرنا هذا الفصل لما حكي عن بعضهم انه زعم أنه وان كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه . ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم . ونحن نبين خطأ هذا القول في موضعه . فأما الذي يبين ماذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه سور كثيرة وآيات نذكر بعضها وننبه بالمذكور على غيره ، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه . فمن ذلك قوله تعالى (١٤ : ١) « الر كتاب أنزلناه اليك

لتُخرج الناسَ من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » فأخبر انه أنزله ليقع الاهتداء به ولا يكون كذلك الا وهو حجة ، ولا تكون حجة ان لم تكن معجزة ، وقال عز وجل (٩ : ٦) « وانْ أحد من المشركين استجارك فأجرْه حتى يَسمع كلام الله » فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة الا وهو معجزة ، وقال عز وجل (٢٦:١٩٢-١٩٤) « وانه لتنزيلُ ربِّ العالمين ، نزل به الروحُ الأمين ، على قلبك لتكونَ من المنذرين » وهذا بيّنٌ جداً فيما قلناه من انه جعله سبباً لكونه منذراً . ثم أوضح ذلك بأن قال (٢٦:١٩٥) « بلسان عربي مبين » فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به ، وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة الا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه . ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده ، وكثير من هذه السور اذا تأملته فهو من أوّله الى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته . فمن ذلك سورة المؤمن (٤٠ : ١ - ٦) قوله عز وجل « حمٓ تنزيلُ الكتاب من الله العزيز العليم » ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله تعالى « غافرِ الذنب ، وقابلِ التّوب ، شديدِ العقاب » الى أن قال « مايجادل في آيات الله الا الذين كفروا » فدل على أن الجدال في تنزيله كفرٌ وإلحاد . ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم بقوله عزوجل « كذّبت قبلهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدهم » الى آخر الآية ، فتوعدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنبهم في تكذيب الانبياء ورد براهينهم فقال تعالى « فأخذتُهم فكيف كان عقاب » ثم توعدهم بالنار ، فقال تعالى « وكذلك حقّتْ كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجة بما أخبر من استغفار الملائكة لهم وما وعدهم عليه من المغفرة فقال تعالى (٤٠:٧) « الذين يحملون العرش ومَن حوله يسبّحون بحمد ربهم

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعتَ كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهم عذابَ الجحيم » فلولا انه برهان قاهر لم يذم الكفار على العدول عنه ولم يحمد المؤمنين على المصير اليه . ثم ذكر تمام الآيات في دعاء الملائكة المؤمنين ، ثم عطف على وعيد الكافرين فذكر آيات ثم قال (٤٠:١٣) «هو الذي يريكم آياته » فأمر بالنظر في آياته وبراهينه الى أن قال (٤٠:١٥) « رفيعُ الدرجاتِ ذو العرش يُلقي الروحَ من أمره على من يشاء من عباده لينذرَ يوم التلاق » فجعل القرآن والوحي به كالروح ، لأنه يؤدّي الى حياة الأبد ، ولأنه لافائدة للجسد من دون الروح ، فجعل هذا الروح سبباً للانذار وعلماً عليه وطريقاً اليه ، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يصح أن يقع به الانذار والاخبار عما يقع عند مخالفته ولم يكن الخبر عن الواقع في الآخرة عند ردهم دلالتَه من الوعيد حجة ولا معلوما صدقه فكان لايلزمهم قبوله . فلما خلص من الآيات في ذكر الوعيد على ترك القبول ضرب لهم المثل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات فقال (٤٠:٢١) « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم » الى آخر الآية ثم بين أن عاقبتهم صارت الى السوءى بأن رُسُلهم كانت تأتيهم بالبينات وكانوا لايقبلونها منهم فعلم أن ما قدم ذكره في السورة بينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام ومجيئهما بالبينات ومخالفتهم حكمها الى أن قال تعالى (٤٠:٣٥) « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » فأخبر أن جدالهم في هذه الآيات لايقع بحجة وانما يقع عن جهل وأن الله يطبع على قلوبهم ويصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم وعنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر كثيراً من الاحتجاج على التوحيد ثم قال تعالى (٤٠:٦٩) « ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يُصرفون » ثم بين هذه الجملة وأن من آياته

الكتاب فقال (٤٠:٧٠) « الذين كذّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسلنا فسوف يعلمون » الى أن قال (٤٠ :٧٧) « وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بأذن الله » فدل على أن الآيات على ضربين : أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف ، والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر ويقع عندها العلم الضروري وأنها اذا جاءت ارتفع التكليف ووجب الاهلاك . الى أن قال تعالى (٤٠:٨٥) « فلم يك ينفعهم ايمانُهم لمّا رأوا بأسَنا » فأعلمنا انه قادر على هذه الآيات ، ولكنه اذا أقامها زال التكليف وحقت العقوبة على الجاحدين . وكذلك ذكر في « حمٓ » السجدة على هذا المنهاج الذي شرحنا ، فقال عز وجل (٤١:١ـ٤) « حمٓ ، تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ، كتاب فُصّلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيرا » فلولا انه جعله برهاناً لم يكن بشيراً ولا نذيرا ، ولم يختلف بأن يكون عربياً مفصَّلا أو بخلاف ذلك . ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم بقوله تعالى « فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمعون » ولولا انه حجة لم يضرَّهم الاعراض عنه

وليس لقائل أن يقول قد يكون حجة ويحتاج في كونه حجة الى دلالة أخرى كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم حجة ولكنه يحتاج الى دلالة على صدقه وصحة نبوّته . وذلك انه انما احتج عليهم بنفس هذا التنزيل ولم يذكر حجةً غيره . ويبين ذلك انه قال عقيب هذا (٤١:٦) « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ » فأخبر انه مثلهم لولا الوحي . ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدّقين له فقال (٤١ : ٨) « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحي والتنزيل وعرفوا هذه الحجة . ثم تصرف في الاحتجاج على الوحدانية والقدرة الى ان قال (٤١ : ١٣) « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فتوعدهم بما أصاب مَن قبلهم من المكذّبين بآيات الله من قوم عاد

وثمود في الدنيا ثم توعدهم بأمر الآخرة فقال (٤١ : ١٩) « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » الى انتهاء ما ذكره فيه . ثم رجع الى ذكر القرآن فقال (٤١ : ٢٦) « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ثم أثنى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول فقال (٤١ : ٣٠) « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا » ثم قال (٤١ : ٣٦) « وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » وهذا ينبه على ان النبي ﷺ يعرف اعجاز القرآن ، وانه دلالة له على جهة الاستدلال ، لان الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان ، ونحن نبين ما يتعلق بهذا الفصل في موضعه . ثم قال (٤١ : ٤٠) « ان الذين يلحدون في آياتنا » الى ان قال (٤١ : ٤١-٤٢) « ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وهذا وان كان متأولا على انه لا يوجد فيه غير الحق مما يتضمنه من أقاصيص الأولين واخبار المرسلين ، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أبدا انها تقع في الثاني فلا يخرج عن ان يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من انه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته أو تعارضه في طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته ، وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه . ثم قال (٤١ : ٤٤) « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي » فأخبر انه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده ، اما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم - وكانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه ، وبأنهم لا يبين لهم وجه الاعجاز فيه لانه ليس من شأنهم ولا من لسانهم - أو بغير ذلك من الامور ، وانه اذا تحداهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به ، على ما نبينه في وجه معنا

الفصل، الى أن قال(٤١ : ٥٢) « قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به مَن أضلُّ ممن هو في شقاق بعيد » والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور ، فكرهنا سرد القول فيها ، فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك

ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل (٢٩ : ٥٠ ـ ٥١) « وقالوا لولا أنزل عليه آياتٌ من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فأخبر أن الكتاب آية من آياته وعَلَم من أعلامه ، وان ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم ، ويدل عليه قوله عز وجل (٢٥ : ١) « تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » وقوله (٤٢ : ٢٤) « أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختمْ على قلبك ويمحو الله الباطل ويُحقُّ الحقَّ بكلماته » فدل على انه جعل قلبه مستودعا لوحيه ، ومستنزلا لكتابه ، وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره ، وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباه كثيرة تدل على نحو الدلالة التي وصفناها . فبان بهذا وبنظائره ما قلناه من أن بناء نبوّته صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته ، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى ، وفارَق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد ووصف مضاف اليها ، لان نظمها ليس معجزاً ، وان كان ما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب معجزاً . وليس كذلك القرآن لانه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظمه معجز ، فيمكن أن يستدل به عليه ، وحلّ في هذا من وجهٍ محل سماع الكلام من القديم سبحانه وتعالى ، لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم انه في الحقيقة كلامه . وكذلك من يسمع القرآن يعلم انه كلام الله

وان اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه لان موسى عليه السلام سمعه من الله عز وجل وأسمعه نفسه متكلما ، وليس كذلك الواحد منا . وكذلك قد يختلفان في غير هذا الوجه ، وليس ذلك قصدنا بالكلام في هذا الفصل . والذي نرومه الآن ما بيناً من اتفاقهما في المعنى الذي وصفنا ، وهو انه عليه السلام يعلم ان ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال.

فصل

﴿ في الدلالة على أن القرآن معجز ﴾

قد ثبت بما بيّنا فى الفصل الاوّل ان نبوّة نبينا ﷺ مبنية على دلالة معجزة القرآن ، فيجب ان نبين وجه الدلالة من ذلك * قد ذكر العلماء ان الاصل فى هذا هو ان تعلم ان القرآن الذي هو متلوّ محفوظ مرسوم فى المصاحف هو الذي جاء به النبي ﷺ ، وانه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثا وعشرين سنة . والطريق الى معرفة ذلك هو النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم الضروري به . وذلك انه قام به فى المواقف ، وكتب به الى البلاد وتحمّله عنه اليها من تابعه ، وأورده على غيره من لم يتابعه ، حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشتبه على أحد ، ولا يحيل انه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه ويأخذه على غيره ويأخذه غيره على الناس ، حتى انتشر ذلك فى أرض العرب كلها وتعدّى الى الملوك المصاقبة لهم كملك الروم والعجم والقبط والحبش وغيرهم من ملوك الاطراف . ولما ورد ذلك مضاداً لاديان أهل ذلك العصر كلهم ومخالفاً لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر ، وقف جميع أهل الخلاف على جملته ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالايمان على جملته وتفاصيله . وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال ، وتنقلت به الرحال ، وتعلمه الكبير والصغير . اذ كان عمدة دينهم ، وعلما عليه ، والمفروض تلاوته في صلواتهم ، والواجب استعماله في أحكامهم . ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى الينا ماوصفناه من حاله ، فلن يتشكك أحد ولا يجوز ان يتشكك مع وجود هذه الاسباب في انه أتى بهذا القرآن من عند الله ، فهذا أصل . واذا

ثبت هذا الاصل وجودا فانا نقول انه تحدّاهم الى ان يأتوا بمثله ، وقرّعهم على ترك الاتيان به طول السنين التى وصفناها فلم يأتوا بذلك ، والذي يدل على هذا الاصل انا قدعلمنا ان ذلك مذكور في القرآن في المواضع الكثيرة كقوله (٢:٢٣-٢٤) « وان كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين » وكقوله (١١:١٣-١٤) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سوَر مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين. فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » فجعل عجزهم عن الاتيان بمثله دليلا على انه منه ودليلا على وحدانيته. وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم انه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانية وزعم ان ذلك مما لا سبيل اليه الا من جهة العقل ، لان القرآن كلام الله عز وجل ولا يصح ان يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أوّلا . فقلنا اذا ثبت بما نبينه اعجازه وان الخلق لا يقدرون عليه ثبت ان الذي أتى به غيرهم ، وانه انما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم . وانه صدق ، واذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقا ، وليس اذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع ان يعرف من الوجهين . وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل لانه خارج عن مقصود كلامنا ، ولكنا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه ، ومن ذلك قوله عز وجل (١٧:٨٨) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقوله (٥٢:٣٣-٣٤) « أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » فقد ثبت بما بيناه انه تحدّاهم اليه ولم يأتوا بمثله

وفي هذا أمران : أحدهما التحدّي اليه ، والآخر أنهم لم يأتوا له بمثل ، والذي

يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الامرين . وان قال قائل لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدّي وانما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن كان ذلك قولا باطلا يعلم بطلانه مثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا وهو يبلغ حمل جمل وانه كتم وسيظهره المهدى . أو يدعى أن هذا القرآن ليس هو الذى جاء به النبي ﷺ وانما هو شيء وضعه عمر أو عثمان رضي الله عنهما حيث وضع المصحف . أو يدعي فيه زيادة أو نقصانا . وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، ووعده الحق . وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرد عليه لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادى وفي الاسفار والحضر وضبطوه حفظا من بين صغير وكبير وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والنسيان ، ولا التخليط فيه والكتمان ، ولو زادوا ونقصوا أو غيروا لظهر ، وقد علمت ان شعر امرىء القيس وغيره ـ على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ، ولا ان يحفظ كحفظه ، ولا أن يضبط كضبطه ، ولا ان تمس الحاجة اليه مساسها الى القرآن ـ لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت لا بل لو غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه ، وأنكره أربابه . فاذا كان ذلك مما لا يمكن في شعر امرىء القيس ونظرائه مع أن الحاجة اليه تقع لحفظ العربية ، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن مع شدة الحاجة اليه في أصل الدين ، ثم في الاحكام والشرائع واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه : فمنهم من يضبطه لاحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها ، ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه ؛ ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه ، ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة ، ومن الملحدين من يحصله لينظر في عجيب شأنه . وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة على كثرة اعدادهم واختلاف بلادهم وتفاوت

أغراضهم ان يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان . ويبين ذلك انك اذا تأملت ما ذكر في اكثر السور مما بينا ، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم وقولهم (٨ : ٣١) «لو نشاء لقلنا مثل هذا» وقول بعضهم (٣٨ : ٧) «إنّ هذا الا اختلاق»[1] الى الوجوه التي يصرف اليها قولهم في الطعن عليه فمنهم من يستهين بها ويجعل ذلك سبباً لتركه الاتيان بمثله ، ومنهم من يزعم انه مفترى فلذلك لا يأتي بمثله ، ومنهم من يزعم انه دارس وأنه أساطير الاوّلين . وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحدّيه لئلا يقع التطويل . ولو جاز أن يكون بعضه مكتوماً جاز على كله ولو جاز أن يكون بعضه موضوعاً جاز ذلك في كله . فثبت بما بيناه انه تحدّى اليه وأنهم لم يأتوا له بمثل . وهذا الفصل قد بينا أن الجميع قد ذكروه وبنوا عليه . فاذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده ان تركهم للاتيان بمثله كان لعجزهم عنه . والذي يدل على انهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن انه تحدّاهم اليه حتى طال التحدّي وجعله دلالة على صدقه ونبوّته وتضمن احكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا الى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال واكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الاوطان وعن تسليم الاهل والذرية للسبي . فلما لم يحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها يبين ذلك ان العدوّ يقصد لدفع قول عدوّه بكل ما قدر عليه من المكايد لا سيما مع استعظامه ما بدهه بالمجيء من خلع آلهته وتسفيه رأيه في ديانته وتضليل آبائه والتغريب عليه بما جاء به واظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته والتصرف

---

(١) اسم الاشارة هنا راجع الى قولهم (٣٨ : ٥) «أجعل الآلهة الهاً واحداً».

على حكم ارادته والعدول عن الفه وعادته والانخراط في سلك الاتباع بعد أن كان متبوعا والتشييع بعد أن مشيعاً ، وتحكيم الغير في ماله ، وتسليطه اياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله . وقد علم أن بعض هذه الاحوال مما يدعو الى سلب النفوس دونه . هذا والحمية حميتهم والهمم الكبيرة هممهم وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا الى الرد عليه والى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر ، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به مع بلوغهم فى الفصاحة النهاية التي ليس وراءها مطّلَع والرتبة التي ليس وراءها منزع ؟ ومعلوم أنهم لوعارضوه بما تحداهم اليه لكان فيه توهين أمره ، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ، وتشتيت أسبابه ، وكان من صدّق به يرجع على أعقابه ويعود في مذهب أصحابه . فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة وكان امره يتزايد حالا فحالا ويعلو شيئاً فشيئاً وهم على العجز عن القدح في آيته والطعن في دلالته ، علم مما بينا انهم كانوا لا يقدرون على معارضته ولا على توهين حجته . وقد اخبر الله تعالى عنهم انهم (٤٣ : ٥٨) « قوم خَصِمون » وقال : (١٩ : ٩٧) « وتنذرَ به قوماً لُدّاً » وقال (١٦ : ٤) « خلقَ الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » وعلم ايضاً ان ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى الله عز وجل عنهم من قولهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثلَ هذا انْ هذا الا اساطيرُ الاولين » وقولهم (٢٨ : ٣٦) « ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين » وقالوا (١٥ : ٦) « ياايها الذى نزّل عليه الذكر انك لمجنون » وقالوا (٢١ : ٣) « افتأتون السحرَ وانتم تبصرون » وقالوا (٣٧ : ٣٦) « ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (٢٥ : ٤ـ٥) « وقال الذين

كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا» (٢٥ : ٨)« وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا » وقوله (١٥ : ٩١) « الذين جعلوا القرآن عضين » الى آيات كثيرة في نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين في أمرهم متعجبين من عجزهم يفزعون الى نحو هذه الامور من تعليل وتعذير ومدافعة عما وقع التحدي اليه ، وعرف الحث عليه . وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب وجاهروه ونابذوه وقطعوا الارحام وأخطروا بأنفسهم وطالبوه بالآيات والاتيان [١] وغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجيزه ليظهروا عليه بوجه من الوجوه . فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم ـ وذلك يدحض حجته ويفسد دلالته ويبطل أمره ـ فيعدلون عن ذلك الى سائر ما صاروا اليه من الامور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة ويتركون الامر الخفيف ؟ هذا مما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتفاقه [٢] من العقلاء . والى هذا قد استقصى أهل العلم الكلام وأكثروا في هذا المعنى وأحكموه

ويمكن ان يقال انهم لو كانوا قادرين على معارضته والاتيان بمثل ما أتى به لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة وهم على ما هم عليه من الذرابة والسلاقة والمعرفة بوجوه الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته وانهم يضعفون عن مجاراته . ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به ويقرعهم ويؤنبهم عليه ويدرك آماله فيهم وينجح ما يسعى له بتركهم المعارضة . وهو يذكر فيما يتلوه تعظيم شأنه وتفخيم أمره حتى يتلو قوله تعالى (١٧ : ٨٨) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

---

(١) هنا في الاصل بياض بقدر كلمتين

(٢) كذا في المخطوطة والمطبوعة

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقوله (١٦ : ٢) « يُنزِّلُ الملائكةَ بالرُّوح من أمره على من يشاء منْ عباده أنْ أنذِروا أنه لا إلهَ إلا أنا فاتَّقون » وقوله (١٥ : ٨٧) « ولقد آتيناكَ سَبْعاً من المثَاني والقرآنَ العظيم » وقوله (١٥ : ٩) « إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون » وقوله (٤٣ : ٤٣) «وانه لذِكرٌ لكَ ولقَوْمِك وسوف تُسْئلون » وقوله (٢ : ٢) « هُدىً للمتّقين » وقوله (٣٩ : ٢٣) « اللهُ نزّل أحسنَ الحديث كتاباً مُتشابها مَثانيَ تَقْشعِرّ منه جُلودُ الذين يخشوْن ربَّهم ثم تَلينُ جلودُهم وقلوبهم الى ذِكْر الله » الى غير ذلك من الآيات التي تتضمن تعظيم شأن القرآن . فمنها ما يتكرر في السورة في مواضع منها ومنها ما ينفرد فيها ، وذلك مما يدعوهم الى المباراة ويحضهم على المعارضة وان لم يكن متحدّيا اليه . ألا ترى انهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا ولهم في ذلك مواقف معروفة وأخبار مشهورة وأيام منقولة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم ، فلن يجوز والحال هذه أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها ، تحدّاهم اليها أو لم يتحدّهم . ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر ، وهو انه لو كان مقدوراً للعباد لكان قد اتفق الى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم ان يعارضوه به ، وكانوا لا يفتقرون الى تكلف وضعه وتعمل نظمه في الحال ، فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا عارضوه به فقالوا هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله ، علم انه لم يكن الى ذلك سبيل وانه لم يوجد له نظير ولو كان وجد له مثل لكان ينقل الينا ولعرفناه كما نقل الينا أشعار أهل الجاهلية وكلام الفصحاء والحكماء من العرب وأدى الينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع

بلاغاتهم وصنوف فصاحاتهم.

فان قيل : الذي بنى عليه الامر في تثبيت معجزة القرآن انه وقع التحدّي الى الاتيان بمثله وانهم عجزوا عنه بعد التحدّي اليه ، فاذا نظر الناظر وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه ، وما ذكرتم يوجب سقوط تأثير التحدّي ، وان ما أتى به قد عرف العجز عنه بكل حال

قيل : انما احتيج الى التحدّي لاقامة الحجة واظهار وجه البرهان ، لان المعجزة اذا ظهرت فانما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه ، ولا تظهر على مدّعٍ لها إلا وهي مقاومة أنها من عند الله ، فاذا كان يظهر وجه الاعجاز فيها للكافة بالتحدّي وجب فيها التحدّي ، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة ، وإلا فان مقتضى ما قدّمناه من الفصل أنّ من كان يعرف وجوه الخطاب ويتقن مصارف الكلام — وكان كاملا في فصاحته جامعا للمعرفة بوجوه الصناعة — لو أنه احتُجّ عليه بالقرآن وقيل له ان الدلالة على النبوّة والآيةَ على الرسالة ما أتلوه عليك منه لكان ذلك بلاغا في إيجاب الحجة ، وتماما في الزامه فرض المصير اليه . ومما يؤكد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا الآحاد الى الاسلام محتجاً عليهم بالقرآن — لانا نعلم انه لم يلزمهم تصديقه تقليداً ، ونعلم أن السابقين الأوّلين الى الاسلام لم يقلدوه وانما دخلوا على بصيرة — ولم نعلمه قال لهم ارجعوا الى جميع الفصحاء فان عجزوا عن الاتيان بمثله فقد ثبتت حجتي ، بل لما رآهم يعلمون اعجازه ألزمهم حكمه فقبلوه وتابعوا الحق وبادروا اليه مستسلمين ولم يشكوا في صدقه ولم يرتابوا في وجه دلالته . فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان الى القبول منه أسبق ، ومن اشتبه عليه وجه الاعجاز واشتبه عليه بعض شروط

المعجزات وأدلة النبوّات كان ابطأ الى القبول حتى تكاملت أسبابه واجتمعت له بصيرته وترادفت عليه موادّه . وهذا فصل يجب أن يتمّم القول فيه بعد فليس هذا بموضع له

ويبين ما قلناه أن هذه الآية عَلَم يلزم الكلّ قبوله والانقياد له ، وقد علمنا تفاوت الناس في ادراكه ومعرفة وجه دلالته ، لان الاعجمي لا يعلم انه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج في معرفة ذلك الى أمور لا يحتاج اليها من كان من أهل صنعة الفصاحة ، فاذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم فى توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالي في هذه الصنعة ، فربما حل في ذلك محل الأعجمي في أن لا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه ، وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدها غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفةَ جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة ، فلا تكون الحجة قائمة على المختصّ ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه .

فأما من كان متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها اظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف اعجازه ، وان لم نقل ذلك أدّى هذا القول الى أن يقال ان النبي ﷺ لم يعرف اعجاز القرآن حين أوحى اليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه ، وهذا خطأ من القول . فصح من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى اليه القرآن عرف كونه معجزاً ، وبأن [1] قيل له انه دلالة وعَلَم على نبوّتك أنه كذلك ، من قبل ان يقرأه على غيره أو يتحدّى

---

(١) كذا في المطبوعة ، وفي المخطوطة « كونه معجز أو بأن » وقبل كلمة « بأن » بياض يتسع لكلمة واحدة

اليه سواه . ولذلك قلنا ان المتناهي في الفصاحة والعلم بالاساليب التي يقع فيها التفاصح متى سمع القرآن عرف انه معجز ، لانه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه فيعلم ان عجز غيره كعجزه هو ، وان كان يحتاج بعد هذا الى استدلال آخر على انه عَلَم على نبوّة ودلالة على رسالة بأن يقال له ان هذه آية لنبيّه وانما ظهرت عليه وادّعاها معجزة له وبرهانا على صدقه .

فان قيل فان من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه فكذلك البليغ ، وان علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد يخفى عليه عجز غيره

قيل : هو مع مستقرّ العادة . وان عجز عن قول الشعر وعلم انه مفحَم فانه يعلم ان الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم . ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره لانه كهو لانه (١) يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواء ، اذ ليس في العادة مثل للقرآن يجوز او يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه ، فاذا لم يكن لذلك مثل في العادة — وعرَف هذا الناظر جميع أساليب الكلام وأنواع الخطاب ووجد القرآن مباينا لها — علم خروجه عن العادة وجرى مجرى ما يعلم ان (٢) اخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات فهو لا يجوّزه من نفسه وكذلك لا يجوّز وقوعه من غيره الا على وجه نقض العادة ، بل يرى وقوعه موقع المعجزة . وهذا وان كان يفارق فلق البحر واخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه ، وهو انه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه ، فكونه ناقضاً العادة من غير تأمل

---

(١) كذا بالنسختين ، والأوفق أن تكون « ولأنه »

(٢) أظن الصواب ما يعلم من أن

شديد ولا نظر بعيد . فانَّ النظر في معرفة اعجاز القرآن يحتاج الى تأمل ويفتقر الى مراعاة مقدّمات والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضع . فكل واحد منها يؤول الى مثل حكم صاحبه في الجمع الذي قدمناه .

ومما يبين [ذلك] ما قلناه من ان البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف اعجاز القرآن وتكون معرفته حجة عليه اذا تُحدّي اليه وعجز عن مثله وان لم ينتظر وقوع التحدّي في غيره . وأمَّا الذي يصنع ذلك الغير وهو ما روى في الحديث أن جبير بن مطعم ورد على النبي ﷺ في مُعَنًّى [1] حليف له أراد أن يفاديه فدخل والنبي ﷺ يقرأ سورة (٥٢ : ١ ـ ٢) « والطور وكتاب مسطور » في صلاة الفجر قال فلما انتهى الى قوله (٥٢ : ٧ ـ ٨) « انَّ عذابَ ربِّك لواقعٌ ما لَهُ من دافعٍ » قال خشيت أن يدركني العذاب . فأسلم [2] وفي حديث آخر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة طه فأسلم . وقد روى أن قوله عز وجلّ في أوّل حم السجدة الى قوله (٤١ : ٤) « فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمَعُون » نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة وأبي سفيان بن حرب وأبي جهل . وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة الى النبي ﷺ ليكلمه وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام وأرادوا أن يأتيهم بما عنده فقرأ النبي ﷺ سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى الى قوله (٤١ : ١٣) « فان أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود » فوثب مخافة العذاب ، فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخفَ عليه وجه الاحتجاج والرد .

---

(١) المعنى : الاسير

(٢) في البخاري في آخر باب قصة غزوة بدر عن محمد بن جبير عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور وذلك أول ما وقر الايمان في قلبي . وذكر غيره في كتاب التفسير سورة الطور

فقال له عثمان بن مظعون : لتعلموا أنه من عند الله ، اذ لم يهتد لجوابه

وأبين من ذلك قول الله عز وجلّ (٩ : ٦) « وإِنْ أحَدٌ من المُشركين استجارَكَ فأجِرْه حتى يسمعَ كلامَ الله ثم أبلِغه مأمَنهُ » فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه

فان قيل : لو كان على ما قلتم لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في اسلامهم عند سماعه

قيل : لا يجب ذلك ، لأن صوارفهم كانت كثيرة ، منها أنهم كانوا يشكّون : منهم من يشك في اثبات الصانع ، وفيهم من يشك في التوحيد ، وفيهم من يشك في النبوّة . ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء الى رسول الله ﷺ ليسلم عام الفتح قال له النبي عليه السلام : أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى . فشهد . قال : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟ قال أما هذه ففي النفس منها شيء . فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق شبههم متباينة : فمنهم من قلت شبهه وتأمل الحجة حتى تأملها ولم يستكبر فأسلم ، ومنهم من كثرت شبهه وأعرض عن تأمل الحجة حتى تأملها أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية فتطاول عليه الزمان الى أن نظر واستبصر وراعى واعتبر ، واحتاج الى أن يتأمل عجز غيره عن الاتيان بمثله فلذلك وقف أمره . ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة لتوافوا الى القبول جملة واحدة

فان قيل : فكيف يعرف البليغ الذي وصفتموه اعجاز القرآن ؟ وما الوجه الذي يتطرق به اليه والمنهاج الذي يسلكه حتى يقف به على جلية الأمر فيه ؟

قيل : هذا سبيله أن يفرد له فصل

فان قيل : فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على

صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وانما يصرفه الله عنه ضربا من الصرف أو يمنعه من الاتيان بمثله ضربا من المنع أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل بما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ما قصده من ايجاب الحجة ، لان من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة

فالجواب أنه لو صح ذلك صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار ، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة . ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن . على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهاحط من رتبة البلاغة فيه ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه أبلغ في الاعجوبة اذا صرفوا عن الاتيان بمثله ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه ، فكان يستغنى عن انزاله على النظم البديع واخراجه في المعرض الفصيح العجيب . على أنه لو كانوا صُرفوا على ما ادعاه لم يكن مَن قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدّوا اليه ولم تلزمهم حجته ، فلمّا لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان

وفيه معنى آخر : وهو أن أهل الصنعة في هذا الشأن اذا سمعوا كلاما مطمعا لم يخفَ عليهم ولم يشتبه لديهم ، ومن كان متناهيا في فصاحته لم يجز أن يطمع في مثل هذا القرآن بحال . فان قال صاحب السؤال انه قد يطمع في ذلك ، قيل له أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمي قد يضارع القرآن وقد يزيد

عليه في الفصاحة ولا يتحاشاه ، ويحسب أن ما ألفه في الجزء والطفرة [1] هو أبدع وأغرب من القرآن لفظا ومعنى ، ولكن ليس الكلام على ما يقدّره مقدّر في نفسه ويحسبه ظان من أمره ، والمرجوع في هذا الى جملة الفصحاء دون الآحاد . ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ وتميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب ليعلم أن ما يقدّره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بيّن الغلط ، وان هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله في محكم كتابه (٧٤ : ١٨ ـ ٢٥) « إنه فكّر وقدّر ، فقُتِل كيف قدّر ، ثُمّ قُتِل كيف قدّر ، ثُمّ نَظَر ، ثُمّ عَبَس وبَسَر ، ثُمّ أَدْبَرَ واستكبر ، فقال إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر ، إنْ هذا إلاّ قولُ البَشَر » فهم يعبرون عن دعواهم ـ انهم يمكنهم أن يقولوا مثله ـ بأن ذلك من قول البشر ، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل الى الحد الذي يتجاوز امكان معارضته

ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصَّرْفة انه لو كانت المعارضة ممكنة ـ وانما مَنَع منها الصرفة ـ لم يكن الكلام معجزاً ، وانما يكون المنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه . وليس هذا بأعجب مما ذهب اليه فريق منهم أن الكل قادرون على الاتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا اليه به . ولا بأعجب من قول فريق منهم : انه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب ، وانه يصح من كل واحد منهما الاعجاز على حد واحد

فان قيل : فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجلّ معجز كالتوراة والانجيل والصحف ؟ قيل : ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف ، وان كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الاخبار بالغيوب ، وانما لم

---

(١) في النسختين « والظفرة » بالمعجمة

يكن معجزاً لان الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدّي اليه كما وقع التحدّي الى القرآن . ولمعنى آخر ، وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي الى حد الاعجاز ، ولكنه يتقارب . وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب . ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد في القدْر الذى نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة [العربية] ، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية ؛ وكذلك التصرف في الاستعارات والاشارات ووجوه الاستعمالات البديعة التى يجيء تفصيلها بعد هذا

ويشهد لذلك من القرآن أن الله تعالى وصفه بأنه « بلسانٍ عربيٍّ مُبين » وكرر ذلك في مواضع كثيرة ، وبيّن أنه رفعه عن أن يجعله أعجمياً ، فلو كان يمكن في لسان العجم ايراد مثل فصاحته ، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة . وانه وان كان يمكن أن يكون من فائدة قوله انه عربي مبين أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه الى الرجوع الى غيرهم ، ولا يحتاجون في تفسيره الى من سواهم ، فلا يمتنع أن يفيد ما قلنا أيضاً كما أفاد بظاهره ما قدّمناه . ويبين ذلك أن كثيراً من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة ، وهم من أهل البراعة فيها وفي العربية ، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل والفصاحة ما يقع في العربية . ومعنى آخر ، وهو انا لم نجد أهل التوراة والانجيل ادّعوا الاعجاز لكتابهم ، ولا ادّعى لهم المسلمون ، فعلم أن الاعجاز مما يختص به القرآن . ويبين هذا أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية . وان كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة ، لم يتفق فيها من البديع ما يُمكن ويتأتّى في العربية .

وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية . فان قيل : فان المجوس تزعم أن كتاب زرادشت وكتاب ماني معجزان . قيل : الذي يتضمنه كتاب ماني من طريق النيرنجات وضروب من الشعوذة ليس يقع فيها اعجاز . ويزعمون أن في الكتاب الحِكَم ، وهي حكم منقولة متداولة على الألسن لا تختص بها أمة دون أمة ، وان كان بعضهم أكثر اهتماما بها وتحصيلا لها وجمعا لأبوابها . وقد ادّعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وانما فزعوا الى الدرّة اليتيمة . وهما كتابان أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى ، والآخر في شيء من الديانات ، وقد تهوّس فيه بما لا يخفى على متأمل . وكتابه الذي بيناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة فأي صنع له في ذلك ، وأي فضيلة حازها فيما جاء به ؟ وبعدُ فليس يوجد له كتاب يدّعي مدع أنه عارض فيه القرآن ، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع ، واستحيا لنفسه من اظهاره . فان كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد ، ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده ويتبين له أمره وينكشف له عجزه . ولو كان بقي على اشتباه الحال عليه لم يخف علينا موضع غفلته ولم يشتبه لدينا وجه شبهته ، ومتى أمكن أن تدعي الفرس في شيء من كتبهم أنه معجز في حسن تأليفه وعجيب نظمه ؟

فصل

﴿ في جملة وجوه اعجاز القرآن ﴾

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الاعجاز :

أحدها يتضمن الاخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم اليه . فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز وجل (٩ : ٣٣) « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهرَهُ على الدين كلّه ولو كره المشركون » ففعل ذلك . وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه اذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله من اظهار دينه ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه حتى وقف أصحابُ جيوشه عليه ، فكان سعد بن أبي وقاص رحمه الله وغيره من امراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لاصحابه ويحرّضهم به ويوثق لهم ، وكانوا يُلقَّون الظفر في مُوَجَّهاتهم ، حتى فتح الى آخر أيام عمر رضي الله عنه الى بَلْخ وبلاد الهند ، وفتح في أيامه مرو الشاهجان ومرو الرُّوذ ومُنعهم من العبور بجيحون ، وكذلك فتح في أيامه فارس إلى اصْطَخر وكَرْمان ومَكْران وسجستان وجميع ما كان من مملكة كسرى وكل ما كان يملكه ملوك الفرس بين البحرين من الفرات الى جيحون ، وأزال ملك ملوك الفرس فلم يعد الى اليوم ولن يعود أبداً ان شاء الله تعالى (١) ثم الى حدود إرْمينيَة والى باب الابواب. وفتح أيضاً ناحية الشام والأُرْدُنّ وفلسطين وفسطاط مصر وأزال ملك قيصر عنها وذلك من الفرات الى بحر مصر وهو ملك قيصر . وغزت الخيول في أيامه الى عَمّورية ، فأخذ الضواحي كلها ولم يبق دونها الا ما حجز

(١) أي لن يعود من سلطان الاسلام الى سلطان المجوسية

دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة . وقال الله عزوجل (٣ : ١٢) « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » فصدق فيه ؛ وقال في أهل بدر (٨ : ٧) « وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم » ووفى لهم بما وعد . وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الاخبار عن الغيوب يكثر جداً وانما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل .

والوجه الثاني أنه كان معلوماً من حال النبي صلى الله عليه وسلم انه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ [1] ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الامور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام الى حين مبعثه ، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه وما صار اليه أمره من الخروج من الجنة ، ثم جملا من أمر ولده وأحواله وتوبته ، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام وما كان بينه وبين قومه وما انتهى اليه أمره ، وكذلك أمر ابراهيم عليه السلام ، الى ذكر سائر الانبياء المذكورين في القرآن والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم . ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن تعلم ، واذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الاخبار ولا متردداً الى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه ، علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحي ولذلك قال عزوجل (٢٩ : ٤٨) « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه

---

(١) فهم بعض من لا يحسن الفهم من هذا التعبير أنه كان صلى الله عليه وسلم يقرأ غير أنه لا يحسن القراءة . وفهم من قول الطبري في ثمرة الحديبية عند كتابة الكتاب ج ٣ ص ٨٠ « وليس يحسن يكتب » أنه كان يكتب ولكن لا يحسن ، وهذا الفهم خطأ نشأ من عدم فهم أساليب العربية وآداب الكتابة .

بيمينك إذاً لارتاب المُبْطلون » وقال (٦ : ١٠٥) « وكذلك نُصَرّف الآيات وليقولوا دَرَست » وقد بينا أن من كان يختلف الى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل صنعة لم يخف على الناس أمره ولم يختلف عندهم مذهبه ، وقد كان يعرف فيهم من يحسن هـذا العلم وان كان نادراً ، وكذلك كان يعرف من يختلف اليه للتعليم ، وليس يخفى في العرف عالم كل صنعة ومتعلمها ، فلو كان منهم لم يخف أمره

والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناهٍ في البلاغة الى الحد الذي يُعلَم عجز الخلق عنه ؛ والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التى أطلقوها

فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للاعجاز وجوه :

منها ما يرجع الى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالا فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وان لم يكن معتدلا في وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لان من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعي ان فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم يذكر

بعد هذا الموضع . فهذا اذا تأمله المتأمل تبينَ ـ بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ـ أنه خارج عن العادة وأنه معجز ، وهـذه خَصوصية [١] ترجع الى جملة القرآن وتَميُّز حاصل في جميعه [٢]

ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائدالغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر . وانما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها مانبينه بعد هذا من الاختلال ، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويقع فيها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوّز والتعسف . وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل (٣٩ : ٢٣) « الله نزّلَ أحسنَ الحديث كتابا متشابها مَثانيَ تقشعِرُّ منه جلودُ الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » (٤ : ٨٢) « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . فأخبر أن كلام الآدمي ان امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال ، وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره ، فتأمله تعرف الفضل

وفي ذلك معنى ثالث [٣] ، وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وانذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشِيَم رفيعة وسير مأثورة ، وغير ذلك

---

(١) بفتح الخاء وضمها قالوا والفتح أفصح كقولهم لص بين اللصوصية بفتح اللام
(٢) أي من وجوه الاعجاز
(٣) هذا هو الوجه الثالث من وجوه الاعجاز

من الوجوه التي يشتمل عليها . ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور

فمن الشعراء من يجوّد في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يغرب في وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ، ولذلك ضرب المثل بامريء القيس اذا ركب ، والنابغة اذا رهب ، وبزهير اذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الاحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فاذا جاء الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره ، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لانه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم . فاذا كان الاختلال بينا في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه استغنينا[1] عن ذكر من هو دونهم ، وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها . ثم نجد في الشعراء من يجوّد في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا عجيبا ، ومنهم من يوجد بضد ذلك

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد ، في حسن النظم وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد

(١) كان في الاصل « واستغنينا »

تأملنا مايتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الاعجاز في جميعها على حد واحد لايختلف . وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة . فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك انه مما لايقدر عليه البشر لان الذي يقدرون عليه قد بيّنا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الاسباب التي يتضمن

ومعنى رابع وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل والعلوّ والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ، ألا ترى ان كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه ، حتى ان أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب الى المديح ، وأطبقوا على أنه لايحسنه ولا يأتي فيه بشيء وانما اتفق له — في مواضع معدودة — خروج يرتضى وتنقل يستحسن. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء الى شيء والتحوّل من باب الى باب . ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على أن القرآن — على اختلاف مايتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة — يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الافراد الى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ، ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف

ومعنى خامس وهو أن نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الانس والجن ، فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا ، وقد قال الله عز وجل ١٧ : ٨٨ « قل لئن اجتمعت الانسُ والجن

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »

فان قيل : هذه دعوى منكم وذلك أنه لا سبيل لنا الى أن نعلم عجز الجن عن مثله ، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الاتيان بمثله وان كنا عاجزين ، كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة وأسباب غامضة دقيقة لا نقدر نحن عليها ، ولا سبيل لنا للطفها اليها ، واذا كان كذلك لم يكن الى علم ما ادعيتم سبيل

قيل : قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل . وقد يمكن أن يقال ان هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن وما يروون لهم من الشعر ويحكون عنهم من الكلام ، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم ، والقدر الذى نقلوه قد تأملناه فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الانس ولعله يقصر عنها ، ولا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم ويقع بينهم وبينهم محاورات في عهد الانبياء صلوات الله عليهم ، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات . على أن القوم الى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان ولهم أشعار محفوظة مروية في دواوينهم . قال تأبط شرا [1] :

وأدهمَ قد جُبْتُ جلبابه   كما اجتابت الكاعبُ الخيعلا [2]

---

(١) أنشد ابن بري البيت الاول لحاجز السروي الاس غير أن المحفوظ أنها لتأبط شرا ثابت بن جابر من بني فهم وهو جاهلي :

تقول سليمى لجاراتها   أرى ثابتا قد غدا مرملا
لها الويل ما وجدت ثابتا   ألف اليدين ولا زملا
ولا رعش الساق عند الجرا   ء اذا بادر الحملة الهيضلا
يفوت الجياد بتقريبه   ويكسو هواديها القسطلا

(٢) وأدهم يريد الليل . نص أصحاب كتب اللغة على صحة اجتاب القميص لبسه ودخل فيه ولم يذكروا لفظ جبت القميص أو الظلام أي لبسته ودخلت فيه وهو هنا بهذا المعنى . والجلباب قميص لا كمي له

الى أن حدا الصبحُ أثناءه ... ومزّق جلبابه الأليلا (١)
على شَيْمِ نار تَنَوَّرتُها ... فبتّ لها مُدبِرا مُقبِلا (٢)
فأصبحت والغول لى جارة ... فياجارتا أنتِ ما أهولا
وطالبتها بَضْعَها ، فالتوت ... بوجه تهوّلَ واستغولا (٣)
فمن سال أين ثوت جارتى ... فانَّ لها باللوى منزلا
وكنتُ اذا ما هممت اعتزمـ ... ـت وأحْرِ اذا قلت أن أفعلا

وقال آخر:

عشوْا نارى فقلت منون أنتم ... فقالوا الجنُّ قلت عموا ظلاما
فقمت الى الطعام فقال منهم ... زعيم يحسد الانس الطعاما

ويذكرون لامريء القيس قصيدة مع عمرو الجنى وأشعارا لهما كرهنا ذكرها لطولها. وقال عُبيد بن أيوب (٤):

فلله درُّ الغول أي رفيقة ... لصاحب قفر خائف يتقفر (٥)

---

(١) حدا : ساق . وأثناء جمع ثنى على وزن حمل من قولك مضى ثني من الليل أي ساعة ووقت . وليل أليل شديد الظلمة

(٢) الشيم النظر الى النار وتنورت النار من بعيد تبصرتها

(٣) البضع جمع بضعة كتمر وتمرة وهي القطعة من اللحم . وتهول صار هولة من الهول يفزع منه . وتغولت الغول واستغولت تلونت وتخيلت . ويروى عجز هذا البيت « فكان من الرأى أن تقتلا » ويروى بعده :

عظاية أرض لها حلتا ... ن من ورق الطلح لم تغزلا
فمن كان يسأله عن جارتي ... الخ

(٤) عبيد بن أيوب بن ضرار وكنيته أبو المطراد أحد بنى العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان لصا فاتكا يقطع الطريق هو والاحيمر السعدي سعد بن زيد مناة بن تميم ما بين البصرة والحجاز وكثيرا ما يذكر الغول فى شعره انظر الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٤٢ و ج ٦ ص ٤٨ و ٥٠ و ٥١ . و في ص ٧٣ منه ثلاثة أبيات على السين لم ينسبها وهي له

(٥) كانت في الاصل « متقفر » على الاقواء . والرواية في الخاصة البصرية وفي الحيوان للجاحظ « يتقفر » والقصيدة كلها مرفوعة الروي

أرنّت بلحن بعد لحن وأوقدت حواليّ نيرانا تبوخ وتزهر

وقال ذو الرمة بعد قوله :

قد أعْسِف النازحَ المجهول معسِفه في ظل أخضرَ يدعوهامَهُ البومُ (١)

للجنّ بالليلِ في حافاتها زَجَلٌ كما تناوحَ يومَ الرّيح عيْشُومُ (٢)

دَوِّيّة ودُجَى ليلٍ كأنهما يَم تراطنُ في حافاته الروم (٣)

وقال أيضاً :

وكم عرّستْ بعد السرى من معرَّس به من كلام الجن أصوات سامر (٤)

وقال :

ورملٍ عزيفُ الجن في عَقَباته هَزيزٌ كتَضْراب المُغَنِّين بالطبل (٥)

واذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم ويحكون عنهم ، وذلك القدر المحكي لا يزيد أمره على فصاحة العرب ، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه كعجز الأنس . ويبين ذلك من القرآن أن الله تعالى حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال (٤٦ : ٢٩) « واذ صرفنا اليكَ نفراً من الجنّ

(١) العسف ركوبك الامر بلا تدبر ولا روية . والنازح المجهول يريد فلاة . في ظل اخضر : يريد الليل . وأخضر أسود . ويروى في ظل أغضف وليل أغضف ألبس ظلامه . والهام أنثى البوم والبوم خاص بالذكور على الاكثر ودعاء البوم هامه معروف في شعر العرب ، فمن ذلك قول يزيد بن مفرغ الحميري

وشريت برداً ليتني من بعد برد كنت هامه
هتافة تدعو صدى بين المشقر واليمامه

واستشهد صاحب اللسان بهذا البيت في ترجمة (غضر) على قولهم أنا منه في أمر أخضر أي عيش غض . وبان بما شرحنا به البيت أنه لا يصح هذا الاستشهاد

(٢) زجل جلبة . تناوح تضطرب وتهتز . والعيشوم قصب دقاق طوال كالاسل تتخذ منه الحصر المصبغة الرقيقة

(٣) الدوية المفازة . والدجى جمع دجية على وزن جملة وهي الظلمة

(٤) كانت في الاصل « بعد النوى من معرس لها » وصححناه من نسخة الديوان المخطوطة بدار الكتب المصرية . والسامر القوم يسمرون

(٥) عزيف الجن صوتها ، والعقبة جبل صعب يعترض الطريق فيأخذ فيه ، وهزيز يدوي دويا

يستمعون القرآنَ فلمّا حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضيَ وَلَّوْا إلى قومِهم مُنْذِرين» الى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه . فاذا ثبت أنه وصف كلامهم ، ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم ، صح أن يوصف الشيء المألوف بأنه ينحط عن درجة القرآن في الفصاحة

وهذان الجوابان أسدّ عندي من جواب بعض المتكلمين عنه بأن عجز الانس عن القرآن يثبت له حكم الاعجاز فلا يعتبر غيره . ألا ترى أنه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه فقال لنا قائل فدُلّوا على أن الملائكة تعجز عن الاتيان بمثله لم يكن لنا في الجواب غير هذه الطريقة التي قد بيناها . وانّما ضعفنا هذا الجواب لان الذي حُكي وذكر عجز الجن والانس عن الاتيان بمثله ، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه كما علمنا عجز الانس عنه ، ولو كان وصف عجز الملائكة عنه لوجب أن نعرف ذلك أيضاً بطريقه

فان قيل : أنتم قد انتهيتم الى ذكر الاعجاز في التفاصيل وهذا الفصل انما يدل على الاعجاز في الجملة . قيل : هذا كما أنه يدل على الجملة فانه يدل على التفصيل أيضاً ، فصح أن يَلحق هذا القبيل كما كان يصح أن يُلحق بباب الجمل

ومعنى سادس وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب ، من البسط والاقتصار والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوّز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم ، موجود في القرآن . وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والابداع والبلاغة . وقد ضمنا بيان ذلك بعدُ لان الوجه ههنا ذكر المقدّمات دون البسط والتفصيل

ومعنى سابع وهو أن المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والردّ على الملحدين على تلك الالفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، ويمتنع ذلك

أنه قد علم أن تخير الالفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ، والاسباب الدائرة بين الناس ، أسهل وأقرب من تخير الالفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فاذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرّر والامر المتقرّر المتصوّر ، ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه ، بأن التفاضل في البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الالفاظ وفق المعنى والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم

ومعنى ثامن وهو أن الكلام يبين فضله ورجحان فصاحته ، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر ، فتأخذه الاسماع وتتشوّف اليه النفوس ، ويرى وجه رونقه باديا غامراً سائر ما يقرن به ، كالدرّة التي ترى في سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد . وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهى غرّة جميعه ، وواسطة عقده ، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله ، واعتراضه في جنسه ومائه ، وهذا الفصل أيضاً مما يحتاج فيه الى تفصيل وشرح ونص ليتحقق ما ادّعيناه منه ، ولولا هذه الوجوه التي بيناها لم يتحير فيه أهل الفصاحة ، ولكانوا يفزعون الى التعمل للمقابلة ، والتصنع للمعارضة ، وكانوا ينظرون في أمرهم ، ويراجعون أنفسهم ، أو كان يراجع بعضهم بعضا في معارضته ويتوقفون لها . فاما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، علم ان أهل المعرفة منهم بالصنعة انما عدلوا عن هذه الامور لعلمهم بعجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم دونه . ولا يمتنع ان يلتبس ـ على من لم يكن بارعا فيهم ولا متقدّما في الفصاحة منهم ـ هذا الحال حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل ، وحتى يعرف حال عجز غيره . الا

أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا ولم يشتغلوا بذلك ، تحققا بظهور العجز وتبيناً له . وأما قوله تعالى حكاية عنهم (٨ : ٣١) « لو نشاء لقلنا مثلَ هـذا » فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيا أخبروا به عن أنفسهم ، وقد يمكن أن يكون هذا الـكلام انما خرج منهم ، وهو يدل على عجزهم . ولذلك أورده الله مورد تقريعهم ، لانه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لـكانوا يتجاوزون الوعد الى الانجاز ، والضمان الى الوفاء ، فلما لم يستعملوا ذلك — مع استمرار التحدّي وتطاول زمان الفسحة في اقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه — علم عجزهم ، اذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط . ومعلوم من حالهم وحَميّتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات والهوام والحيّات وفي وصف الازمّة والأنساع والامور التي لا يؤبه لها ولا يحتاج اليها ، ويتنافسون في ذلك أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد التبجح ، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته في هذه المعاني الفسيحة ، والعبارات الفصيحة ، مع تضمن المعارضة تكذيبه ، والذب عن أديانهم القديمة ، واخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم ، وتضليله اياهم ، والتخلص من منازعته ، ثم من محاربته ومقارعته ، ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك ، وانما يُحيلون أنفسهم على التعاليل ، ويعللونها بالاباطيل

ومعنى تاسع وهو أن الحروف التي بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا ، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ، ليدل بالمذكور على غيره ، وليعرفوا أن هـذا الـكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم . والذي تنقسم اليه هـذه الحروف على ما قسمه أهـل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسام نحن ذاكروها

فمن ذلك أنهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهورة . فالمهموسة منها عشرة . وهي : (الحاء) و (الهاء) و (الخاء) و (الكاف) و (الشين) و (الثاء) و (الفاء) و (التاء) و (الصاد) و (السين) ، وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة . وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور ، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان . و (المجهور) معناه أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، و (المهموس) كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس . وذلك مما يحتاج الى معرفته لتبتني عليه أصول العربية

وكذلك مما يقسمون اليه الحروف يقولون انها على ضربين : أحدهما حروف الحلق وهي ستة أحرف (العين) و (الحاء) و (الهمزة) و (الهاء) و (الخاء) و (الغين) والنصف من هذه الحروف مذكور في جملة الحروف التي تشتمل عليها الحروف المبينة في أوائل السور ، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق

وكذلك تنقسم هذه الحروف الى قسمين آخرين : أحدهما حروف غير شديدة ، والى الحروف الشديدة وهي التي تمنع الصوت أن يجري فيه ، وهي (الهمزة) و (القاف) و (الكاف) و (الجيم) و (الطاء) و (الدال) و (التاء) و (الباء) . وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضاً هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بني عليها تلك السور

ومن ذلك الحروف المطبقة ، وهي أربعة أحرف وما سواها منفتحة ، فالمطبقة (الطاء) و (الظاء) و (الصاد) و (الضاد) وقد علمنا أن نصف هذه في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور

وإذا كان القوم ـ الذين قسموا في الحروف هذه الاقسام لاغراض لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ـ رأوا (١) مباني اللسان على هذه الجهة ، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حد التنصيف الذي وصفنا ، دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه ـ بعد العهد الطويل ـ لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجلّ ، لان ذلك يجري مجرى علم الغيوب ، وان كان انما نبهوا (٢) على ما بنى عليه اللسان في أصله ولم يكن لهم في التقسيم شيء ، وانما التأثير لمن وضع أصل اللسان . فذلك أيضاً من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان ، فان كان أصل اللغة توقيفاً فالامر في ذلك أبين ، وان كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً ، لانه لا يصح ان تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى . وكل ذلك يوجب اثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الاعجاز من وجه ، وقد يمكن ان تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها في النظم اذا كانت حروفاً كنحو (الٓمٓ) ، لان الالف المبدوء بها هي أقصاها مطلعاً ، واللام متوسطة ، والميم متطرفة لانها تأخذ في الشفة ، فنبه بذكرها على غيرها من الحروف ، وبين أنه انما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التي تتردّد بين هذين الطرفين . ويشبه ان يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الالف لان الالف قد تلغى وقد تقع الهمزة وهي موقعها واحدا

ومعنى عاشرٌ وهو أنه سهّل سبيله فهو خارج عن الوحشيّ المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريبا الى الافهام يبادر معناه لفظه الى

(١) في الاصل (ورأوا) غير ان سياق الكلام يقتضي حذف الواو فيكون « وإذا كان القوم ..... رأوا مباني اللسان على هذه الجهة ... دل ذلك على أن »
(٢) في المخطوطة « شبهوا »

القلب ، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس . وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول ، غير مطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به . فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبتذل والقول المسفسف ، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة فيطلب فيه التمنع أو يوضع فيه الاعجاز . ولكن لو وضع في وحشي مستكره ، أو غمر بوجوه الصنعة وأطبق بأبواب التعسف والتكلف ، لكان لقائل ان يقول فيه ويعتذر ويعيب ويقرع . ولكنه أوضح مناره وقرب منهاجه وسهل سبيله وجعله في ذلك متشابها متماثلا ، وبين مع ذلك اعجازهم فيه . وقد علمت أن كلام فصحائهم وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف في غريب مستنكر ، أو وحشي مستكره ، ومعان مستبعدة . ثم عدولهم الى كلام مبتذل وضيع لا يوجد دونه في الرتبة ، ثم تحولهم الى كلام معتدل بين الامرين متصرف بين المنزلتين . فمن شاء ان يتحقق هذا نظر في قصيدة امريء القيس :

* قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل *

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف اليه هذه القصيدة ونظائرها ومنزلتها من البلاغة ، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها على وجه يؤخذ باليد ، ويتناول من كثب ، ويتصور في النفس كتصور الاشكال ، ليبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن

واعلم ان من قال من أصحابنا ان الاحكام معللة بعلل موافقة مقتضى العقل ، جعل هذا وجها من وجوه الاعجاز ، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه كنحو ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها ، ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة ووجوه تستحسن . وأصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك ، ولكن الأصل الذي يبنون عليه ، عندنا غير مستقيم . وفي ذلك كلام يأتي في

كتابنا في الاصول

وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والافراد ، فانا جمعنا بين أمور وذكرنا المزية المتعلقة بها وكل واحد من تلك الامور مما قد يمكن اعتماده في اظهار الاعجاز فيه

فان قيل : فهل تزعمون أنه معجز لانه حكاية لكلام القديم سبحانه ، أو لانه عبارة عنه ، أو لانه قديم في نفسه ؟ قيل : لسنا نقول بأن الحروف قديمة ، فكيف يصح التركيب على الفاسد ؟ ولا نقول أيضاً ان وجه الاعجاز في نظم القرآن انه حكاية عن الكلام القديم ، لانه لو كان كذلك لكانت التوراة والانجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات في النظم والتأليف ، وقد بينا ان اعجازها في غير ذلك ، وكذلك كان يجب ان تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومنفردها ، وقد ثبت خلاف ذلك

فصل

﴿ في شرح ما بينا من وجوه اعجاز القرآن ﴾

فأما الفصل الذي بدأنا بذكره [1] من الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله ، فهو كقوله تعالى (٤٨ : ١٦) « قل للمُخَلَّفين من الأعراب ستُدْعَوْن الى قوم أولي بأس شديدٍ تقاتلونهم أو يُسْلِمون » فأغزاهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما الى قتال العرب والفرس والروم ، وكقوله (٣٠ : ١ ـ ٤) « الٓمٓ غُلِبتِ الرُّوم في أدنى الأرض وهم من بعدِ غَلَبِهم سيَغْلِبون في بِضع سنين » وراهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك وصدق الله وعده وكقوله في قصة أهل بدر (٥٤ : ٤٥) « سيُهْزَم الجمْعُ ويُوَلّون الدُّبُر » وكقوله (٤٨ : ٢٧) « لقد صدَق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق لتَدْخُلُنَّ المسْجدَ الحرامَ ان شاء اللهُ آمنين مُحلِّقين رؤسَكم ومُقَصِّرين لا تخافون » وكقوله (٨ : ٧) « واذ يَعِدُكم الله احدى الطائفتين أنها لكم » في قصة أهل بدر وكقوله (٢٤ : ٥٥) «وعد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليَسْتَخْلِفَنَّهم في الارض كما استخلَف الذين من قبلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليُبَدِّلَنَّهم من بعدِ خوفِهم أمْنا » وصدق الله تعالى وعده في كل ذلك . وقال في قصة المتخلِّفين عنه في غزوته (٩ : ٨٣) « لن تخرجوا معيَ أبدا ولن تقاتلوا معيَ عدوّا » فحق ذلك كله وصدق ولم يخرج من المخالفين الذين خوطبوا بذلك معه أحد . وكقوله (٩ : ٣٣) « ليظْهِرَه على الدين كله » وكقوله (٣ : ٦٠) « فقلْ تعالَوْا ندْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفُسَنا وأنفسَكم ثم نبْتَهِلْ فنجعلْ لعنةَ الله على الكاذبين » فامتنعوا من المباهلة ولو

(١) ص ٢٦

أجابوا اليها اضطرمت عليهم الأودية نارا على ما ذكر فى الخبر . وكقوله (٢ : ٩٤ ـ ٩٥) « قل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دون الناس فتمنَّوا الموتَ ان كنتم صادقين . ولن يتمنَّوْه أبداً بما قدَّمَتْ أيديهم » ولو تمنوه لوقع بهم . فهذا وما أشبهه فصل

وأما الوجه الثاني الذي ذكرناه [١] من اخباره عن قصص الاوّلين وسير المتقدمين ، فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الاخبار ولم يشتغل بدرس الآثار . وقد حكى فى القرآن تلك الامور حكاية من شهدها وحضرها ، ولذلك قال الله تعالى (٢٩ : ٤٨) « وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخُطُّه بيمينك اذاً لارتاب المُبْطِلون » وقال (٢٨ : ٤٤) « وما كنتَ بجانبِ الغرْبيّ اذ قضينا الى موسى الامرَ وما كنتَ من الشاهدين » وقال (٢٨ : ٤٦) « وما كنتَ بجانب الطورِ اذ نادينا ولكن رَّحمةً من ربك لتنذرَ قوما ما أتاهم مِنْ نذيرٍ من قبلِك » فبين وجه دلالته من اخباره بهذه الامور الغائبة السالفة . وقال (١١ : ٤٩) « تلك من أنباء الغيب نُوحِيها اليكَ ما كنتَ تعلَمُها أنتَ ولا قومك من قبلِ هذا » الآية

فأما الكلام فى الوجه الثالث وهو الذي بيناه [٢] من الاعجاز الواقع فى النظم والتأليف والرصف ، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوها منها : انا قلنا انه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلامهم ، ومباين لاساليب خطابهم . ومن ادّعى ذلك لم يكن له بدّ من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى ، لان قوما من كفار قريش ادعوا انه شعر ، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعرا ، ومن أهل الملة من يقول انه كلام مسجع الا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ، ومنهم من يدّعي انه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب

(١) ص ٣٧ (٢) ص ٣٨

فصل

﴿ في نفي الشعر من القرآن ﴾

قد علمنا أن الله تعالى نفى الشعر من القرآن ومن النبي صلى الله عليه وسلم فقال (٣٦ : ٦٩) « وما علمناه الشعرَ وما ينبغي له انْ هو الا ذكرٌ وقرآن مبين » وقال في ذم الشعراء (٢٦: ٢٢٤-٢٢٥) « والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم تر انهم في كل واد يهيمون » الى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات فقال (٦٩ : ٤١) « وما هو بقول شاعر » وهذا يدل على ان ما حكاه عن الكفار من قولهم انه شاعر ، وان هذا شعر ، لابد من أن يكون محمولا على انهم نسبوه في القرآن الى أن الذى أتاهم به هو من قبيل الشعر الذى يتعارفونه على الاعاريض المحصورة المألوفة ، أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم اياهم بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق ، وان كان ذلك الباب خارجا عما هو عند العرب شعرٌ على الحقيقة ، أو يكون محمولا على انه أطلق عن بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر ، وهذا أبعد الاحتمالات فان حمل على الوجهين الاولين كان ما أطلقوه صحيحا ، وذلك ان الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره ، واذا قدر على صنعة الشعر كان على مادونه - في رأيهم وعندهم - أقدرَ ، فنسبوه الى ذلك لهذا السبب . فان زعم زاعم أنه قد وَجد في القرآن شعراً كثيراً فمن ذلك مايزعمون انه بيت تام أو أبيات تامة ومنه مايزعمون انه مصراع كقول القائل :

قد قلت لما حاولوا سلوتي (هيهات هيهات لما توعدون) (٢٣ : ٣٦)

ومما يزعمون انه بيت قوله (٣٤ : ١٣) : « وجفان كالجواب وقدور

راسيات » قالوا هو من الرمل من البحر الذى قيل فيه :

ساكن الريح نطوف المزن منحل العزالي (١)

وكقوله (٣٥ : ١٨) « من تزكى فإنما يتزكى لنفسه » كقول الشاعر من بحر الخفيف :

كل يوم بشمسه وغد مثل أمسه

وكقوله عز وجل (٦٥ : ٢-٣) « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » قالوا هو من المتقارب. وكقوله (٧٦ : ١٤) « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا » ويشبعون حركة الميم فيزعمون انه من الرجز. وذكر عن أبي نواس انه ضمن ذلك شعرا وهو قوله :

وفتية في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا

دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا

وقوله عز وجل (٩ : ١٤) « ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » زعموا انه من الوافر كقول الشاعر (٢) :

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها عصي (٣)

وكقوله عز وجل (١٠٧ : ١-٢) « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم » ضمنه أبو نواس في شعره ففصل وقال « فذاك الذى » وشعره :

وقرا معلنا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيما

(١) يصف سحابة . نطوف : قطور ، تقطر حتى الصباح . والعزالى : جمع عزلاء وهي مصب الماء من الراوية والقربة في اسفلها

(٢) امرؤ القيس الكندى

(٣) غزار : غزيرة ألبانها . وجلة الابل مسانها جمع جليل مثل صبي وصبية . ورواية عجز البيت المشهورة « ألا ان لم تكن ابل فمعزى »

أرأيت الذي يكذّب بالديـ ن فذاك الذي يدعُّ اليتيما

وهذا من الخفيف كقول الشاعر :

وفؤادي كعهده بسليمى بهوى لم يحُل ولم يتغيّر

وكما ضمنه في شعره من قوله (٤٣ : ١٣) :

سبحان (من) سخّر هذا لنا (حقاً) وما كنا له مُقْرنين

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر وكما يقولونه في قوله عز وجل (١٠٠ : ١ــ٢) « والعاديات ضَبْحاً فالموريات قَدْحا » ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله (٥١ : ١ ــ ٣) « والذاريات ذَرْواً فالحاملات وِقْراً فالجاريات يُسْراً » وهو عندهم شعر من بحر البسيط

والجواب عن هذه الدعوى التي ادعوها من وجوه : أوّلها ، ان الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن لو كانوا يعتقدونه شعرا ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم لبادروا الى معارضته ، لان الشعر مسخر لهم مسهل عليهم لهم فيه ماقد علمت من التصرف العجيب والاقتدار اللطيف ، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ولا عوّلوا عليه علم انهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة والمُرْمدون في هذا الشأن (١) ، وان استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم ، وزعمه انه قد ظفر بشعر في القرآن ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم مع شدة حاجتهم الى الطعن في القرآن والغض منه والتوصل الى تكذيبه بكل ماقدروا عليه ، لن (٢) يجوز أن يخفى على أولئك وان يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق . اذا كان كذلك علم أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد (٣)

(١) أرمد الرجل جهد وافتقر

(٢) في الاصل (فان) وبها لا يستقيم المعنى ولا الكلام ، وعدم خبر « وان استدراك »

(٣) « شديد في الاصل »

وهو انهم قالوا : ان البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرا وأقل الشعر بيتان فصاعدا ، والى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الاسلام . وقالوا أيضاً : ان ما كان على وزن بيتين الا انه يختلف رويهما وقافيتهما فليس بشعر . ثم منهم من قال : ان الرجز ليس بشعر أصلا لاسيما اذا كان مشطورا أو منهوكا ، وكذلك ما كان يقارنه في قلة الاجزاء . وعلى هذا يسقط السؤال . ثم يقولون : ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يتعمد ويسالك ، ولا يصح ان يتفق مثله الا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامي والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد فليس يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر ، لانه لو صح ان يسمى [شاعراً] كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر ، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض ، كان الناس كلهم شعراء . لان كل متكلم لا ينفك من ان يعرض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر وينتظم انتظامه . ألا ترى ان العامي قد يقول لصاحبه « أغلق الباب وائتني بالطعام » ويقول الرجل لأصحابه « اكرموا من لقيتم من تميم » ومتى تتبع الانسان هذا عرف انه يكثر في تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه . وهذا القدر الذي يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعة سرقة اذ لم تعلم فيه حقيقة الأخذ ، كقول امريء القيس :

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم   يقولون لاتهلك أسىً وتجمَّلِ

وكقول طرَفة :

وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم   يقولون لاتهلك أسى وتجلدِ

ومثل هذا كثير . فاذا صح مثل ذلك في بعض البيت ولم يمتنع التوارد فيه فكذلك لا يمتنع وقوعه في الكلام المنثور اتفاقا غير مقصود اليه ، فاذا اتفق لم يكن ذلك شعرا ، وكذلك يمتنع التوارد على بيتين وكذلك يمتنع في الكلام

المنثور وقوع البيتين ونحوهما . فثبت بهذا ان ما وقع هذا الموقع لم يعدّ شعراً وانما يُعدُّ شعراً ما اذا قصده صاحبه تأتّى له ولم يمتنع عليه ، فاذا كان هو مع قصده لا يتأتّى له وانما يعرض في كلامه عن غير قصد اليه لم يصح ان يقال انه شعر ولا ان صاحبه شاعر ، ولا يصح ان يقال ان هذا يوجب ان مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب ان يكون شعرا ، لانه لو قصده لكان يتأتّى منه . وانما لم يصح ذلك لان ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعرا من أحد وما كان شعرا من أحد من الناس كان شعرا من كل أحد . ألا ترى أن السوقي قد يقول « اسقني الماء يا غلام سريعا » وقد يتفق ذلك من الساهي ومَن لا يقصد النظم . فأما الشعر اذا بلغ الحد الذي بينا فلا يصح ان يقع الا من قاصد اليه . وأمّا الرجز فانه يعرض في كلام العوام كثيراً فاذا كان بيتا واحداً فليس ذلك بشعر ، وقد قيل : ان أقل ما يكون منه شعرا أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها ولم يتفق ذلك في القرآن بحال ، فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجري مجراه في قلة الكلمات فليس بشعر وما اتفق في ذلك من القرآن مختلف الرويّ ، ويقولون : انه متى اختلف الرويّ خرج من ان يكون شعرا . وهذه الطرق التي سلكوها في الجواب معتمدة أو أكثرها ، ولو كان ذلك شعرا لكانت النفوس تتشوّف الى معارضته لان طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد وأهله يتقاربون فيه أو يضربون فيه بسهم

فان قيل : في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وان كان غير مقفى بل هو مزاوج متساوي الضروب ، وذلك آخر أقسام كلام العرب . قيل : من سبيل الموزون من الكلام ان تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات ، فان خرج عن ذلك لم يكن موزونا كقوله :

رب أخ كنتُ به مغتبطا أشدُّ كفي بعُرا صحبته

متمسكا مني بالود ولا أحسبه يزهد في ذي أمل
متمسكا مني بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنه أبدا فخاب فيه أملي

وقد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل بل هذا قبيل غير ممدوح ولا مقصود من جملة الفصيح ، وربما كان عندهم مستنكرا بل أكثره على ذلك . وكذلك ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه أولا وهو الذي شرطنا فيه التعادل والتساوي في الأجزاء غير الاختلاف الواقع في التقفية . ويبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينا وتتم فائدته بالخروج منه ، وأما الكلام الموزون فان فائدته تتم بوزنه

فصل

﴿ في نفي السجع من القرآن ﴾

ذهب أصحابنا كلهم الى نفي السجع من القرآن ، وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه . وذهب كثير ممن يخالفهم الى اثبات السجع في القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام وانه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة . وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاقُ الكل على أن موسى أفضل من هرون عليهما السلام ولمكان السجع قيل في موضع هرون وموسى ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل موسى وهرون . قالوا وهذا يفارق أمر الشعر لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصوداً اليه ، واذا وقع غير مقصود اليه كان دون القدر الذي يسمى شعراً وذلك القدر

ما يتفق وجوده من المفحَم كما يتفق وجوده من الشاعر . وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير لا يصح أن يتفق كله غير مقصود اليه ، ويبنون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع ، قال أهل اللغة : هو موالاة الكلام على وزن واحد . قال ابن دريد ، سجعت الحمامة معناها ردّدت صوتها . وأنشد :

طربتَ فأبكتك الحمامُ السواجع تَميل بها ضَحْواً غصون نوائم [(١)]

(النوائم ، الموائل : من قولهم جائع نائع أي متمايل ضعفا) ، وهذا الذي يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز . ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز . وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لان الكهانة تنافي النبوّات وليس كذلك الشعر . وقد روي أن النبي ﷺ قال للذين جاؤه وكلموه في شأن الجنين : كيف نَدِي من لا شرب ولا أكل[(٢)] ، ولا صاح فاستهلّ ، أليس دمه قد يطل ؟ فقال « أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ » وفي بعضها « أسجعا كسجع الكهان » ؟ فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون في دلالته . والذي يقدّرونه انه سجع فهو وهم لانه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا ، لان ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا المعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى

---

(١) ضحواً : ضحى . ونوائم : جمع نائمة قال ابن دريد : ناع يميع وينوع : تمايل . ويروى « غصون يوانم »

(٢) كانت في الاصل « من لا أكل ولا شرب »

المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت افادة السجع كافادة غيره ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الـكلام دون تصحيح المعنى . فان قيل : فقد يتفق في القرآن ما يكون من القبيلين جميعا فيجب أن تسموا أحدهما سجعا . قيل : الـكلام في تفصيل هذا خارج عن غرض كتابنا وإلا كنا نأتي على فصل فصل من أوّل القرآن الى آخره ونبين في الموضع الذي يدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى ، ولـكنه خارج عن غرض كتابنا ، وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين . ثم ان سلّم لهم مسلِّم موضعا أو مواضع معدودة ، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب الى الفواصل لتحسين الـكلام بها ، وهي الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الـكلام ، وزعم أن الوجه في ذلك انه من باب الفواصل ، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود اليه ، وأن ذلك اذا اعترض في الخطاب لم يعدّ سجعا على ماقد بينا من القليل من الشعر كالبيت الواحد والمصراع والبيتين من الرجز ونحو ذلك يعرض فيه فلا يقال انه شعر ، لانه لا يقع مقصودا اليه وانما يقع مغمورا في الخطاب ، فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه . ويقال لهم : لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعا لـكان مذموما مرذولا ، لانّ السجع اذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طرقه ، كان قبيحا من الـكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخلّ به المتكلم أوقع الخللَ في كلامه ونسب الى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر اذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا ، وربما أخرجه عن كونه شعرا . وقد علمنا ان بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتدّ حتى يتضاعف طوله عليه ، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الاوّل بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضيّ ولا محمود

فان قيل : متى خرج السجع المعتدل الى نحو ماذكرتموه خرج من أن يكون سجعا ، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه كله سجعا ، بل يأتي به طورا ثم يعدل عنه الى غيره ، ثم قد يرجع اليه

قيل : متى وقع أحد مصراعي البيت مخالفا للآخر كان تخليطا وخبطا ، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعي الكلام المسجع وتفاوت كان خبطا ، وعلم ان فصاحة القرآن غير مذمومة في الاصل فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب . ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه ، وكانت الطباع تدعو الى المعارضة ، لان السجع غير ممتنع عليهم بل هو عادتهم ، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة وهو غير خارج عنها ولا مميز منها ؟ وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع وليس بسجع عندهم ، وذلك نحو قول البحتري :

تَشَكَّى الوجى ، والليلُ ملتبسُ الدجا غُرَيْرِيَّةُ الانسابِ مَرْتٌ نقيعها (١)

وقوله (البحتري) :

قريب المَدَى ، حتى يكون الى الندى ، عدوّ البِنَى ، حتى يكون مَعالِي (٢)

ورأيت بعضهم يرتكب هذا فيزعم أنه سجع مداخل ، ونظيره من القرآن

---

(١) من قصيدة له يمدح المتوكل ويذكر صلح تغلب وهي من خير قصائده . وهذا البيت في ناقته . الوجى من قولهم وجيت الناقة وجى وجدت في خفها . والابل الغريرية منسوبة الى الغرير وهو فحل اظنه كان للنعمان بن المنذر . المرت الارض لا كلأ بها وان مطرت . والنقيع البئر الكثيرة الماء ، أو هو من المياه البارد العذب

(٢) من قصيدته في مدح محمد بن عمر بن علي بن مر ، وهي جليلة . المدى الغاية . وقوله قريب المدى أي قريب الغاية والانتهاء فيما يسومك كالغضب حتى يصير الى الندى فهناك سيب لا غاية لجريه . وهو عدو كل بناء لا يكون بناء للمعالي . وكان من حق الاعراب على البحتري أن يقول « حتى يكون معاليا » ولعله اراد « حتى يكون بناه معالي » فاجراه والبنية بكسر الباء أو ضمها وسكون النون هو ما بنيته ، وهو البنى بالكسر أو الضم أيضا مقصورا

قوله تعالى (١٦ : ٢٧) « ثم يومَ القيامة يُخزيهمْ ويقولُ أين شُركائيَ الذين كنتم تُشاقُّون فيهم » وقوله (١٧ : ١٦) « أمرْنا مُترَفيها ففَسقوا فيها » وقوله (٩ : ٢٤) « أحبَّ اليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيله » وقوله (٣ : ٤٨ ، ٤٩) « والتوراةَ والانجيلَ ، ورسولا الى بني اسرائيل » وقوله (١٩ : ٤) « إني وَهَنَ العظمُ منّي » ولو كان ذلك عندهم سجعاً لم يتحيروا فيه ذلك التحيّر حتى سماه بعضهم سحراً ، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ويصرفونه اليه ويتوهمونه فيه ، وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه ، وليس القوم بعاجزين عن تلك الاساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم . والذي تكلمنا به في هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل ، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل ما يكشف عن مُباينة ذلك وجوهَ السجع

ومن جنس السجع المعتاد عندهم قولُ أبي طالب لسيف بن ذي يَزَن « أنبتَكَ مَنْبِتاً طابت أرومتُهُ ، وعزّت جرثومته ، وثبت أصله وبَسَق فرعهُ ، ونبت زرْعه في أكرم موْطِن ، وأطيب مَعْدِن » وما يجري هذا المجرى من الكلام

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة مخالفته للشعر وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم ، ولا معنى لقولهم ان ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسقٍ واحد ورويٍ غير مختلف ، لان ما جرى هذا المجرى لا يُبنى على الاشتقاق وحدَه ، ولو بُنيَ عليه لكان الشعر سجعا ، لأن رويه يتفق ولا يختلف . وتردّد القوافي على طريقة واحدة . وأما الامور التي يستريح اليها الكلام فانها تختلف : فربما كان ذلك يسمى [1] قافية وذلك انما يكون في الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان [يسمى [2]] مقاطع السجع وربما

(١) في النسخة المخطوطة : مسمى (٢) الزيادة في المطبوعة وليست في المخطوطة

سمي ذلك فواصل . وفواصل القرآن ـ مما هو مختص بها ـ لاشركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب

وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع ولتساوى مقاطع الكلام ، فليس بصحيح ، لان الفائدة عندنا غير ما ذكروه ، وهي ان اعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا ، من الامر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتتبين فيه البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة ، ونُبِّهوا بذلك على عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأً به ومكرّرا . ولو كان فيهم تَمَكُّنٌ من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظٍ لهم تؤدي تلك المعاني ونحوها ، وجعلوها بازاء ما جاء به ، وتوصلوا بذلك الى تكذيبه والى مساواته فيما جاء به . كيف وقد قال لهم (٥٢ : ٣٤) « فليأتوا بحديثٍ مثله ان كانوا صادقين » فعلى هذا يكون المقصدُ ـ بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها ـ اظهارَ الاعجاز على الطريقين جميعاً دون التسجيع الذي توهموه

فان قال قائل : القرآن مختلط من أوزان كلام العرب ففيه من جنس خطبهم ، ورسائلهم ، وسجعهم ، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى ، ولكنه أبدَعَ فيه ضربا من الابداع لبراعته وفصاحته

قيل : قد علمنا ان كلامهم ينقسم الى نظم ، ونثر ، وكلام مقفى غير موزون ، ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع ، ونظم مقفى موزون له رويّ . ومن هذه الاقسام ما هو سجيّةُ الاغلب من الناس . فتناوُله أقرب ، وسلوكه لايتعذر . ومنه ماهو أصعب تناولا كالموزون عند بعضهم أو الشعر عند الآخرين . وكل هذه الوجوه لاتخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين : إما بتعمل وتكلف وتعلم وتصنع ، أو باتفاق من الطبع وقذفٍ من

النفس على اللسان للحاجة اليه . ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع ، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم ويتعرض على ألسنتهم وتجيش به خواطرهم ، ولا ينصرف عنه الكل [1] مع شدّة الدواعي اليه . ولو كان طريقَه التعلّمُ لتصنعوه ولتعلموه ، فالمُهْلة لهم فسيحة والأمَدُ واسع

وقد اختلفوا في الشعر كيف اتفق لهم ؟ فقد قيل : انه اتفق في الأصل غير مقصود اليه على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام ، ثم لما استحسنوه واستطابوه ورأوا انه تألَفه الاسماع وتقبَلُه النفوس ، تَتَبَّعوه من بعدُ وتعملوه . وحكى لي بعضهم عن أبي عمر [2] غُلامِ ثعلب عن ثعلب أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزنِ

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

ويسمون ذلك الوضع (المِتَير [3]) واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته ، ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره فيحتمل ما قاله . وأمّا ما وقع السَبْق اليه فيشبه أن يكون على ماقدمنا ذكرَه أوّلا وقد يحتمل - على قول مَنْ قال بأن اللغة اصطلاح - انهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم . وقد يمكن ان يقال مثله على المذهب الآخر ، وانهم وقفوا على ما يتصرّف اليه القول من وجوه التفاصح ، أو توافقوا هم بينهم على

(١) كانت بالاصلين « هنه الكل »

(٢) كانت بالاصلين « أبي عمرو » بالواو وصوابه أبو عمر الزاهد (بحذف الواو) محمد ابن عبد الواحد غلام ثعلب اللغوي الثقة الحافظ له كتب

(٣) لم أعثر بعد على هذه القصة عن أبي عمر الزاهد ولا عن غيره ولست أعرف هذه الكلمة (المتير) وليست مثبتة في كتب اللغة لا بهذا المعنى ولا بغيره . وقوله ان اشتقاقها من المتر يدل بعض الشيء على أنها على وزن (فعيل) بمعنى مفعول أي متور أي مقطع

ذلك ، ويمكن أن يقال ان التواضع وقع على أصل الباب وكذلك التوقيف ، ولم يقع على فنون تصرف الخطاب ، وان الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظام ما أجرى ، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد وبنوا عليه وطلبوه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها ، وتَهِشّ النفوس اليها ، وجَمَع (١) دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها ، واختيار طرق من تنزيلها ، وعرّفهم محاسن الكلام ، ودلهم على كل طريقة عجيبة ، ثم أعلمهم عجزهم عن الاتيان بالقرآن ، والقدر الذي يتناهى اليه قدرهم ، هو مالم يخرج عن لغتهم ، ولم يشذ من جميع كلامهم بل قد عرض في خطابهم ، ووجدوا ان هذا انما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة اليه مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر وتكامل أحوالهم فيه ، دل (٢) على انه اختص به ليكون دلالة على النبوّة ومعجزة على الرسالة ، ولولا ذلك لكان القوم إذا اهتدوا في الابتداء الى وضع هذه الوجوه التي يتصرف اليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه ، فَلَأَنْ يقدروا بعدَ التنبيه على وجهه والتحدي اليه أولى ان يبادروا اليه لو كان لهم اليه سبيل . فلو كان الأمر على ما ذكره السائل لوجب أن لا يتحيروا في أمرهم ، ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم ، ولكانوا يسرعون الى الجواب ويبادرون الى المعارضة ، ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد الى الامور البعيدة عن الوهم ، والاسباب التي لا يحتاج اليها ، فيكثر فيها من شعر ورجز ، ونجد من يعينه على نقله عنه على ماقدمنا ذكره من وصف الابل ونتاجها وكثير من أمرها لا فائدة في الاشتغال به في دين ولا دنيا . ثم كانوا يتفاخرون بالألسَن

(١) يريد جمع الله تعالى

(٢) هذا كلام مضطرب وفي المخطوطة أكثر اضطرابا لأن أول الجملة هناك « بل قد عرض فى كلامهم ووجد » بالبناء للمجهول « وأن هذا .. » فهذا كما ترى لا يؤدي معنى وأحسب الصواب « ولما وجدوا ان هذا انما تعذر ...، دل على ... »

والذلاقة والفصاحة والدراية ويتنافرون فيه ، وتجري بينهم فيه الأسباب المنقولة في الآثار على ما لا يخفى على أهله . فاستدللنا بتحيرهم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ، ووقوعه موقعاً يخرق العادات ، وهذه سبيل المعجزات

فبان بما قلنا أن الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبةً موقعَ النظائر التي تقع في الاسجاع ، لا يخرجها عن حدها ولا يدخلها في باب السجع . وقد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء فكان بعض مصاريعه كلمتين وبعضها تبلُغ كلمات ، ولا يرون في ذلك فصاحة بل يرونه عجزاً . فلو رأوا ان ما تلي عليهم من القرآن سجعا لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل ، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن ونتجاوز حده في البراعة والحسن . ولا معنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة الى غيره ثم رجع اليه ، لان ما تخلل بين الامرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدَّروه من التسجيع ، لانه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته

ولا بد لمن جوّز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلّم ما ذهب(١)

(١) الذي ذهب اليه النظام هو ما حكاه ابن الخياط المعتزلي في كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد » ص ٢٧ قال (أي ابن الراوندي) « وكان يزعم (أي ابراهيم النظام) ان نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة للنبي صلى الله عليه وسلم وان الخلق يقدرون على مثله (ثم قال) هذا مع قول الله عز وجل « قل لئن اجتمعت الانس والجن » الآية اعلم - علمك الله الخير - ان القرآن حجة للنبي صلى الله عليه وسلم على نبوته عند ابراهيم من غير وجه فأحدها ما فيه من الاخبار بالغيوب (وذكر آيات مضت في كتابنا هذا « اعجاز القرآن ») ، الى أن قال : ومثل اخباره بما في نفوس قوم وبما سيقولونه وهذا وما أشبهه في القرآن كثير . فالقرآن عند ابراهيم حجة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الوجوه وما أشبهها واياها عنى الله تعالى بقوله « قل لئن اجتمعت الانس والجن » الآية . اه باختصار أي أن القرآن معجز بمعناه وحسب

اليه النَظّام [١] ، وعباد بن سلمان [٢] ، وهشام الفُوَطي [٣] ويذهب مذهبهم في انه ليس في نظم القرآن وتأليفه اعجاز ، وانه يمكن معارضته ، وانما صُرفوا عنه ضربا من الصرف . ويتضمن كلامه تسليم الخبط في طريقة النظم ، وانه منتظم من فرق شتى ومن أنواع مختلفة ينقسم اليها خطابهم ولا يخرج عنها ، ويستهين ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذي وقع التحدي اليه . وكيف يُعجزهم الخروجُ عن السجع والرجوعُ اليه وقد علمنا عادتهم في خطبهم وكلامهم انهم كانوا لا يلزمون أبدا طريقة السجع والوزن ، بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة ، فاذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمى الكلامين .

(١) النظام هو أبو اسحاق ابراهيم بن سيار ذكره الذهبي فيمن مات بين سنة ٢٢١ الى سنة ٢٣١ اه . من تعليقات الانتصار ص ١٨٢

(٢) ذكر صاحب الانتصار في ص ٩٠ ، ٩١ رجلا اسمه عباد بن سليمان وترجم له ابن المرتضى بهذا الاسم وقال كان من أصحاب هشام الفوطي عاش هذا الرجل في القرن الثالث . من تعليقات الانتصار ص ٢٠٣

(٣) بالاصل المخطوط (القرطي) والمطبوع (القرظي) والصواب ما أثبتناه . والفوطي بضم الفاء ففتح الواو نسبة الى الفوط وهي نوع من الثياب واحدته فوطة (السمعاني) . وهو هشام بن عمرو الشيباني ذكره ابن المرتضى ولعله مات في الربع الاول من القرن الثالث اه . تعليقات الانتصار ص ١٩٢ ـ ١٩٣ وذكر هشاما هذا ابن حزم في كلامه في الملل والنحل ج ٤ ص ١٩٦ ، ٢٠٢

فصل

﴿في ذكر البديع من الكلام﴾

ان سأل سائل فقال : هل يمكن ان يعرف اعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع ؟

قيل : ذكر أهلُ الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها ، ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر مبين مقرر وباب مصوّر . ذكروا ان من البديع في القرآن قوله عز ذكره (١٧ : ٢٤) « واخفضْ لهُما جَناحَ الذُلِّ مِنَ الرَّحْمةِ » وقوله (٤٣ : ٤) « وإِنّه في أمِّ الكِتاب لَدَيْنا لَعَليٌّ حَكِيمٌ » وقوله (١٩ : ٤) « واشْتَعلَ الرأسُ شَيْبًا » وقوله (٣٦ : ٣٧) « وآيةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ مِنْه النهارَ فإذا همْ مُظْلِمُون » وقوله (٢٢ : ٥٥) « أو يأتِيَهُم عذابُ يومٍ عقيمٍ » وقوله (٢٤ : ٣٥) « نورٌ على نُورٍ » . وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكيمة كقوله (٢ : ١٧٩) « ولكم في القِصاص حَياةٌ » وفي الألفاظ الفصيحة كقوله (١٢ : ٨٠) « فلما استيأسوا منهُ خَلَصوا نَجيًّا » وفي الألفاظ الالهية كقوله (٢٧ : ٩١) « وله كل شيء » وقوله (١٦ : ٥٣) « وما بِكُم من من نِعْمةٍ فمِنَ اللهِ » وقوله (٤٠ : ١٦) « لِمَنِ المُلْكُ اليومَ للهِ الواحدِ القهّار »

ويذكرون من البديع من قول النبي ﷺ « خيرُ الناسِ رَجلٌ مُمْسِكٌ عِنانَ فَرَسِهِ في سبيل الله كلما سَمِع هَيْعةً طار اليها [1] » وقوله « ربَّنا تقبَّلْ تَوْبَتي واغسلْ حَوْبَتي [2] » وقوله « غَلَب عليكم داءُ الأُمم قبلكم الحسد

(١) الهيعة : صوت الصارخ الفزع

(٢) الحوبة : الخطيئة والذنب

والبغضاء وهي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر » وكقوله « الناسُ كإبل مائةٍ لا تجدُ فيها راحلةً » وكقوله « وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم [١] » وكقوله « انَّ مما يُنبتِ الربيع ما يقتل حَبَطًا أو يُلِمّ [٢] »

وكقول أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه في كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه [٣] وقوله لخالد بن الوليد « احرص على الموت توهبْ لك الحياة » وقوله « فِرَّ من الشَّرَف يتْبعك الشرف »

وكقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه في كتابه الى ابن عباس وهو عامله على البصرة « ارْغَبْ راغِبَهم واحلُلْ عقْدةَ الخوفِ عنهم » وقوله حين سئل عن قول النبي ﷺ « انما قال ذلك والدِّينُ في قُلٍّ ، فأما وقد اتَّسَعَ نِطاقُ الاسلام فكل امرىء وما اختار » وسأل عليٌّ رضي الله عنه بعض كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم فقال « لاردشير فضيلة السَّبْق غير

---

(١) قال ابن الاثير بعد ذكر الحديث « أي ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه واحدتها حصيدة تشبيها بما يحصد من الزرع وتشبيها للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذي يحصد به »

(٢) قال الازهري وابن الاثير ان هذا الخبر لا يكاد يفهم اذا فرق أو بتر فرأينا اثباته هنا . روى البخاري في صحيحه (المطبوعة اليونينية ج ٨ ص ٩١) عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض . قيل وما بركات الارض ؟ قال زهرة الدنيا . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظننا انه ينزل عليه . ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : أين السائل ؟ قال : أنا . قال أبو سعيد لقد حمدناه حين طلع ذلك . قال : لا يأتي الخير الا بالخير ان هذا المال خضرة حلوة وان كل ما أنبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم الا آكلة الخضرة أكلت حتى اذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت ، وان هذا المال حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع . اه من كتاب الرقاق من البخاري

(٣) انظر بعد « خطبة أبي بكر وعهده الى عمر رضي الله عنه »

ان أحمدَهم أنو شروان » قال « فأي أخلاقه كان أغلب عليه ؟ » قال « الحِلم والأناة » فقال علي رضي الله عنه « هما تَوْأمان يُنتِجهُما عُلو الهمة » وقال « قِيمةُ كل امرئٍ ما يُحْسِن » وقال « العلم قُفْل ومِفتاحه المسئلة »

وكتب خالد بن الوليد الى مرازبة فارس « أما بعد فالحمد لله الذي فَضَّ خَدَمتكم وفرَّق كلمتكم » والخَدَمة الحلقة المستديرة ولذلك قيل للخلاخيل خِدام

وقال الحجاج « دلُّوني على رجل سَمين الأمانة »

ولما عقدت الرئاسة لعبد الله بن وَهْبٍ الراسبي (١) على الخوارج أرادوه على الكلام فقال « لاخيرَ في الرأي الفَطِيرِ (٢) » وقال « دَعُوا الرأيَ يَغِبّ (٣) »

وقال اعرابي في شكر نعمة « ذاك عُنْوان نِعمة الله عز وجل » ووصف اعرابي قوماً فقال « إذا اصطَلَحوا سفَرَتْ بينهم السهام واذا تصافحوا بالسيوف قَعَد الحِمام (٤) » وسئل اعرابي عن رجل فقال « صَفِرت عِياب الوُدّ بيني وبينه بعد امتلائها ، واكفهرّت وجوهٌ كانتْ بمائها (٥) » وقال آخر « من ركب

---

(١) من بني راسب بن مالك له ادراك وشهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص زمن عمر وكان مع علي في حروبه حتى وقع التحكيم وأنكرته الخوارج وأمروا عليهم عبد الله بن وهب وكان عجبا في العبادة حتى لقب لكثرة عبادته وسجوده « ذا الثفنات » وقتل يوم النهروان . اه ، باختصار من الاصابة

(٢) الفطير ما أعجل عن ادراكه ونضجه

(٣) يغب بفتح الباء المشددة لا الغم والمعنى دعوا الرأي يمكث يوما أو يومين حتى ينضج

(٤) سفرت السهام صارت كالسفراء وهي الرسل بين القوم لصلح أو غيره ، أي انهم حين يبرزون للحرب فسفراؤهم السهام . وحين يرى الموت سيوفهم يقعد ليستريح ، فسيوفهم موت آخر

(٥) صفرت : خلت . والعياب جمع عيبة وهي ما تجعل فيه الثياب ، يريد بالعياب الصدور واكفهر وجهه انقبض وكلح حتى ما يرى به أثر بشر أو فرح ، وأراد بقوله « بمائها » أي ماء البشر

ظَهْرَ الباطل نَزَل دارَ النَدامة » وقيل لرؤبة : كيف خلّفت ما وراءك ؟ فقال « الترابُ يابِس ، والمالُ عابس (١) »

ومن البديع في الشعر طرق كثيرة قد نقلنا منها جملة لتستدل بها على ما بعدها ، فمن ذلك قول امرىء القيس:

وقد أغتدِي والطيرُ في وُكُناتِها بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابدِ هَيْكَلِ (٢)

قوله « قيد الاوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة ويرونه من الالفاظ الشريفة ، وعنى بذلك انه اذا أرسل هذا الفرسَ على الصيْد صار قيداً لها ، وكانت بحالة المقيّد من جهة سرعة إحضاره . واقتدى به الناس واتبعه الشعراء فقيل : « قيدُ النواظر » و « قيد الالحاظ » و « قيد الكلام » و « قيد الحديث » و « قيد الرهان » وقال الأَسود بن يعفر :

بمُقَلّصٍ عَتِدٍ جهيزٍ شده قيد الاوابد والرهان جواد (٣)

وقال أبو تمام :

لها مَنْظَرٌ قيدُ الاوابدِ لم يَزَل يروحُ ويغدو في خَفَارته الحُبُّ

وقال آخر :

أَلحاظه قيدُ عيونِ الوَرَى فليس طَرْف يتعدّاهُ

وقال آخر :

قَيّد الحُسْنُ عليه الحَدَقا

---

(١) الجملة الاولى أراد بها القحط ، وأراد بالثانية قلة المال وانه لا يؤاتى فهو عبوس الوجه قاطبه

(٢) وكناتها أوكارها . منجرد قصير الشعر وذلك فيه عتق . قيد الاوابد يقيد الاوابد وهي الحمر الوحشية والوحش بلحاقه اياها على سرعتها . الهيكل العظيم الخلق

(٣) في الاصل المخطوط والمطبوع « عتد جهير » بالراء نهاية في كليهما وهو خطأ . فرس مقلص طويل القوائم منضم البطن . عتد بفتح أوله وثانيه أو كسره شديد تام الخلق سريع الوثبة معد للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . قال أبو عبيدة جهيز شده سريع العدو

وذكر الأصمعي وأبو عبيدة وحماد وقبلهم أبو عمرو أنه [(١)] أحسن في هذه اللفظة وأنه اتُّبع فيها فلم يُلحق ، وذكروه في باب الاستعارة البليغة ، وسماها بعض أهل الصنعة باسم آخر ، وجعلوها من باب الارداف ، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ هو تابع له ورِدْف . قالوا ومثله قوله [(٢)] :

نَؤُوم الضُحَى لم تنتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

وانما أراد تَرفُّهَهَا بقوله « نؤُوم الضحى » ومن هذا الباب قول الشاعر :

بعيدة مَهوى القرط إما لنوفل ... أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وانما أراد أن يصف طول جيدها ، فأتى بردفه . ومن ذلك قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سُدُوله

وذلك من الاستعارة المليحة . ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن (١٩ : ٤) « واشتعل الرأسُ شيبا » (١٧ : ٢٤) « واخفضْ لهما جناحَ الذلّ من الرحمة » ؛ ومما يعدّونه من البديع التشبيه الحسن كقول امرىء القيس :

كأن عيونَ الوحش حولَ خِبائِنَا ... وأرحُلِنا الجزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ [(٣)]

وقوله :

كأن قلوبَ الطير رَطْبًا ويابسًا ... لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

واستبدعوا تشبيه شيئين بشيئين على حسن تقسيم ويزعمون ان أحسن ما وجد في هذا للمُحْدَثين قول بشار :

---

(١) يريد امرأ القيس

(٢) هو امرؤ القيس ايضا

(٣) الجزع الخرز اليماني وهو الذي فيه بياض وسواد

كأن مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ

وقد سبق امرؤ القيس الى صحة التقسيم في التشبيه ، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه احدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل . وكذلك عدّوا من البديع قول امريء القيس في أذني الفرس

وسامعتان يُعرَفُ العِتْقُ فيهما كسامعتَيْ مذعورةٍ وسطَ رَبْرَبِ

واتبعه طرفة فقال فيه :

وسامعتان يُعرَفُ العِتْقُ فيهما كسامعتَيْ شاةٍ بحوملَ مُفْرَدِ

ومثله قول امريء القيس في وصف الفرس :

وعينان كالماويتَيْن ومَحْجِرٍ الى سَنَدٍ مثلِ الصَّفيحِ المُنصَّبِ (١)

وقال طرفة في وصف عيني ناقته :

وعينان كالماويتَيْن استَكَنَّتا بكهفَيْ حِجاجَيْ صخرةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ (٢)

ومن البديع في التشبيه قول امريء القيس :

له أيطَلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاء سِرْحانٍ وتقريبُ تتْفُلِ

وذلك في تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء أحسن فيها (٣)

ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى (٥٥ : ٢٤) « وله الجوارِ المُنشآتُ في البحر كالأعلامِ » وقوله تعالى (٣٧ : ٤٩) وكأنهنّ بَيْضٌ مكنون » ومواضع نذكرها بعد هذا

ومن البديع في الاستعارة قول امريء القيس :

وليلٍ كموج البحر أرْخى سُدولَه عليّ بأنواع الهُموم ليبتَلي
فقلتُ له لما تمطّى بصُلبِه وأردَفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ

---

(١) الماوية المرآة . ويريد بالسند الخد

(٢) استكن اختبأ والحجاج منبت شعر الحاجب والقلت وقبة العين وأصله نقرة في الجبل تمسك الماء

(٣) هي تشبيه كشحيه بكشحي الظبي اشاره الى عبالتهما ، وساقيه بساقي النعامة ، وعدوه بعدو الذئب ، وانه يرفع يديه معا ويزلها معا كما يفعل ولد الثعلب ، يريد انه سريع الخطا صليب القوائم

وهذه كلها استعارات أتي بها في ذكر طول الليل . ومن ذلك قول النابغة :

وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همّه   تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبِ

فاستعاره من اراحة الراعي ابله الى مواضعها التي تأوي اليها بالليل . وأخذ منه ابن الدمينة فقال :

أقضّي نهاري بالحديث وبالمنى   ويجمعني والهمَّ والليلَ جامع(1)

ومن ذلك قول زهير :

صحا القلبُ عن ليلى وأقصرَ باطلهْ   وعُرّي أفراس الصبا ورَواحلُهْ

ومن ذلك قول امريء القيس :

سمَوْتُ اليها بعدَ ما نام أهلها   سمُوَّ حَباب الماءِ حالاً على حالِ

وأخذه أبو تمام فقال :

سمُوَّ عُباب الماء جاشت غواربُهْ

وانما أراد امرؤ القيس اخفاء شخصه . ومن ذلك قوله :

كأني وأصحابي على قَرْنِ أعْفَرا

يريد أنهم غير مطمئنين

ومن ذلك ما كتبَ اليَّ الحسنُ بن عبد الله بن سعيد قال: أخبرني أبي قال أخبرنا عَسَل بن ذَكوان ، أخبرنا أبو عثمان المازني قال : سمعت الأصمعيَّ يقول : أجمع أصحابُنا أنه لم يُقل أحسنُ ولا أجمعُ من قول النابغة :

فإنك كالليلِ الذي هو مُدْرِكي   وإن خلتُ أن المُنْتأى عنكَ واسعُ

قال الحسن بن عبد الله : وأخبرنا محمد بن يحيى ، أخبرنا عون بن محمد الكندي ، أخبرنا قَعْنَبُ بن مُحْرِز قال : سمعت الأصمعي يقول : سمعت

---

(1) كذا في الاصلين والذي يرويه القالي في اماليه :

اقضي نهاري بالحديث وبالمنى   ويجمعني بالليل والهم جامع

من قصيدة لقيس بن ذريح . وقبله :

نهاري نهار الناس حتى اذا دجا   لي الليل هزتني اليك المضاجع

أبا عمرو يقول : كان زهير يمدح السُّوَقَ ، ولو ضرب على أسفل قدميه مِئتا دَقَل (١) على أن يقول كقول النابغة :

فانك كالليل الذي هو مُدركي وان خلت أن المنتأى عنك واسع

لما قدر ، يريد أن سلطانه كالليل يصل الى كل مكان . واتبعه الفرزدق فقال :

ولو حملتنى الريح ثم طلبتَني لكنتُ كشيءٍ أدركتْني مقادرُهْ

فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ما سبق اليه النابغة ثم أخذه الأخطل فقال :

وان أميرَ المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد روي نحو هذا عن النبي ﷺ « نصرت بالرعب وجعل رزقي تحت ظل رمحي وليدخلن هذا الدين على مادخل عليه الليل » وأخذه عليّ بن [جبلة (٢)] فقال :

وما لامرىءٍ حاولتَه عنك مهرَبٌ ولو كان في جوف السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح طالع

ومثله قول سَلْم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهر لا ملجأٌ منه ولا هرب

ولو ملكتُ عِنان الريح أصرفه في كل ناحية ما فاتك الطلب

فأخذه البحتري فقال :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم عن خوف بأسك مهرب

ومن بديع الاستعارة قول زهير :

فلما وردن الماء زُرْقاً جمامه وضعن عصيّ الحاضر المتخيم

وقول الأعشى :

---

(١) هنا بالاصل الخطي زيادة كلمة [صى] هكذا بلا اعجام ولعلها صئي . والصئي : الصياح ، اي يسمع لهذا الضرب صوت الصياح .

(٢) بالاصل بياض يتسع لكلمة واحدة ، وقد اكملناه من معاهد التنصيص ، وروايه المعاهد :

و ما لامرىء حاولته منك مهرب ولو رفعته في السماء المطالع

وبعده البيت الثانى كرواية المؤلف ثم قال : « واكثر الادباء يرجحه على بيت النابغة » .

وان عتاق العيس سوف يزوركم ثناء على أعجازهن معلق

ومنه أخذ نُصَيْب فقال :

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

ومن ذلك قول تأبط شرا :

فخالَطَ سهلَ الأرض لم يكدح الصفا به كدْحةً والموت خزيانُ ينظر

ومن الاستعارة في القرآن كثير كقوله (٤٣ : ٤٤) « وانه لذكر لك ولقومك » يريد ما يكون الذكر عنه شرفا . وقوله (١ : ١٣٨) : « صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغة » قيل دين الله أراد وقوله (١ : ١٦) : « اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم »

ومن البديع عندهم الغلو [1] : كقول النمر بن تولب

أبقى الحوادث والأيام من نمر اسناد سيف قديم أثره بادي

تظل تحفر عنه ان ضربت به بعد الذراعين والقيدين والهادي [2]

وكقول النابغة :

تقدُّ السلوقيَّ المضاعف نسجه ويوقدن بالصفّاح نار الحُباحب

وكقول عنترة :

فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا اليَّ بعبرة وتحمحم

وكقول أبي تمام :

لو يعلم الركن من قد جاء يلثمه لخرَّ يلثم منه موطىء القدم

وكقول البحتري :

---

(١) الغلو : ادعاء بلوغ وصف في الشدة او الضعف حدا يستحيل ان يصدقه العقل او يذعن له العرف . ولا يقبل منه عند الادباء الا ما اقترن به شيء يقربه من الصحة او تضمن حسن تخييل او ما خرج مخرج الخلاعة . وتفصيل هذه الاشياء في مظانها من كتب البلاغة

(٢) الرواية في غير هذا الكتاب :

ابقى الحوادث والايام من نمر أسباد سيف كريم اثره بادي

تظل تحفر عنه الارض مندفعا بعد الذراعين والقيدين والهادي

ولو ان مشتاقا تـكلف فوق ما في وسعه ، لمشي اليـك المنبر

ومن هذا الجنس في القرآن (٥٠: ٣٠) : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » وقوله (٢٥:١٢) : « اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » وقوله (٦٧ : ١) : « تكاد تميز من الغيظ »

ومما يعدّونه من البديع المماثلة وهو ضرب من الاستعارة وذلك أن يقصد الاشارة الى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذي قصد الاشارة اليه (١) نظيره من المنثور انّ يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته فكتب اليه « أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيتهما شئت » وكنحو ما كتب به الحجاج الى المهلب « فان أنت فعلت ذاك والا أشرعت اليـك الرمح » فأجابه المهلب « فان أشرع الامير الرمح قلبت اليه ظهر المجن » وكقول زهير :

ومن يعص أطراف الزِجاج فانه يطيـع العوالى ركبت كل لهذم

وكقول امرىء القيس :

وما ذَرَفت عيناكِ الا لتضربى بسهميك في أعشار قلب مُقتَّل

وكقول عمرو بن معدى كرب :

فلو أنّ قومي أنطقتني رماحهم نطقتُ ، ولكنّ الرماح أجرّتِ

وكقول القائل :

بنى عمنا لاتذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

وكقول الآخر :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تَيْم أطلقوا عن لسانيا

---

(١) كذلك فسرها ابو هلال العسكري وهو غير المعنى الذي اصطلح عليه المتاخرون حيث فسروها بان تماثل الفاظ الكلام او بعضها في الوزن دون التقفية ، كقول امرىء القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

وكقول ابن حمديس :

على قرب عذالى وفقد احبتى وامواه اجفاني ونيران اضلعي

ومن هذا الباب في القرآن كقوله (١ : ١٧٥) : « فما أصبرهم على النار » وكقوله (٧٤ : ٤) : « وثيابك فطهر » قال الاصمعى : أراد البدن قال : وتقول العرب « فدي لك ثوباي » يريد نفسه ، وأنشد :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا   فدى لك من أخى ثقة ازارى

ويرون من البديع أيضا مايسمونه المطابقة ، وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء وضده كالليل والنهار ، والسواد والبياض ، واليه ذهب الخليل بن أحمد والاصمعى ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ماقاله بعضهم : « أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان » ونظيره من القرآن (١ : ١٧٩) : « ولكم في القصاص حياة » وقوله (٣٠ : ١٩) : « يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » وقوله (٢٢ : ٦١) : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » [1] ومثله كثير جدا ، وكقول النبي ﷺ للانصار « انكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » وقال آخرون : بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة ، واليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب ، فمن ذلك قول الافوه الاودى :

وأقطعُ الهَوْجل مستأنسا   بهوجل مستأنس عنتريس

عنى بالهوجل الاول الارض وبالثانى الناقة . ومثله قول زياد الاعجم :

ونُبِّئتهم يستنظرون بكاهل   وللوم فيهم كاهل وسنام

ومثله قول أبي دواد :

عهدت لها منزلا دائرا   وآلاً على الماء يحملن آلا

فالآل الاول أعمدة الخيام تنصب على البئر للسقى ، والآل الثاني السراب ، وليس عنده قول من قال : المطابقة انما تكون بأجماع الشيء وضده بشيء ، ومن المعنى الاول قول الشاعر :

(1) وفي (٣٥ : ١٣) و (٥٧ : ٦) و (٣١ : ٢٩)

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم   وأن تُكرم النفس التي لا تُهينها

ومثله قول امرىء القيس :

وتَرْدي على صُم صِلاب مَلاطِسٍ   شديدات عَقد ليّنات ٍ مِتان

وكقول النابغة :

ولا يحسبون الخير لاشر بعده   ولا يحسبون الشر ضربة لازب

وكقول زهير وقد جمع فيه طباقين :

بعزمة مأمور مُطيعٍ وآمرٍ   مطاع ، فلا يُلقى لحزمهمُ مثل

وكقول الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنه   ليل يصيح بجانبيه نهار

ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير :

وباسطِ خير فيكمُ بيمينه   وقابض شر عنكمُ بشماليا

وكقول رجل من بلعنبر :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة   ومن اساءة أهل السوء احسانا

وروى عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما أنه تمثل بقول القائل :

فلا الجود يُفني المال والجَدُّ مقبل   ولا البخل يُبقي المال والجدُّ مدبر

وكقول الآخر :

فسرّى كاعلاني وتلك سجيتي   وظُلمة ليلي مثلُ ضوء نهاريا

وكقول قيس بن الخطيم :

اذا أنت لم تنفع فضر فانما   يُرَجَّى الفتى كيما يضر وينفعا

وكقول السموأل :

وما ضرنا انا قليل وجارنا   عزيز وجار الاكثرين ذليل

فهذا باب يرونه من البديع

وباب آخر وهو التجنيس ومعنى ذلك أن تأتي بكلمتين متجانستين : فمنه ماتكون الكلمة تجانس الاخرى في تأليف حروفها واليه ذهب الخليل ، ومنهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق ، كقوله عز وجل (٣٠ : ٤٢) «فأقم وجهك للدين القيم » وكقوله (٢٧ : ٤٤) « وأسلمتُ مع سليمان » وكقوله (١٢ : ٨٤) « ياأسفا على يوسف » وكقوله (٦ : ٨٢) : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن » وكقوله (٦ : ٢٦) « وهم ينهون عنه وينأون عنه » وكقول النبي ﷺ « أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله » وكقوله « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله « لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله » وكتب بعض الكتاب « العذر مع التعذر واجب فرأيك فيه » وقال معاوية لابن عباس : مالكم يابني هاشم تصابون في أبصاركم ؟ فقال : كما تصابون في بصائرهم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « هاجروا ولاتهجروا » ومن ذلك قول قيس بن عاصم :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة كسته نجيعا من دم الجوف أشكلا

وقال آخر : أملّ عليها بالبلى الملوان

وقال الآخر :

وذاكمُ أن ذل الجارِ حالفكم وأن أنفكمُ لاتعرف الأنَفا

وكتب اليّ بعض مشايخنا قال : أنشدنا الاخفش عن المبرد عن التوّزى:

وقالوا حمامات فحُمّ لقاؤها وَطَلْحٌ فزيرت والمطى طُلوح

عُقاب بأعقاب من النأى بعدما جرت نيةٌ تنسى المحبَّ طَروح

وقال صحابي هدهد فوق بانة هدى وبيان بالنجاح يلوح

وقالوا دم دامت مواثيق عهده ودام لنا حسن الصفاء صريح

وقال آخر :

أقبلن من مصر يبار بن البرى

وقال القطامى :

ولما ردها في الشول شالت بذيال يكون لها لفاعا

وقد يكون التجنيس بزيادة حرف أو ما يقارب ذلك[1] ، كقول البحترى

هل لما فات من تلاف تلاف أم لشاك من الصبابة شاف [2]

وقال ابن مقبل :

يمشين هيل النقا مالت جوانبه ينهال حينا وينهاه الثرى حينا

وقال زهير :

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا لا ينكلون اذا ماالستلحموا وحموا

ومن ذلك قول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

وأبو نواس يقصد في مصراعى مقدمات شعره هذا الباب كقوله :

ألا دارها بالماء حتى تلينها فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

وكذلك قوله :

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجواً هن منه عوار

وكقول ابن المعتز :

سأثنى على عهد المطيرة والقصر وأدعو لها بالساكنين وبالقطر

وكقوله :

هى الدار الا أنها منهم قفر وأني بها ثاو وأنهم سفر

وكقوله :

الاماني حديث يقسر ويسوء الدهر من قد يسر

---

(١) يريد بما يقاربه ان يكون حرف مكان حرف كما سيذكر من الامثلة

(٢) محل الاستشهاد في بيت البحترى الشطر الثاني ، فاما الاول فداخل في معنى التجنيس الاول

وكقول المتنبي :

وقد أراني الشباب الروح في بدني ... وقد أراني المشيب الروح في بدلي

وقد قيل ان من هذا القبيل قوله عز وجل (٢١ : ٣٧) « خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون » وقوله (٣٩ : ١٤ ـ ١٥) (قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ماشئتم من دونه »

ويعدون من البديع المقابلة وهي أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده وذلك مثل قول النابغة الجعدي :

فتى تم فيه مايسر صديقه ... على ان فيه ما يسوء الأعاديا

وقال تأبط شرا :

أهز به في ندوة الحي عطفه ... كما هز عطفي بالهجان الاوارك

وكقول الآخر :

واذا حديث ساءني لم أكتئب ... واذا حديث سرني لم أسرر

وكقول الآخر :

وذي اخوة قطعت أقران بينهم ... كما تركوني واحدا لا أخا ليا

ونظيره من القرآن (١٦ : ٥٣ ـ ٥٤) . « ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون »

ويعدون من البديع الموازنة (١) وذلك كقول بعضهم : اصبر على حر اللقا ومضض النزال وشدة المصارع (٢) وكقول امرئ القيس :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا

---

(١) الموازنة : تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية نحو : (ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة) وكقول امرئ القيس :

افاد فساد ، وقاد فزاد ... وساد فجاد ، وعاد فافضل

وهي تشتبه بالمماثلة التي سلف ذكرها ، والفرق بينهما دقيق

(٢) في النسخة الخطية « المصاع »

ونظيره من القرآن (٨٥ : ١ ـ ٣) «والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود »

ويعدون من البديع المساواة وهى أن يكون اللفظ مساويا للمعنى لايزيد عليه ولا ينقص عنه وذلك يعد من البلاغة وذلك كقول زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وكقول جرير :

فلو شاء قومي كان حلميَ فيهمُ وكان على جهال أعدائهم جهلى (١)

وكقول الآخر :

اذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا أصبت حليما أو أصابك جاهل

وكقول الهذلى :

فلا تجزعن من سُنَّة أنت سرتها وأول راض سيرة من يسيرها

وكقول الآخر :

فان هم طاوعوك فطاوعيهم وان عاصوك فاعصى من عصاك

ونظير ذلك في القرآن كثير

ومما يعدونه من البديع الاشارة وهو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة . وقال بعضهم في وصف البلاغة لمحة دالة (٢) . ومن ذلك قول طرفة :

فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقيلٍ نحسُه متغيّب

وكقول زيد الخيل :

فخيبة من يخيب على غنىّ وباهلةَ بن أعصُرَ والرّباب

ونظيره من القرآن (١٣ : ٣١) « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى » ومواضع كثيرة

ويعدون من البديع المبالغة والغلو (٣) والمبالغة تأكيد معانى القول وذلك

---

(١) فى النسخة الخطية ، وكان على اعداء جهالهم جهلي ، ولعله سهو من الناسخ

(٢) نسبه ابن رشيق لخلف الاحمر

(٣) قد تقدم له ذكر الغلو ، وشرحنا معناه عندئذ

كقول الشاعر :

ونكرم جارنا ما كان فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

ومن ذلك قول الآخر :

وهم تركوك أسلحَ من حبارى رأت صقراً وأشْرَدَ من نعام

فقوله رأت صقراً مبالغة . ومن الغلو قول أبي نواس :

توهمتها في كأسها فكأنما توهمت شيئاً ليس يدركه العقل

فما يرتقي التكييف فيها الى مدى يحد به الا ومن قبله قبل

وقول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

وكقول النابغة :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وكقول الخنساء :

وما بلغت كف امرىء متناول بها المجد إلا حينما نلت أطول

وما بلغ المهدون في القول مدحة وان أطنبوا إلا الذي فيك أفضل

وقول الآخر :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البر أندى من البحر

ويرون من البديع الايغال [1] في الشعر خاصة فلا يطلب مثله في القرآن إلا في الفواصل كقول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

وقد أوغل بالقافية في الوصف وأكد التشبيه لها والمعنى قد يستقل دونها

---

(١) الايغال : ان يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ الى مقطعه ثم ياتى بالمقطع فيزيد معنى اخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا

ومن البديع عندهم التوشيح وهو أن يشيد أوّل البيت بقافيته وأوّل الـكلام بآخره كقول البحتري :

فليس الذى حللته بمحلل وليس الذي حرمته بحرام

ومثله في القرآن (٥ : ٣٩) « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ».

ومن ذلك رد عجز الـكلام على صدره كقول الله عز وجل (١٧ : ٢١) « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » وكقوله (٢٠ : ٦١) : « لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » . ومن هذا الباب قول القائل :

وان لم يكن إلا تعلّل ساعة قليلا فانى نافع لى قليلها

وكقول جرير :

سقى الرمل جون مستهل غمامه وما ذاك إلا حب من حل بالرمل

وكقول الآخر :

يودّ الفتى طول السلامة والغنى فكيف يرى طول السلامة يفعل

وكقول أبي صخر الهذلى :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وكقول الآخر :

أصدّ بأيدي العيس عن قصد أرضها وقلبي اليها بالمودّة قاصد

وكقول عمرو بن معدي كرب :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ومن البديع صحة التقسيم (١) ومن ذاك قول نصيب :

(١) التقسيم الصحيح ان تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع انواعه ولا يخرج منها جنس من اجناسه . فمن ذلك قول الله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) وهذا احسن تقسيم لان الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع

فقال فريق القوم لا وفريقهم نعم وفريق قال ويحك ما يدري

وليس في أقسام الجواب أكثر من هذا . وكقول الآخر :

فكأنما فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

وقول المقنع الكندي :

وان يأكلوا لحمي وفرت لحومهم[1] وان يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان هم هووا غيي هويت لهم رشدا

وان زجروا طيراً بنحس تمر بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا

وكقول عروة بن حزام :

بمن لو أراه غائباً لفديته ومن لو رآني غائباً لفداني

ونحوه قول الله عز وجل (١ : ٢٥٧) « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات »

ونحوه صحة التفسير ، كقول القائل :

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

ومن البديع التكميل والتتميم[2] كقول نافع بن خليفة :

رجال اذا لم يقبلوا الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع

وانما تم جودة المعنى بقوله ويعطوه وذلك كقول الله عز وجل (٣١ : ٣٤) « ان الله عنده علم الساعة » الى آخر الآية . ثم قال : « ان الله عليم خبير »

ومن البديع الترصيع[3] وذلك من ألوان منها قول امرىء القيس :

---

(١) الرواية : فان ياكلوا لحمي وفرت لحومهم

(٢) هو ان توفي المعنى حظه من الجودة وتعطيه نصيبه من الصحة ، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه الا توردُه او لفظا يكون فيه توكيده الا تذكره

(٣) الترصيع : ان يكون حشو البيت مسجوعا ، وهو انواع وضروب

محش مخش مقبل مدبر معا كتيس ظباء الحلب في العدوان[1]

ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس

يامنة امتنها السكر ما ينقضي مني لها الشكر

و كقوله وقد ذكرناه قبل هذا :

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجوا هن منه عوار

ومن ذلك الترصيع مع التجنيس كقول ابن المعتز :

ألم تجزع على الربع المحيل وأطلال وآثار محول

ونظيره من القرآن كقوله : (٧ : ٢٠١ ـ ٢٠٢) « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » وقوله (٦٨ : ٢ ـ ٣) : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجراً غير ممنون » و كقوله (١٠٠ : ٧ ـ ٨) « وانه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير لشديد » و كقوله (٥٢ : ١ ـ ٢) : « والطور . وكتاب مسطور » وقوله (٧٩ : ٣ ـ ٤) : « والسابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً » وقد أولع الشعراء بنحو هذا فأكثروا فيه ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف الكلام ومنهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومي :

أبدانهن وما لبسـ ن من الحرير معاً حرير

أردانهن وما مسسـ ن من العبير معاً عبير

و كقوله :

فلراهب أن لا يريب أمانه ولراغب أن لا يريث نجاحه

ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى المضارعة وذلك كقول الخنساء :

حامي الحقيقة محمود الخليقة مهـ ـدي الطريقة نفاع وضرار

---

(١) هذه رواية البيت في اصول الكتاب ، وفي شعر امرىء القيس مكر مفر الخ ، والحلب : بقلة تأكلها الوحش فتضمر عليها بطونها وقال القتبي هو نبات تعتاده الظباء يخرج منه مايشبه اللبن اذا قطع وانما سمي الحلب لتحلبه ، والعدوان : المسرع

جوّاب قاصية جزّاز ناصية   عقاد ألوية للخيل جرار

ومن البديع باب التكافؤ ، وذلك قريب من المطابقة ، كقول المنصور : « لا تخرجوا من عز الطاعة الى ذل المعصية » وقول عمر بن ذر : « انا لم نجد لك اذ عصيت الله فينا خيراً من أن نطيع الله فيك » ومنه قول بشار :

اذا أيقظتك حروب العدا   فنبه لها عُمراً ثم نم

ومن البديع باب التعطف ، كقول امرىء القيس :

عود على عود على عود خلق

وقد تقدم مثاله

ومن البديع السلب والايجاب ، كقول القائل :

وننكر ان شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

ومن البديع الكناية والتعريض ، كقول القائل :

وأحمر كالديباج أما سماؤه   فريّا وأما أرضه فمحول

ومن هذا الباب لحن القول

ومن ذلك العكس والتبديل ، كقول الحسن : « ان من خوّفك لتأمن خير ممن أمّنك لتخاف » و كقوله : « اللهم أغنني بالفقر اليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك » و كقوله : « بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً » و كقول القائل :

واذا الدر زان حسن وجوه   كان للدرّ حسنُ وجهك زينا

وقد يدخل في هذا الباب قوله تعالى (٢٢ : ٦١) : « يولج الليلَ في النهار و يولج النهارَ في الليل » . ومن البديع الالتفات ، فن ذلك ما كتب اليّ الحسن بن عبد الله العسكري ، أخبرنا محمد بن عبد الله الصولي ، حدثني يحيى ابن علي المنجم عن أبيه عن اسحاق بن ابراهيم قال : قال لي الأصمعي : أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ، فما هي ؟ قال :

أتنسى اذ تودّعنا سليمى بفرع بشامة ؟ سُقي البشام

ومثل ذلك لجرير :

متى كان الخيام بذي طلوح سقيتِ الغيث أيتها الخيام

ومعنى الالتفاتات أنه اعترض في الكلام قوله « سقيت الغيث » ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً وكان الكلام منتظما وكان يقول « متى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام » فمتى خرج عن الكلام الاول ثم رجع اليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتاً . ومثله قول النابغة الجعدي :

ألا زعمت بنو سعد بأني ـ ألا كذبوا ـ كبير السن فاني

ومثله قول كثيّر :

لو أن الباذلين ، وأنت منهم ، رأوك تعلموا منك المطالا

ومثله قول أبي تمام :

وأنجدتمُ من بعد اتهام داركم فيادمع أنجدني على ساكني نجد

وكقول جرير :

طرب الحمام بذي الأراك فشاقني لا زلت في غلل وأيكٍ ناضرِ

التفت الى الحمام فدعا لها ، ومثله قول حسان :

ان التي ناولتَني فرددتُها قُتلتْ قتلتَ فهاتِها لم تقتل

ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

وأُجمِلْ اذا ما كنت لا بد مانعا وقد يَمنع الشيءَ الفتى وهو مُجمل

وكقول ابن ميّادة :

فلا صرمه يبدو وفي اليأس راحة ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

ونظير ذلك من القرآن ما حكى الله تعالى عن ابراهيم الخليل من قوله (٢٩ : ١٦ ـ ٢٤) : « اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون أفكا ـ الى قوله ـ فما كان جواب قومه »

وقوله عز وجل (١٤ : ٢٠ـ٢١) : « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز. وبرزوا لله جميعا » ومثله قوله (١٠ : ٢٢) : « حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » الى آخر الآية . ومثله قوله (٧ : ١٧٥ ـ ١٧٦) : «واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ـ الى قوله ـ فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ومثله قوله (٥ : ٣٨ ـ ٣٩) : « والسارقُ والسارقة فاقطعوا أيديَهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم. فمن تاب من بعد ظلمه »

ومنهم من لا يعد الاعتراض والرجوع من هذا الباب ، ومنهم من يفرده عنه كقول زهير :

قف بالديار التي لم يعفُها القدم   نعم وغيرها الأرواح والديم[1]

وكقول الاعرابي :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها   اليكِ ، وكلا ليس منك قليل

وكقول ابن هرْمة :

ليت حظي كلحظة العين منها   وكثير منها القليل المهنا

ومن الرجوع قول القائل :

بكلٍّ تداوينا فلم يُشفَ ما بنا   على ان قرب الدار خير من البعد[2]

وقال الاعشى :

صرمت ولم أصرمكم وكصارم   أخ قد طوى كشحا وآب ليذهبا

وكقول بشار :

لي حيلة فيمن ينمُّ   وليس في الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو   ل فحيلتي فيه قليله

---

(١) كذا في النسختين : « نعم ، وغيرها الخ » وهو اجود وعليه يتم الاستشهاد ويكمل

(٢) في الخطية : « فلم نشف » بالنون الموحدة ، والذي في ديوان ابن الدمينة يطابق ما اثبتناه بالياء المثناة والفعل مبني للمجهول

وقال آخر :

وما بي انتصار ان غدا الدهر ظالمي علىّ بلى ان كان من عندك النصر

وباب آخر من البديع يسمى التذييل ، وهو ضرب من التأكيد وهو ضد ماقدمنا ذكره من الاشارة ، كقول أبي دواد :

اذا ما عقدنا له ذمة شددنا العناج وعقد الكرب

وأخذه الحطيئة فقال :

فدعوا نزالِ فكنت أول نازل وعلام أركبه اذا لم أنزل

وكقول جرير :

لقد كنت فيها يا فرزدق تابعاً وريش الذنابى تابع للقوادم

ومثله قوله عز وجل (٢٨ : ٤ ـ ٨) : « ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا » . الى قوله : « انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ الى قوله ـ كانوا خاطئين »

وباب من البديع يسمى الاستطراد فمن ذلك ما كتب الىّ الحسن بن عبد الله قال أنشدني أبو بكر بن دريد قال أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة لحسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه :

ان كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ونجا برأس طمرّة ولجام (١)

وكقول السموأل :

وانا لقوم لانرى القتل سبّة اذا ما رأته عامر وسلول

وكقول الآخر :

خليليّ من كعب أعينا أخاكما على دهره ان الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة انه مخافة أن يرجى نداه حزين

(١) كذا بالاصلين : « لم يقاتل » الخ . والذي في ديوان حسان : « ترك الاحبة أن يقاتل دونهم »

وكقول الآخر :

فما ذرّ قرن الشمس حتى كأننا ... من العي نحكى أحمد بن هشام

وكقول زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان وا ... كنّ الجوادَ على علاته هرم

وفيما كتب الىّ الحسن بن عبد الله قال : أخبرني محمد بن يحيى ، حدثنى محمد بن عليّ الأنباري ، قال : سمعت البحتري يقول : أنشدنى أبو تمام لنفسه :

وسابح هطل التعداء هتان ... على الجراء أمين غير خوّان

أظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه ... فخل عينك في ريان ظمآن

ولو تراه مشيحا والحصى فلق ... بين السنابك من مثنى ووحدان

أيقنت ان لم تثبّت أنّ حافره ... من صخر تدمر أو من وجه عثمان

وقال لى : ماهذا من الشعر ؟ قلت : لاأدري . قال : هذا المستطرد ، أو قال : الاستطراد ، قلت : وما معنى ذلك؟قال : يرى أنه يصف الفرس ويريد هجاء عثمان ، فقال : وقال البحترى :

ما ان يعاف قذى ولو أوردته ... يوما خلائق حمدويه الاحول

قال : فقيل للبحترى : انك أخذت هذا من أبي تمام ، فقال ما يعاب علي ان آخذ منه وأتبعه فيما يقول . ومن هذا الباب قول أبي تمام :

صب الفراق علينا صب من كثبا ... عليه اسحق يوم الروع منتقما

ومنه قول السري الرفاء :

نزع الوشاة لنا بسهم قطيعة ... يرمى بسهم الحين من يرمى به

ليت الزمان أصاب حب قلوبهم ... بقنا ابن عبد الله أو بحرابه

ونظيره من القرآن (١٦ : ٤٨ ـ ٤٩) : « أولم يروا الى ماخلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » كأنه كان

المراد أن يجري بالقول الاول الى الاخبار عن ان كل شيء يسجد لله عز وجل وان كان ابتداء الكلام في أمر خاص

ومن البديع عندهم التكرار كقول الشاعر:

هلا سألت جموع كنـ ـدة يوم ولوا أين أين

وكقول الآخر:

وكانت فزارة تصلي بنا فأولى فزارة أولى لها

ونظيره من القرآن (٩٤ : ٥ ـ ٦) « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » وكالتكرار في قوله (١٠٩ : ١) « قل يا أيها الكافرون » وهذا فيه معنى زائد على التكرار لانه يفيد الاخبار عن الغيب. ومن البديع عندهم ضرب من الاستثناء[1] كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وكقول النابغة الجعدى:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فلا يبقي من المال باقيا
فتى تم فيه مايسر صديقه على ان فيه ما يسوء الاعاديا

وكقول الآخر:

حليم اذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

وكقول أبي تمام:

تنصل ربها من غير جرم اليك سوى النصيحة والوداد

ووجوه البديع كثيرة جدا فاقتصرنا على ذكر بعضها ونبهنا بذلك على مالم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع

وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة اعجاز القرآن من هذه الابواب التى نقلناها وان ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأن

---

(١) يسمونه تأكيد المدح بما يشبه الذم

هذه الوجوه اذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل اليها بالتدرب والتعوّد والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذي اذا عرف الانسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه ، والوجوه التي نقول ان اعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل اليه بحال ، ويبين ماقلنا ان كثيرا من المحدَثين قد تصنع لابواب الصنعة حتى حشى جميع شعره منها واجتهد ان لايفوته بيت الا وهو يملؤه من الصنعة ، كما صنع أبو تمام في لاميته :

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل وصدرك منها مدة الدهر آهل
تطل طاول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار الموائل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها ولا مرّ في اغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحاب ذيولها وقد أخملت بالنّور تلك الخمائل
تعفين من زاد العفاة اذا انتحى على الحي صرف الازمة المتماحل
لهم سلف سمر العوالي وسامر وفيهم جمال لا يغيض وجامل
ليالي أضللت العزاء وخذلت بعقلك آرام الخدور العقائل
من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت لها وُشحا جالت عليها الخلاخل
مها الوحش الا ان هاتا أوانس قنا الخط الا ان تلك ذوابل
هوى كان خلسا ان من أطيب الهوى (١) هوى جلت في أفيائه وهو خامل

ومن الادباء من عاب عليه هذه الابيات ونحوها على ما قد تكلف فيها من البديع ، وتعمل من الصنعة ، فقال قد أذهب ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ماجمع فيه ، وقد تعصب عليه أحمد بن عبيد الله ابن عمار وأسرف حتى تجاوز الى الغض من محاسنه ، ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطى على بصره حتى يبدع في القبيح وهو يريد أن يبدع في الحسن كقوله في قصيدة أولها :

(١) ان هنا هي التي بمعنى « نعم »

سرتْ تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد

فقال فيها :

لعمرى لقد حررت يوم لقيته لو آن القضاء وحده لم يبرد

وكقوله

لو لم تدارك مُسنّ المجد مذ زمن بالجود والباس كان المجد قد خرفا

فهذا من الاستعارات القبيحة والبديع المقيت كقوله :

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب

وكقوله :

لو لم يمت بين أطراف الرماح اذاً لمات ، اذ لم يمت ، من شدة الحزن

وكقوله :

خشنتِ عليه أختَ بني خشين

وكقوله :

ألا لا يمدّ الدهر كفاً بسيء الى مجتدى نصر فتقطعْ من الزند

وقال في وصف المطايا :

لو كان كلفها عبيد حاجة يوماً لزَنّي شدقماً وجديلا

وكقوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عوداً ركوبا

فهذا وما أشبهه انما يحدث من غلوه في محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب ، وربما أسرف في المطابَق والمجانَس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصعه وكان التكليف بارداً والتصرّف جامداً ، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح ، كما يتفق البارد القبيح

فأما البحتري فانه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام ويقل التصنع له فاذا وقع في كلامه كان في الاكثر حسناً رشيقا وظريفاً جميلا وتصنعه للمطابق كثير حسن وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة

فلذلك يخرج سليما من العيب في الاكثر وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى وقعود العبارات عن الغاية القصوى فشيء لا بد منه وأمر لا محيص عنه كيف وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدراً في هذه الصنعة وأكبر في الطبقة كامرىء القيس وزهير والنابغة والى يومه ونحن نبين تميز كلامهم(١) وانحطاط درجة قولهم ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن في باب مفرد يتصور به ذو الصنعة ما يجب تصوره ويتحقق وجه الاعجاز فيه بمشيئة الله وعونه

ثم رجع الكلام بنا الى ما قدمناه من أنه لا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك ان هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له ، كقول الشعر ، ورصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والحذق في في البلاغة . وله طريق يسلك ، ووجه يقصد ، وسُلَّم يرتقى فيه اليه ، ومثال قد يقع طالبه عليه . فرب انسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعراً ، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعا أو صنعة متصلة ، لا يسقط من كلامه حرف ، وقد يباده به ما قد تعوّده ، وأنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن في جزء وكذلك يؤلفون أنواع البارع ثم ينظرون فيه اذا أرادوا انشاء قصيدة أو رسالة أو خطبة فيحشون به كلامهم ، ومن كان قد تدرّب وتقدّم في حفظ ذلك اشتغل عن هذا التصنيف ولم يحتج الى تكلف هذا التأليف ، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطا من باع كلامه وموشحا بأنواع البديع ما يحاوله من قوله . وهذا طريق لا يتعذر وباب لا يمتنع وكل يأخذ فيه مأخذاً ويقف فيه موقفاً على قدر ما معه من المعرفة وبحسب ما يمدّه من الطبع

فأما شأوُ نظم القرآن فليس له مثال يحتذى اليه ، ولا امام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا ، كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشاردة ،

---

(١) كذا في النسخة الخطية ، وفي المطبوعة : « كلامه » وهو خطأ

والمعنى الفذ الغريب ، والشيء القليل العجيب ، وكما يلحق بكلامه بالوحشيات(١) ويضاف من قوله الى الأوابد ، لان ماجرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع فانما يتفق للشاعر في لمع من شعره ، وللكاتب في قليل من رسائله ، وللخطيب في يسير من خطبه ، ولو كان كل شعره نادراً ، ومثلا سائراً ، ومعنى بديعا ، ولفظا رشيقا وكل كلامه مملوأ من رونقه ومائه ، ومملأ (٢) ببهجته وحسن رُوائه ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامين ، والمتردّد بين الطرفين ، ولا البارد المستثقل ، والغث المستنكر : لم يبن الاعجاز في الكلام ، ولم يبن التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

وهذه جملة تحتاج الى تفصيل ، ومبهم قد يحتاج في بعضه الى تفسير ، وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه . ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذى حكيناه وأضفناه اليهم ، ان ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة وانه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم ، واذا أورد هذا المورد ، ووضع هذا الموضع كان جديرا . وانما لم نطلق القول اطلاقا لانا لا نجعل الاعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ووقفاً عليها ومضافا اليها ، وان صح ان تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة آخذة بحظها من الحسن والبهجة متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع

﴿ فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن ﴾

قد بينا انه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم ان يعرفوا اعجاز القرآن الا أن يعلموا ان العرب قد عجزوا عن ذلك فاذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تُحدّوا على أن يأتوا بمثله وقُرّعوا على ترك الاتيان بمثله ولم يأتوا به تبينوا أنهم عاجزون عنه ، واذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز .

(١) انظر ففي هذه الجملة قلق واضطراب

(٢) في الخطية مملا بضم الميم الاولى وفتح الثانية

وكذلك نقول : ان من كان من أهل اللسان العربي الا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحا بليغا بارعا من غيره فهو كالاعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف اعجاز القرآن إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء

وأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي و وقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذي ينتهي اليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف مايخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر وكما يميز بين الشعر الجيد والرديء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب ، وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم فيعرف الصيرفي من النقد مايخفى على غيره ، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته مايخفى على غيره ، وان كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر وربما اختلفوا فيه ، لان من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين ، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه وتروع بهجته ورواؤه ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ ولا غامض المعنى ، كما يختار قوم ما يغمض معناه ويغرب لفظه ويختار ما سهل على اللسان وسبق الى البيان ، وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زهيرا فقال كان لايمدح الرجل الا بما فيه ، وقال لعبد بني الحسحاس حين أنشده :

كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا :

أما انه لو قلت مثل هذا لاجزتك عليه ، وروي ان جريرا سئل عن أحسن الشعر فقال : قوله :

ان الشقيّ الذي في النار منزله والفوز فوز الذي ينجو من النار

كأنه فضله لصدق معناه . ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والافراط فيه

حتى ربما قالوا : أحسن الشعر أكذبه ، كقول النابغة :

يقدّ السلوقي المضاعف نسجه ويوقدن بالصفّاح نار الحباحب

وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين في الغلو والاقتصاد وفي المتانة والسلاسة ، ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة وألطف تعملا وان يتخير الالفاظ الرشيقة للمعاني البديعة والقوافي الواقعة كمذهب البحتري وعلى ما وصفه عن بعض الكتاب :

في نظام من البلاغة ما شـــكّ امرؤ انه نظام فريد
وبديع كأنه الزهَر الضا حك في رونق الربيع الجديد
حزنَ مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادرك ن به غاية المراد البعيد

ويرون ان من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا ولم يروه شاعرا ولا مصيبا ، وفيما كتب الحسن بن عبد الله أبو أحمد العسكري قال : اخبرني محمد ابن يحيي ، قال : أخبرني عبد الله بن الحسن قال : قال لي البحتري : دعاني علي ابن الجهم فمضيت اليه فافضنا في اشعار المحدثين الى ان ذكرنا شعر أشجع فقال لي : انه يخلي ، وأعادها مرات ، ولم أفهمها ، وانفت ان أسأله عن معناها . فلما انصرفت أفكرتُ في الكلمة ونظرت في شعره فاذا هو ربما مرت له الابيات مغسولة ليس فيها بيت رائع واذا هو يريد هذا بعينه أن يعمل الابيات فلا يصيب فيها ببيت نادر ، كما أن الرامي اذا رمى برشقة فلم يصب بشيء قيل : قد أخلى . قال : وكان علي بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر

وقوم من أهل اللغة يميلون الى الرصين من الكلام الذي يجمع الغريب والمعاني مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والاصمعي ، ومنهم من يختار الوحشي من الشعر كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات ، وقيل انه اختار ذلك لميله الى ذلك الفن ، وذكر الحسن بن عبد الله انه أخبره بعض الكتاب

عن علي بن العباس قال : حضرت مع البحتري مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : وقد سأل البحتري عن أبي نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر ، فقال البحتري : أبو نواس أشعر ، فقال عبيد الله : ان أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك ويفضل مسلما ، فقال البحتري : ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله انما يعلم ذلك من وقع في سلك الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته ، فقال له عبيد الله : وريت بك زنادي يا أبا عبادة وقد وافق حكمك أخيك بشار بن برد في جرير والفرزدق أيهما أشعر فقال : جرير أشعرهما ، فقيل له بماذا : فقال لان جريرا يشتد اذا شاء وليس كذلك الفرزدق لانه يشتد ابداً ، فقيل له : فان يونس وأبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير ، فقال : ليس هذا من عمل أولئك القوم انما يعرف الشعر من يضطر الى أن يقول مثله ، وفي الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق ولقد ماتت النوار امرأته فناح عليها بقول جرير :

لولا الحياء لعادني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

وروي عن أبي عبيدة أنه قال للفرزدق : مالك لا تنسب كما ينسب جرير ؟ فغاب حولا ثم جاء فأنشد :

يا أخت ناجية بن سامة انني أخشى عليك بني ان طلبوا دمي (١)

والاعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة ، وما اختاره من الوحشيات ، وذلك أنه تنكر المستنكر الوحشي والمبتذل العمي . وأتى بالواسطة . وهذه طريقة من ينصف في الاختيار ، ولا يعدل به غرض يخص . لان الذين اختاروا الغريب فانما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم ، واظهار التقدم في معرفته وعجز غيرهم عنه ، ولم يكن قصدهم جيد الاشعار لشيء يرجع اليها في أنفسها . ويبين هذا أن الكلام

(١) كذا النسخة الخطية : « يا اخت ناجية » بالياء المثناة من تحت ، وفي المطبوعة « ناجبة » بالموحدة

موضوع للابانة عن الاغراض التي في النفوس ، واذا كان كذلك وجب ان يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد ، وأوضح في الابانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الاذن ، ومستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الافهام ، أو يمتنع بتعويص معناه عن الابانة ، ويجب أن يتنكب ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة ، ركيك المعنى ، سفسافي الوضع ، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد ، ولا طريق موطد ، وانما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع ولذلك وضع أصلها على [أن[1]] أكثرها بالحروف المعتدلة ، فقد أهملوا الالفاظ المستكرهة في نظمها ، وأسقطوها من كلامهم ، فجرى لسانهم على الأعدل ، ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي لانهم بدءوا بحرف وسكتوا على آخر وجعلوا حرفا وصلة بين الحرفين ليتم الابتداء والانتهاء على ذلك والثنائي أقل وكذلك الرباعي والخماسي أقل ، ولو كان كله ثنائيا لتكررت الحروف ، ولو كان كله رباعيا أو خماسيا لكثرت الكلمات ، وكذلك بنى أمر الحروف التي ابتدىء بها السور على هذا ، فأكثر هذه السور التي ابتدئت بذكر الحروف ذكر فيها ثلاثة أحرف ، وما هو أربعة أحرف سورتان ، وما ابتدىء بخمسة أحرف سورتان ، فأما ما بدىء بحرف واحد فقد اختلفوا فيه : فنهم من لم يجعل ذلك حرفا وانما جعله فعلا واسما لشيء خاص ، ومن جعل ذلك حرفا قال أراد أن يحقق الحروف مفردها ومنظومها ، ولضيق ما سوى كلام العرب أو لخروجه عن الاعتدال يتكرر في بعض الالسنة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيراً ، كنحو تكرر الطاء والسين في لسان يونان ، وكنحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك ، ولذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر في تلك الالسنة على الاعاريض التي تمكن في اللغة العربية ، والعربية أشدها تمكنا وأشرفها تصرفا وأعدلها ، ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن ، وعلق بها الاعجاز ، وصارت دلالة

(١) الزيادة من الخطية

في النبوة ، واذا كان الكلام انما يفيد الابانة عن الاغراض القائمة في النفوس التي لا يمكن التوصل اليها بأنفسها وهي محتاجة الى ما يعبر عنها فما كان أقرب في تصويرها وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها ـ وكان مع ذلك أحكم في الابانة عن المراد وأشد تحقيقا في الايضاح عن الطلب وأعجب في وضعه وأرشق في تصرفه وأبرع في نظمه — كان أولى وأحق بأن يكون شريفا ؛ وقد شبهوا النطق بالخط والخط يحتاج مع بيانه الى رشاقة وصحة (١) ولطف حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال ؛ وشبهوا الخط والنطق بالتصوير ؛ وقد أجمعوا أن من أحذق المصورين من صوّر لك الباكي المتضاحك والباكي الحزين والضاحك المتباكي والضاحك المستبشر وكما أنه يحتاج الى لطف يد في تصوير هذه الامثلة فكذلك يحتاج الى لطف في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير ، وفي جملة الكلام الى (٢) ما تقصر عبارته وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر المعاني وتفضل العبارات ، وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقا للآخر ، ثم ينقسم ما يقع وفقا الى (٣) انه قد يفيدها على تفصيل ؛ وكل واحد منهما قد ينقسم الى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعا شريفا وغريبا لطيفا ، وقد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلفا ومصنوعا متعسفا ، وقد يكون واحد منهما حسنا رشيقا وبهيجا نضيرا ، وقد يتفق أحد الامرين دون الآخر ، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة في واحد منهما ، انما يميز من يميز ويعرف من يعرف ، والحكم في ذلك صعب شديد والفضل فيه شأو بعيد ، وقد قل من يميز أصناف الكلام ، فقد حكى عن طبقة أبي عبيدة وخلف الاحمر وغيرهم في زمانهم انهم قالوا ذهب من يعرف نقد الشعر ، وقد بينا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار ، وما يجب أن يجمعوا عليه ويرجعوا عند التحقيق اليه ،

---

(١) في الخطية بياض يتسع لكلمة واحدة

(٢) كذا في النسختين ولعل كلمة (الى) زيادة عما يقتضيه المراد من العبارة

(٣) في هذه العبارة اضطراب جعل فهم المراد بعيدا

وكلام المقتدر نمط وكلام المتوسع باب ، وكلام المطبوع له طريق ، وكلام المتكلف له منهاج ، والكلام المصنوع المطبوع له باب ، ومتى تقدم الانسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه ولم تشتبه عنده هذه الطرق ، فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه ، وقدر كل كلام في نفسه ، ويحله محله ويعتقد فيه ما هو عليه ويحكم فيه بما يستحق من الحكم ، وان كان المتكلم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه ، وان كان يعم احسانه عرف . ألا ترى أن منهم من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يجود في الهجو وحده ، ومنهم من يجود في المدح والسخف ، ومنهم من يجود في الاوصاف ، والعالم لا يشذ عنه مراتب هؤلاء ولا يذهب عليه اقدارهم ، حتى انه اذا عرف طريقة شاعر في قصائد معدودة فأنشد غيرها من شعره لم يشك أن ذلك من نسجه ولم يرتب في أنه من نظمه ، كما أنه اذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة ، وحتى يميز بين رسائل كاتب وبين رسائل غيره ، وكذلك أمر الخطب ، فان اشتبه عليه البعض فهو لاشتباه الطريقين ، وتماثل الصورتين كما قد يشتبه شعر أبي تمام بشعر البحتري في القليل الذي يترك أبو تمام فيه التصنع ، ويقصد فيه التسهل ، ويسلك الطريقة الكتابية ، ويتوجه في تقريب الالفاظ وترك تعويص المعاني ، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري وألفاظه ، ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبك أبي نواس ، ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري ، وينبهه ديباجة شعر البحتري وكثرة مائه وبديع رونقه وبهجة كلامه ، الا فيما يسترسل فيه فيشتبه بشعر ابن الرومي ، ويحركه مالشعر أبي نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم وكذلك يميز بين شعر الاعشى في التصرف ، وبين شعر امرىء القيس ، وبين شعر النابغة وزهير ، وبين شعر جرير والاخطل والبعيث والفرزدق ، وكل له منهج معروف ، وطريق مألوف ، ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل

عبد الحميد وطبقته ، وبين طبقة من بعده ، حتى أنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل ، وتقدم في شأوها ، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهاجا ، فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل ، وبرع في ذلك باقتداره ، وتقدم ، بحذقه ، ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره ، وان كان قد يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الاطراف ، وتشذ النواحي

وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر ، وتتدانى رسائل كتاب دهر ، حتى تشتبه اشتباها شديداً ، وتتماثل تماثلا قريباً ، فيغمض الفصل . وقد يتشا كل الفرع والأصل ، وذلك فيما لا يتعذر ادراك أمده ، ولا يتصعب طلاب شأوه ، ولا يتمنع بلوغ غايته والوصول الى نهايته ، لأن الذي يتفق من الفصل بين أهل الزمان اذا تفاضلوا [1] وتفاوتوا في مضمار فصلٌ قريب وأمر يسير ، وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الالفاظ وسارق المعاني ، ولا من يخترعها ولا من يلم بها ، ولا من يجاهر بالاخذ ممن يكاتم به ، ولا من يخترع الكلام اختراعا ويبتدهه ابتداها ممن يُروّي فيه ويجيل الفكر في تنقيحه ويصبر عليه حتى يتخلص له ما يريد وحتى يتكرر نظره فيه

قال أبو عبيدة : سمعت أبا عمرو يقول : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان زهير يسمي كبر شعره (الحوليات المنقحة) وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بت أجمع بينها ... حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته ... حتى يقيم ثقافه مُنآدها

وكقول سويد بن كراع :

(١) في الخطية بياض يتسع لكلمة واحدة

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نزعا

ومنهم من يُعرف بالبديهة وحدّة الخاطر ونفاذ الطبع وسرعة النظم ، يرتجل القول ارتجالا ويطبعه عفواً صفواً فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا و كدّوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم ، و كذلك لا يخفى عليهم الكلام العلوي واللفظ الملوكي ، كما لا يخفى عليهم الكلام العامي واللفظ السوقي ، ثم تراهم ينزلون الكلام تنزيلا ، ويعطونه كيف تصرف حقوقه ، ويعرفون مراتبه ، فلا يخفى عليهم ما يختص به كل فاضل تقدّم في وجه من وجوه النظم من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره . ولا يساهمه سواه ، الا تراهم وصفوا زهيراً بأنه أمدحهم وأشدهم أسر شعر قاله أبو عبيدة ، وروى أن الفرزدق انتحل بيتاً من شعر جرير وقال : هذا يشبه شعري فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه اليهم من المعرفة بهذا الشأن . وهذا كما يعلم البزازون وهذا الديباج عمل بتستر وهذا لم يعمل بتستر ، وان هذا من صنعة فلان دون فلان ومن نسج فلان دون فلان ، حتى لا يخفى عليه وان كان قد يخفى على غيره

ثم انهم يعلمون أيضاً من له سمت بنفسه ورفت برأسه ، ومن يقتدي في الالفاظ أو في المعاني أو فيهما بغيره ، ويجعل سواه قدوة له ، ومن يلم في الاحوال بمذهب غيره ويأتي في الاحيان بمخترعه (١) وهذه أمور ممهدة عند العلماء وأسباب معروفة عند الأدباء ، وكما يقولون ان البحتري يغير على أبي تمام اغارة ويأخذ منه صريحاً واشارة ، ويستأنس بالأخذ منه بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره ، ويألف اتباعه كما لا يألف اتباع سواه ، وكما كان أبو تمام يلم بأبي نواس ومسلم ، وكما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى ويؤلف ما يقوله من فرق شتى ، وما الذي نفع المتنبيَّ جحودُه الاخذَ وانكاره معرفة

(١) لفظ (بمخترعه) ساقط من الخطية ، وفي مكانه بياض يتسع له ، وفيها بدل يأتي (يطوا) .

الطائيين وأهلُ الصنعة يدلون على كل حرف أخذه منهما جهاراً أو ألم بهما فيه سراراً ، وأما ما لم يأخذ عن الغير ولكن سلك النمط وراعى النهج فهم يعرفونه ويقولون هذا أشبه به من التمرة بالتمرة وأقرب اليه من الماء الى الماء وليس بينهما الا كما بين الليلة والليلة ، فاذا تباينا وذهب أحدهما في غير مذهب صاحبه وسلك في غير جانبه قيل بينهما ما بين السماء والارض وما بين النجم والنون وما بين المشرق والمغرب

وانما أطلت عليك ووضعت جميعه بين يديك لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله ، وغامضه وجليه ، وقريبه وبعيده ، ومعوجه ومستقيمه . فكيف يخفى عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وهو قريب متناول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ويبعد عما هو في عرفهم ويفوت مواقع قدرهم ، واذا اشتبه ذلك فانما يشتبه على ناقص في الصنعة أو قاصر عن معرفة طرق الكلام الذي يتصرفون فيه ويديرونه بينهم ولا يتجاوزونه ، فلكلامهم سبل مضبوطة وطرق معروفة محصورة ، وهذا كما يشتبه على من يدعي الشعر من أهل زماننا والعلم بهذا الشأن ، فيدّعي أنه أشعر من البحتري ، ويتوهم أنه أدق مسلكا من أبي نواس ، وأحسن طريقا من مسلم ، وأنت تعلم أنهما متباعدان وتتحقق أنهما لا يجتمعان ، ولعل أحدهما انما يلحظ عبارة صاحبه ، ويطالع ضياء نجمه ، ويراعي حفوف جناحه ، وهو راكد في موضعه ، ولا يضر البحتري ظنه ، ولا يلحقه بشأوه وهمه

فان اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشىء أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، انما يخبر عن نقصه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله

وانما قدّمنا ما قدّمناه في هذا الفصل لتعرف ان ما ادّعيناه من معرفة البليغ بعلوّ شأن القرآن وعجيب نظمه وبديع تأليفه أمر لا يجوز غيره ولا يحتمل

سواه ولا يشتبه على ذي بصيرة ولا يخيل عند أخي معرفة ، كما يعرف الفصل بين طبائع الشعراء من أهل الجاهليـة و بين المخضرمين و بين المحدثين ، و يميز بين من يجري على شاكلة طبعه وغريزة نفسه وبين من يشتغل بالتكلف والتصنع ، و بين من يصير التكلف له كالمطبوع و بين من كان مطبوعه كالتعمل المصنوع ، هيهات هيهات هذا امر - وان دق - فله قوم يقتلونه علما ، و أهل يحيطون به فهما ، و يعرفونه اليك ان شئت ، ويصورونه لديك ان أردت ويجلونه على خواطرك ان احببت ، ويعرضونه لفطنتك ان حاولت ، وقد قال القائل :

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا ... وللدواوين كتاب وحساب

ولكل عمل رجال ولكل صنعة ناس ، وفي كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ، ولكن قد قل من يميز في هذا الفن خاصة ، وذهب من يحصل في هذا الشـأن الا قليلا ، فان كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات والتحقق بمجاري البلاغات ، فانما يكفيك التأمل و يغنيك التصور ، وان كنت في الصنعة مرمدا وفي المعرفة بها متوسطا ، فلا بد لك من التقليد ولا غنى بك عن التسليم أن الناقص في هـذه الصنعة كالخارج عنها والشادى فيها كالبائن منها

فان أراد أن يقرب عليه أمراً ويفسح له طريقاً ويفتح له باباً ليعرف به اعجاز القرآن فانا نضع بين يديه الامثلة ونعرض عليه الاساليب ونصور له صورة كل قبيل من النظم والنـثر ونحضر له من كل فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمـله ويراعيه حق مراعاته فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد ويقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية الطالع عن الالهية الجامع بين الحكم والحكم والاخبار عن الغيوب والغائبات والمتضمن لمصالح الدنيا والدين والمستوعب لجلية اليقين والمعاني المخترعة في تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالالفاظ الشريفة

على تفننها وتصرفها . ونعمد الى شيء من الشعر المجمع عليه فنبين وجه النقص فيه وندل على انحطاط رتبته ووقوع أبواب الخلل فيه حتى اذا تأمل ذلك وتأمل ما نذكره من تفصيل اعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته انكشف له واتضح وثبت ما وصفناه لديه ووضح وليعرف حدود البلاغة ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدم في الفصاحة

وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أن الفارسي سئل فقيل له : ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل . وسئل اليوناني عنها فقال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام ، وسئل الرومي عنها فقال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة ، وسئل الهندي عنها فقال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وقال مرة : التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض وشرد من اللفظ وتعذر ، وزينته ان تكون الشمائل موزونة والالفاظ معدلة واللهجة نقية وأن لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ويصفيها كل التصفية ويهذبها بغاية التهذيب ، وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة الحذق بطريقة الكلام وتجويده ، وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة . وأما الفصاحة فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى ، وقد قيل : معناها الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جلية ومعان نقية بهية ، والذي يصور عندك ما ضمنا تصويره ويحصل عندك معرفته اذا كنت في صنعة الادب متوسطا وفي علم العربية متبينا ان تنظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فان تبين لك الفصل ووقعت على جلية الامر وحقيقة الفرق فقد

أدركت الغرض وصادفت المقصد ان لم تفهم الفرق ولم تقع على الفصل فلا بد لك من التقليد وعلمت انك من جملة العامة وان سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان.

﴿ خطبة للنبي ﷺ ﴾

روى طلحة بن عبيد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب على منبره يقول: « ألا أيها الناس، توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا الاعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتؤجروا وتنصروا، واعلموا ان الله عز وجل قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في عامي هذا في شهري هذا الى يوم القيامة حياتي ومن بعد موتي. فمن تركها وله امام فلا جمع الله له شمله. ولا بارك له في أمره، ألا ولا حج له، ألا ولا صوم له، ألا ولا صدقة له، ألا ولا بر له ألا ولا يؤم اعرابي مهاجرا، ألا ولا يؤم فاجر مؤمناً إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه »

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

أيها الناس، ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم. ان المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه. فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت. والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار.

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

ان الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا،

من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله في الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، انه أصدق الحديث وأبلغه . أحبوا من أحب الله ، وأحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقسوا عليه قلوبكم . اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، اتقوا الله حق تقاته وصدقوا صالح ما تعملون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

﴿ خطبة له ﷺ في أيام التشريق ﴾

قال بعد حمد الله : أيها الناس ، هل تدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم ؟ قالوا : في يوم حرام وشهر حرام وبلد حرام . قال ألا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الى يوم تلقونه . ثم قال : اسمعوا مني تعيشوا ، ألا لا تظالموا (ثلاثا) . ألا انه لا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب نفس منه . ألا ان كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه . ألا وان أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (كان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل) . ألا وان كل ربا كان في الجاهلية موضوع ، ألا وان الله تعالى قضى ان أول ربا يوضع ربا عمي العباس ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . ألا وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا وان الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينكم ، اتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا ، وان لهن عليكم حقا ولكم عليهن حق ، ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم ، فان خفتم نشوزهن فعظوهن

واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، فانما أخذتموهن بأمانة الله تعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . ثم بسط يده فقال : ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أبلغ من سامع

﴿ خطبته ﷺ يوم فتح مكة ﴾

وقف على باب الكعبة ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة (١) البيت وسقاية الحاج . ألا وقتل الخطأ العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة منها أربعون خلفة في بطونها أولادها . يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ، ثم تلا هذه الآية (٤٩ : ١٣) : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى » الآية . يامعشر قريش ـ أو يا أهل مكة ـ ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ ، قال : فاذهبوا فانتم الطلقاء

﴿ خطبته ﷺ بالخيف ﴾

[روى زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خطب بالخيف من منى فقال] (٢) : نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها الى من لم يسمعها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : اخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولى الأمر ، ولزوم الجماعة ان دعوتهم تكون من ورائه ؛ ومن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين

(١) في المخطية بياض يتسع لكلمة في مكان (سدانة)
(٢ هذه العبارة كلها ليست بالخطية

عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له

﴿ خطبة له ﷺ ﴾

رواها أبو سعيد الخدري رضى الله عنه

خطب بعد العصر فقال : ألا ان الدنيا خضرة حلوة ، ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس أن يقول الحق اذا علمه . قال : ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف ، فقال : انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى .

﴿ كتاب النبي ﷺ الى ملك فارس ﴾

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس : سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله و رسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم

﴿ كتاب له ﷺ الى النجاشى ﴾

من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة : سلم أنت فاني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة فحملت بعيسى فحملته من روحه و نفخه ، كما خلق آدم [من طين][1] بيده ونفخه . واني أدعوك الى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني واني أدعوك وجنودك الى الله تعالى فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى . والسلام على من اتبع الهدى

(١) هذه الكلمة ليست بالنسخة الخطية

﴿ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية ﴾

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ﷺ سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر بن سنة يأمن فيه الناس ، و يكف فيه بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى رسول الله ﷺ بغير اذن وليه رده عليهم . ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا اغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فاذا كان عاماً قابلا خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، وان معك سلاح الراكب والسيوف في الركب فلا تدخلها بغير هذا

* * *

ولا أطول عليك وأقتصر على ما ألقيته اليك فان كان لك في الصنعة حظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الادب بسهم ، أو في العربية بقسط ، وان قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب ، فما أحسب انه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله ، وما عساك تسمعه من كلامه ويتساقط اليك من ألفاظه ، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً ، وأمداً مديداً ، وميداناً واسعاً ، ومكاناً شاسعاً

فان قلت لعله ان يكون تعمل للقرآن وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه ، فتثبت في نفسك وارجع الى عقلك واجمع لبك ، وتيقن ان الخطب يحتشد لها في المواقف العظام والمحافل الكبار والمواسم الضخام ، ولا يتجوز فيها ، ولا يستهان بها ، والرسائل الى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقع بها الاخلال ؟ وكيف يتعرض

للتفريط ؟ فستعلم لامحالة أن نظم القرآن من الامر الالهي ، وان كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الامر النبوي .

فاذا أردت زيادة في التبيين ، وتقدماً في التعرف ، واشرافاً على الجلية ، وفوزاً بحكم القضية ، فتأمل — هداك الله — ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء ، لتعلم ان نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبي صلى الله عليه وسلم واحد ، وسبكها سبك غير مختلف ، وانما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، و بين شعر الشاعرين ، وذلك أمر له مقدار معروف ، وحد — ينتهي اليه — مضبوط ، فاذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج ، وجملته طريق ، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت : — نظرت الى نظم القرآن نظرة أخرى ، وتأملته مرة ثانية ، فتراعي بعد موقعه ، وعالي محله وموضعه ، وحكمت بواجب من اليقين ، وثلج الصدر بأصل الدين .

﴿ خطبة لابي بكر الصديق رضي الله عنه ﴾

قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فاني وليت أمركم ، ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم وعلمنا فعلمنا . واعلموا ان أكيس الكيس التقى ، وان أحمق الحمق الفجور ، وان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وان أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق . أيها الناس ، انما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان أحسنت فأعينوني ، وان زغت فقوموني .

﴿ عهد لأبي بكر الصديق الى عمر رضي الله عنهما ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، ساعة يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر ، اني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فان بر وعدل فذاك ظني به

ورأيي فيه ، وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخيرَ أردت لكم ، ولكل امريء ما اكتسب من الاثم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه قال : دخلت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في علته التي مات فيها فقلت : أراك بارئاً ياخليفة رسول الله . فقال : أما اني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يامعشر المهاجرين أشدّ عليّ من وجعي . اني ولّيت أموركم خيركم في نفسي فكلكم ورم أنفه أن يكون له الامر من دونه ، والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمن النوم على الصوف الاذربي كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان . والذي نفسي بيده لان يقدم أحدكم فتضرب رقبته في غير حد" خيرله من أن يخوض غمرات الدنيا ، ياهادي الطريق جزت (١) ، أنما هو ـ والله ـ الفجر أو البحر . قال : فقلت خفض عليك ياخليفة رسول الله ﷺ فان هذا يهيضك الى ما بك ، فوالله مازلتَ صالحاً مصلحا لاتأسى على شيء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تخليت بالامر وحدك فما رأيت الا خيرا

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنامنها على مانقلنا ، منها قصة السقيفة

﴿ نسخة كتاب ﴾

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم :

سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فانا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الصديق والعدوّ والشريف والوضيع ولكل حصته من العدل فانظر كيف أنت ياعمر عند ذلك ، فانا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه ، وتجب فيه

(١) فى النسختين جزت بالزاى وفي غير هذا الكتاب جرت بالراء المهملة

القلوب ، وانا كنا نتحدث ان هذه الامة ترجع (١) في آخر زمانها أن يكون اخوان العلانيـة أعداء السريرة وانا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ، فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك . والسلام

فكتب اليهما :

من عمر بن الخطاب ، الى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل :

سلام عليكما ، فاني أحمد اليكما الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد جاءني كتابكما تزعمان أنه بلغكما اني وليت أمر هذه الامة أحمرها واسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف انت ياعمر عند ذلك ، وانه لا حول ولا قوة لعمر عنده ذلك الا بالله . وكتبتما تحذراني ماحذرت به الامم قبلنا ، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة او النار ، ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب . وكتبتما تزعمان ان امر هذه الامة يرجع (١) في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانيـة اعداء السريرة ، ولستم بذاك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة ، فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ، ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لي ، وقد صدقتكما فتعهداني منكما بكتاب ولا غنى بي عنكما

﴿ عهد من عهود عمر رضي الله عنه ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم * من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس : سلام عليك . أما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة

(١) في الخطية يرجع

(٢) في الخطية ترجع

متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف [1] من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ، ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشباه والامثال وقس الامور عند ذلك واعمد الى أشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا [2] ينتهي اليه ، فان أحضر بينة أخذت له بحقه والا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالايمان والبينات ، واياك والغلو والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام

ولعمر رضي الله عنه خطب مشهورة مذكورة في التاريخ لم ننقلها اختصارا

﴿ ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه ﴾

خطبة له [3] رضي الله عنه

قال : ان لكل شيء آفة ، وان لكل نعمة عاهة ، في هذا الدين عيابون ظنانون ، يظهرون لكم ما تحبون ، ويسرون ما تكرهون ، يقولون لكم

---

(١) في الخطية (شريف) وهو غير ما في كتب الادب

(٢) في النسختين (امرآ) وفي غير هذا الكتاب (امدآ)

(٣) في الخطية اعثمان

وتقولون ، طغام مثل النعام ، يتبعون أول ناعق أحب مواردهم اليهم النازح ، لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علي ، ولكنه وقمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخزمة . والله اني لأقرب ناصرا ، وأعز نفرا ، وأقمن (ان قلت هلم) أن تجاب دعوتي من عمر . هل تفقدون من حقوقكم شيئاً فمالي لا أفعل في الحق ما أشاء ، اذا فلم كنت اماما ؟

﴿ كتابه الى علي حين حصر رضي الله عنهما ﴾

أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه . فاذا اتاك كتابي هذا فأقبل اليّ عليّ كنت أم لي

فان كنت مأكولا فكن خير آكل   والا فأدركني ولما أمزق

﴿ ومن كلام عليّ رضي الله عنه ﴾ قال لما قبض أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي صلى الله عليه وسلم وجاء عليّ باكيا مسترجعا وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة

حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر فقال :

رحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه وثقته وموضع سره ، كنت أوّل القوم اسلاما ، وأخلصهم ايمانا ، وأشدّهم يقينا ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأيمنهم (١) على الاسلام ، وآمنهم على اصحابه . أحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم برسول الله صلى الله عليه وسلم سننا وهديا ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده جزاك الله عن

(١) كذا في الخطية (وايمنهم) وفي المطبوعة (وآمنهم)

الاسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس فسماك الله في تنزيله صديقا ، فقال : والذى جاء بالصدق وصدق به . واسيته حين بخلوا وقمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا وصحبته في الشدائد أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه في الهجرة وخليفته في دين الله وفي أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالامر حين فشلوا ، ونطقت حين تعتعوا . مضيت بنور اذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطقا ، واطولهم صمتا ، وابلغهم قولا ، وأكثرهم رأيا ، واشجعهم نفسا ، وأعرفهم بالامور ، وأشرفهم عملا . كنت للدين يعسوبا أولا حين نفر عنه الناس وآخراً حين اقبلوا ، وكنت للمؤمنين أبا رحيما اذ صار وا عليك عيالا فحملت اثقال ما ضعفوا ، ورعيت ما اهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمرت اذ خنعوا ، وعلوت اذ هلعوا ، وصبرت اذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ونالوا بك مالم يحتسبوا ، وكنت كما قال رسول الله ﷺ آمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفا في بدنك ، قويا في أمر الله متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله جليلا في أعين الناس ، كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لاحد فيك مغمز ولا لاحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس اليك أطوعهم لله . شأنك الحق والصدق والرفق . قولك حكم [1] ، وأمرك [2] حزم ورأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ،

(١) في الخطبة في المكانين بياض يتسع لكلمة واحدة وفيها واوقبل (حزم) مما يدل على ان الحذف في الموضعين لكلمة في معنى حكم وحزم

واعتدل بك الدين ، وقوى الايمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، واتعبت من بعدك اتعابا شديدا ، وفزت بالجد فوزا ، مبينا فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء وهدّت مصيبتك الانام فانا لله وانا اليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً فألحقك الله بنبيه ، ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك

وسكت الناس حتى انقضى كلامه . ثم بكوا ، حتى علت أصواتهم

﴿ خطبة أخرى لعلى رضي الله عنه ﴾

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وان الآخرة قد اقبلت وأشرفت باطلاع ، وان المضمار اليوم وغدا السباق . ألا وانكم في أيام مهل ومن ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمله فقد فاز ، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور اجله فقد خسر عمله وضره امله ، ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة . الا واني لم ار كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها . ألا وانه من لم ينفعه الحق يضربه الباطل ومن لم يستقم (١) به الهدى يَجُر به الضلال : ألا وانكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد ، ألا وان أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الامل

﴿ وخطب ﴾ فقال بعد حمد الله : أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو ، مادنياه التي تحسنت اليه بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر اليه ، وما الخسيس الذي ظفر به من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر به من الآخرة من سهمته

﴿ وكتب علي رضي الله عنه الى عبد الله بن عباس رحمه الله وهو بالبصرة ﴾

أما بعد ، فان المرء يسر بدرك مالم يكن ليحرمه ، ويسوءه فوت مالم

(١) في الخطبة ومن لا يستقيم

يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق ، وليكن أسفك (١) فيما فرطت فيه من ذلك ، وانظر مافاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعا ، وما نلته فلا تنعم به فرحا ، وليكن همك لما بعد الموت

﴿ كلام لابن عباس رضي الله عنه ﴾

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين ؟ قال : منعه ـ والله ـ من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ناقضا لما أبرم ، ومبرما لما نقض ، أسف اذا طار ، وأطير اذ أسفّ . ولكن مضى قدر و بقي أسف ، ومع يومنا غد ، والآخرة خير لامير المؤمنين من الاولى

﴿ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴾

أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق (٢) العرا كلمة التقوى . خير الملل ملة ابراهيم ، وأحسن السنن سنة النبي صلى الله عليه وسلم . خير الامور أوساطها ، وشر الامور محدثاتها . ما قل و كفى خير مما كثر وألهى . خير الغنى غنى النفس ، وخير ما ألقي في القلب اليقين . الخمر جماع الاثم ، النساء حبالة الشيطان ، الشباب شعبة من الجنون . حب الكفاية مفتاح المعجزة ، من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبرا ، ولا يذكر الله الا هجرا . أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، سباب المؤمن فسق وقتاله كفر وأكل لحمه معصية . من يتألّ على الله يكذبه ، من يغفر يغفر له ، مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عفي عنه ، الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره ، الأمور بعواقبها ، ملاك العمل خواتيمه ، أشرف الموت الشهادة ، من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره .

---

(١) في الخطية بياض يتسع لكلمة مكان (اسفك)
(٢) كذا في الخطية . وفي المطبوعة (واصدق)

﴿ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ﴾

قال الراوي : لما حضرته الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ فقال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ! فقال : ويحك ولم ؟ ثم أذن للناس ، فحمدالله فأوجز؛ ثم قال : أيها الناس ، انا قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن شديد ، يعد فيه المحسن مسيئا ، ويزداد الظالم فيه عتوا ، لا ننتفع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف من قارعة حتى تحل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يمنعه الفساد في الارض الا مهانة نفسه وكلال حده ونضيض وفره ، ومنهم المسلط (١) سيفه والمجلب برجله والمعلن (٢) بشره ، قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يقرعه ، و بئس المتجر أن تراها لنفسك ثمنا وبما لك عند الله عوضا ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف نفسه للامانة ، واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية ، ومنهم من اقعده عن الملك ضئولة في نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرته الحال فتحلى باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهاد ، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى . وبقي رجال اغض ابصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شريد ناد ، وخائف منقمع ، وساكت مكعوم ، وداع مخلص ، وموجع ثكلان ، قد أخملتهم التقية ، وشملتهم الذلة ، فهم في بحر أجاج ، أفواههم دامية ، وقلوبهم قريحة ، قدوعظوا حتى ملوا ، وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قلوا ، فلتكن الدنيا في عيونكم أقل من حثالة القرظ وقراضة الجلم ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فارفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم

(١) كذا الخطبة وهو أحسن . وفي المطبوعة (ومنهم من المصلت)
(٢) في الخطبة « المعلق » وما اثبتناه وفاقا للنسخة المطبوعة احسن

﴿ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ﴾

أيها الناس : انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصرتم ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم . ياأيها الناس انه من يقدر له رزق برأس جبل أو بحضيض أرض يأته . فأجملوا في الطلب

﴿ خطبة للحجاج بن يوسف ﴾

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : ياأهل العراق ، وياأهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الاخلاق ، وبني اللكيعه وعبيد العصا وأولاد الاماء والفقع بالقرقر ، اني سمعت تكبيرا لايراد به الله وانما يراد به الشيطان ، وانما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمداني :

وكنت اذا قوم غزوني غزوتهم　　فهل أنا في ذا ياالهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارما　　وانفا حميا تجتنبك المظالم

أما والله لا تقرع عصا عصا الا جعلتها (١) كأمس الدابر

﴿ خطبة لقس بن ساعدة الايادي ﴾

أخبرني محمد بن عليّ الانصاري بن محمد بن عامر ، قال : حدثنا عليّ بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمري ، قال : حدثنا الانصاري عليّ بن محمد الحنظلي من ولد حنظلة الغسيل ، حدثنا جعفر بن محمد ، عن محمد بن حسان ، عن محمد بن حجاج اللخمي ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن ابن عباس ، قال : لما وفد وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ قال : أيكم يعرف قس بن ساعدة قالوا : كلنا نعرفه يارسول الله ، قال : لست أنساه بعكاظ اذ وقف على بعير له أحمر فقال : أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا

---

(١) في الخطبة (جعلها)

سمعتم فعوا واذا وعيتم فقولوا واذا قلتم فاصدقوا .من عاش مات ومن مات فات؛ وكل ما هو آت آت. أما بعد، فان في السماء لخبراً، وان في الارض لعبرا. مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. أقسم بالله قس قسما حقاً لا كاذبا فيه ولا آثما لئن كان في الارض رضا ليكونن سخط، ان لله تعالى دينا هو أحب اليه من دينكم الذي انتم عليه، وقد أتاكم أوانه ولحقتكم مدته. مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا

ثم قال رسول الله ﷺ: أيكم يروي شعره؟ فأنشدوه:

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي الي ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

اخبرني الحسن بن عبد الله بن سعيد، حدثنا عليّ بن الحسين بن اسماعيل، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبد الله بن الضحاك، عن هشام، عن أبيه أن وفدا من اياد قدموا على رسول الله ﷺ، فسألهم عن حال قس بن ساعدة، فقالوا: قال قس:

يا ناعي الموت والاموات في جدث عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فان لهم يوما يصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق
منهم عراة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها الاورق الخلق

مطر ونبات، وآباء وامهات، وذاهب وآت، وآيات في اثر آيات، واموات بعد اموات. ضوء وظلام، وليال وايام، وفقير وغني، وشقي وسعيد، ومحسن ومسيء. أين الارباب الفعلة. ليصلحن كل عامل عمله. كلا بل هو الله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، واليه المآب غدا.

اما بعد يامعشر اياد ، اين ثمود وعاد ، واين الآباء والاجداد ، اين الحسن الذى لم يشكر ، اين الظالم الذى لم ينقم ؟ كلا ورب الكعبة ليعودن مابدا ، ولئن ذهب يوم ليعودن يوم

قال : وهو قس بن ساعدة بن حذاق بن ذهل بن اياد بن نزار ، اوّل من آمن بالبعث من اهل الجاهلية ، واوّل من توكأ على عصاه واوّل من تكلم بأما بعد

﴿ خطبة لابي طالب ﴾

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل ، و جعل لنا بلدا حراما و بيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . وان محمد بن عبد الله بن أخي لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به بركة وفضلا وعدلا ومجدا ونبلا. وان كان في المال مقلا فان المال عارية مسترجعة وظل زائل ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتم من الصداق فعليّ

* * *

قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الاوّل ومحاوراتهم وخطبهم ، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن ، فتأمل ذلك ، وسائر ما هو مسطر من الاخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن ، والفصاحة والفطن ، والالفاظ المنثورة ، والمخاطبات الدائرة بينهم ، والامثال المنقولة عنهم ، ثم انظر بسكون طائر و خفض جناح وتفريغ لب وجمع عقل في ذلك ، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين ، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ و البليغ والخطيب و الخطيب والشاعر والشاعر وبين نظم القرآن جملة ، فان خيل اليك أو شبه عليك ، و ظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن لان الشعر أفصح من الخطب وأبرع من الرسائل وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات ـ ولذلك قالوا انه صلى الله عليه وسلم هو شاعر أو ساحر ـ وسوّل اليك الشيطان ان الشعر أبلغ وأعجب ،

وارق وابرع ، وأحسن الكلام وأبدع ، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين وكلام بين المحققين

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحذق بهذه الصناعة مع تقدمه في الكلام يقول : ان الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في الشعر ، لان الشعر يضيق نطاق الكلام ، ويمنع القول من انتهائه ، ويصده عن تصرفه على سننه . وحضره من يتقدم في صنعة الكلام فراجعه في ذلك ، وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ اذا صادف شروط الفصاحة ، وأبدع اذا تضمن أسباب البلاغة . ويشهد عندي للقول الاخير أن معظم براعة كلام العرب في الشعر ، ولا نجد في منثور قولهم ما نجد في منظومه ، وان كان قد أحدثت البراعة في الرسائل على حد لم يعهد في سالف أيام العرب ، ولم ينقل من دواوينهم وأخبارهم ، وهو وان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه ويضم أطرافه ونواحيه ، فهو اذا تهذب في بابه ووفي له جميع أسبابه ، لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ، ولم يعارضه من خطابهم خطاب ، وقد حكي عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف فدخل اليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده ، فقال له : هذا[1] المكي على فصاحته كان مفحما . فان صحت هذه الحكاية عنه في الحاده عرف بها[2] أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول الشعر أبلغ واذا كانت الفصاحة في قول الشعر أو لم تكن وبينا ان نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم ، ويتقدم في بلاغته على كل قول ، بما يتضح به الامر اتضاح الشمس ، ويتبين به بيان الصبح ـ وقفت على جليه هذا الشأن . فانظر فيما نعرضه عليك ما نعرضه ، وتصور بفهمك ما نصوره ، ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن ، وتأمل ما نرتبه ينكشف لك الحق ، . اذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك فمن سبيلنا أن نعمد الى قصيدة متفق على كبر محلها ، وصحة نظمها

(١) في الخطية (هو) (٢) في الخطية (لها)

وجودة بلاغتها ومعانيها، واجماعهم على ابداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدّم في الصناعة والمعروفين بالحذق في البراعة، فنقفك [1] على مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ ملوكي، وغير ذلك من الوجوه التي يجيء تفصيلها، ونبين ترتيبها وتنزيلها

فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن نشتغل به وأسخف من ان نفكر فيه. وانما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارىء، وليتبصر الناظر، فانه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل [2]، وميدان الجهل واسع، ومن نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديراً أن يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم. فما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء: «والليل الاطخم والذئب الادلم، والجذع الازلم، ما انتهكت أسيد من محرم» وذلك قد ذكر في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه، وقال أيضا «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس» وكان يقول: «والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الابيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق فما لكم لا تجتمعون» وكان يقول: «ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الارض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون» وكان يقول: «والمبديات زرعا، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر،

(١) كذا في المخطية وهي أفصح. وفي المطبوعة (فنوقفك)

(٢) الاصل المطبوع اذل بالذال وما اثبتناه عن المخطية

ريفكم فامنعوه[1] والمعتر فآووه، والباغي فناوئوه، وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ـ وكانت تتنبأ فاجتمع مسيلمة معها ـ فقالت له: ما أوحي اليك؟ فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من[2] بين صفاق وحشا» وقالت: فما بعد ذلك؟ قال: أوحى اليّ «ان الله خلق النساء أفواجا، وجعل الرجال لهن أزواجا، فتولج فيهن قعسا ايلاجا، ثم نخرجها اذا شئنا اخراجا، فينتجن لنا سخالا انتاجا» فقالت: أشهد أنك نبي. ولم ننقل كل ما ذكر من سخفه كراهية التثقيل. وروى أنه سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن هذه الالفاظ فحكوا بعض ما نقلناه، فقال أبو بكر سبحان الله ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل: فأين كان يذهب بكم؟ ومعنى قوله «لم يخرج عن آل» أي عن ربوبية. ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام

فنرجع الآن الى ما ضمناه من الكلام على الاشعار المتفق على جودتها وتقدم أصحابها في صناعتهم، ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب، وتباعد مواقع البلاغة، وتستدل على مواضع البراعة، وأنت لا تشك في جودة شعر امريء القيس، ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورا اتُّبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه، والتشبيه الذي أحدثه، والتمليح الذي يوجد في شعره[3] والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله، والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من[4] صناعة وطبع وسلاسة وعلو[5] ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح، وقد ترى الأدباء أوّلا يوازنون بشعره فلانا وفلانا، ويضمون أشعارهم الى شعره، حتى ربما وازنوا بين شعر من اقيناه وبين

---

(١) من هنا تغيرت النسخة الخطية وكتب على هامش الصحيفة: (هذه التكملة نقلت من نسخة عبد الله باشا)

(٢) ليس في الخطية (من)

(٣) في المطبوعة (والتمبيح) . وفي الخطية (والمليح الذي تجد في شعره)

(٤) في الخطية (في)

(٥) في الخطية (وتفو)

[شعره] [1] في أشياء لطيفة وأمور بديعة ، وربما فضلوهم عليه ، أو سوّوا بينهم وبينه ، أوقربوا موضع تقدمهم عليه ، وبروزه بين أيديهم . ولما اختاروا قصيدته في السبعيات أضافوا اليها أمثالها وقرنوا بها نظائرها ، ثم تراهم يقولون املان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق الى معارضته ، وتساويه في طريقته ، وربما عثرت في وجهه على أشياء كثيرة [2] ، وتقدمت عليه في أسباب عجيبة ، واذا جاءوا الى تعداد محاسن شعره كان أمراً محصوراً ، وشيأ معروفاً أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه في شعر غيره ، وتشاهد مثل ذلك البارع في كلام سواه ، وتنظر الى المحدثين كيف توغلوا الى حيازة المحاسن ، منهم من [3] جمع رصانة الكلام الى سلاسته ، ومتانته الى عذوبته والاصابة في معناه الى تحسين بهجته ، حتى أن منهم من إن قصر عنه في بعض تقدم عليه في بعض ، لان الجنس الذي يرمون اليه ، والغرض الذي يتواردون عليه ، مما للآدمي فيه مجال وللبشري فيه مثال ، فكل يضرب فيه بسهم ، ويفوز فيه بقدح ، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتا ، وتتباين تباينا وقد تتقارب تقاربا ، على حسب مشاركتهم في الصنائع ، ومساهمتهم في الحرف . ونظمُ القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير [4] متخلص فاذا شئت أن تعرف عظم شأنه فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامريء القيس في أجود أشعاره ، وما نبين لك من عواره على التفصيل وذلك قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمأل

الذين يتعصبون له أو يدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لأنه

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الخطية
(٢) في الخطية (وربما عبرت في وجهه في أشياء كثيرة)
(٣) في الخطية (في) (٤) في الخطية (النظم)

وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجع واسترجع ، كله في بيت ؛ ونحو ذلك ، وانما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ان كانت ، ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة ان وجدت . تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله ، أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا ، ولا تقدم به صانعاً . وفى لفظه ومعناه خلل ، فأوّل ذلك أنه استوقف من يبكي لذكر الحبيب[1] و ذكراه لا يقتضي بكاء الخلى وانما يصح طلب الاسعاد في مثل هذا ، على أن يبكي لبكائه ، ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فأما ان يبكي على حبيب صديقه ، وعشيق رفيقه ، فأمر محال ، فان كان المطلوب وقوفه و بكاؤه أيضاً عاشقاً صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لانه من السخف أن لا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره الى التغازل عليه ، والتواجد معه فيه . ثم في البيتين مالا يفيد من ذكر هذه المواضع ، وتسمية هذه الاماكن ، من الدخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى ، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل اذا لم يفد كان ضربا من العي ؛ ثم ان قوله « لم يعف رسمها » ذكر الاصمعي من محاسنه أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لانه ان كان صادق الودّ فلا يزيده عفاء الرسوم الا جدّة عهد ، وشدّة وجد ، وانما فرع له الأصمعي الى[2] افادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه ، فيقال : أيّ فائدة لان يعرفنا انه لم يعف رسم منازل حبيبه ؟ وأي معنى لهذا الحشو ؟ فذكرما يمكن أن يذكر ، ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل . ثم في هذه الكلمة خلل آخر ، لانه عقب البيت بأن قال : « فهل عند رسم دارس من معوّل » فذكر أبو عبيدة أنه رجع فأكذب نفسه كما قال زهير :

---

(١) كذا فى النسخة المطبوعة وفي الخطية (استوقف ثم بكى لذكر الحبيب) وفى العبارتين قصور

(٢) في الخطية (لما)

قف بالديار التي لم يعفها القدم نعم وغيرها الارواح والديم (١)

وقال غيره : أراد بالبيت الاول أنه لم ينطمس أثره كله ، وبالثانى انه ذهب بعضه ، حتى لا يتناقض الكلامان ، وليس في هذا انتصار لان معنى عفا ودرس واحد ، فاذا قال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا فهو تناقض لا محالة ، واعتذار أبي عبيدة أقرب لو صح ، ولـكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير فهو الى الخلل أقرب ، وقوله « لما نسجتها » كان ينبغي أن يقول لما نسجها ولكنه تعسف فحمل مافي تأويل التأنيث لانها في معنى الريح ، والاولى التذكير دون التأنيث ، وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف . وقوله «لم يعف رسمها» كان الأولى أن يقول « لم يعف رسمه » لانه ذكر المنزل ، فان كان رد ذلك الى هذه البقاع والاماكن التي المنزل واقع بينها فذلك خلل ، لانه انما يريد صفة المنزل الذي نزله حبيبه بعفائه ، أو بأنه لم يعف دون ماجاوره ، وان أراد بالمنزل الدار حتى أنث فذلك أيضاً خلل ، ولو سلم من هذا كله ومما نكره ذكره كراهية التطويل لم نشك في أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين ، بل يزيد عليهما ويفضلهما ، ثم قال :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل (٢)

وان شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معوّل

وليس في البيتين أيضاً معنى بديع ، ولا لفظ حسن كالأوّلين ، والبيت الاول منهما متعلق بقوله : « قفا نبك » فكأنه قال قفا وقوف صحبي بها عليّ مطيهم أو قفا حال وقوف صحبي وقوله « بها » متأخر في المعنى وان تقدم في اللفظ ، ففى ذلك تكلف وخروج من (٣) اعتدال الكلام ، والبيت الثاني مختل من جهة أنه قد جعل الدمع في اعتقاده شافياً كافيا ، فما حاجته بعد ذلك الى طلب حيلة

(١) في ديوان زهير : «بلى وغيرها الارواح والديم»
(٢) تجمل : يروى بالحاء المهملة وبالجيم (٣) في الخطية (عن)

أخرى ، وتحمل ومعوّل عند الرسوم ؟ ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفيه لشدة مابه من الحزن ، ثم يسائل هل عند الربع من حيلة أخرى ؟ وقوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل
اذا قامتا تضوّع المسك منهما نسيم الصبا يأتي [(١)] بريا القرنفل

أنت لاتشك في أن البيت الاوّل قليل الفائدة ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ وان كان منزوع المعنى ، وأما البيت الثاني فوجه التكلف فيه قوله : « اذا قامتا تضوّع المسك منهما » ولو أراد أن يجوّد أفاد أن بهما طيباً على كل حال فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير. ثم فيه خلل آخر ، لانه بعد أن شبه عَرْفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص . وقوله « نسيم الصبا » في تقدير المنقطع عن المصراع الاوّل لم يصله به وصل مثله . وقوله :

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بلّ دمعي محملي
ألا رب يوم لك منهن صالح [(٢)] ولا سيما يوم بدارة جلجل

قوله : ففاضت دموع العين ، ثم استعانته بقوله مني استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع ، وقوله : « على النحر » حشو آخر لان قوله « بلّ دمعي محملي » [يغني عنه ويدل عليه ، وليس بحشو حسن ، ثم قوله « حتى بلّ دمعي محملي » [(٣)]] اعادة ذكره الدمع حشو آخر ، وكان يكفيه أن يقول حتي بلت محملي فاحتاج لاقامة الوزن الى هذا كله ، ثم تقديره انه قد أفرط في افاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير ، ولو كان

(١) الذي في ديوان امرىء القيس (جاءت) وكذا هو في الخطية
(٢) ويروى : « الارب يوم صالح لك منهما »
(٣) هذه الزيادة ليست موجودة في الخطية

أبدع لكان يقول : حتى بلّ دمعي مغانيهم وعراصهم ، ويشبه أن يكون غرضه اقامة الوزن والقافية ، اذ الدمع يبعد أن يبل المحمل وانما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل ، وان بله فلقلته وانه لا يقطر ، وأنت تجد في شعر الخبزرزي ماهو أحسن من هذا البيت وأمتن وأعجب منه ، والبيت الثاني خال من المحاسن والبديع ، خلو من المعنى ، وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع من طبائع السوقة ، فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب ، وقال :

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجباً من رحلها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهدّاب الدمقس المفتل

تقديره اذكر يوم عقرت مطيتي ، أو يرده على قوله : «يوم بدارة جلجل» وليس في المصراع الاول من هذا البيت الا سفاهته [1] قال بعض الادباء : قوله « ياعجباً » يعجبهم من سفهه في شبابه من نحره ناقته لهم ، وانما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعاً عن الاول ، وأراد أن يكون الكلام ملائماً له ، وهذا الذي ذكره بعيد ، وهو منقطع عن الاول ، وظاهره أنه يتعجب من تحمل العذارى رحله ، وليس فى هذا تعجب كبير ، ولا في نحر الناقة لهن تعجب ، وان كان يعني به أنهن حملن رحله وان بعضهن حملته فعبر عن نفسه برحله فهذا قليلا يشبه أن يكون عجباً ، لكن الكلام لا يدل عليه ويتجافى عنه . ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب ، ولا معنى بديع ، أكثر من سفاهته مع قلة معناه وتقارب أمره ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا والى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع وكلام رائق ، وأما البيت الثاني فيعدونه حسنا ويعدون التشبيه مليحا واقعاً ، وفيه شيء ، وذلك أنه عرف اللحم ونكر الشحم ، فلا يعلم أنه وصف شحمها ، وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع ، وعجز عن تشبيه القسمة الاولى فمرت مرسلة ، وهذا نقص في الصنعة وعجز عن اعطاء

---

(٢) فى الخطية سلامته وهو خطا

الكلام حقه . وفيه شيء آخر من جهة المعنى ، وهو أنه وصف طعامه (الذي أطعم من أضاف) بالجودة وهذا قد يعاب ، وقد يقال : ان العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبا ، وانما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعا ، وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشيء يقع للعامة ويجري على ألسنتهم فليس بشيء قد سبق اليه ، وإنما زاد « المفتل » للقافية وهذا مفيد ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ولم يعدّ أهل الصنعة ذلك من البديع ، ورأوه قريباً . وفيه شيء آخر ، وهو أن تبجحه بما أطعم للاحباب مذموم وان سوّغ التبجح بما أطعم للأضياف ، الا أن يورد الكلام مورد المجون ، وعلى طريق أبي نواس في المزاح والمداعبة وقوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيري ياامرأ القيس فانزل

قوله : « دخلت الخدر خدر عنيزة » ذكره تكريراً لاقامة الوزن لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحة له ولا رونق ، وقوله في المصراع الاخير من هذا البيت : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته الى شعره ، وليس فيه غير هذا ، وتكريره بعد ذلك « تقول وقد مال الغبيط » يعني قتب الهودج بعد قوله : « فقالت لك الويلات انك مرجلي » لا فائدة فيه غير تقدير الوزن ، والا فحكاية قولها الاول كاف ، وهو في النظم قبيح ، لانه ذكر مرة « فقالت » ومرة « تقول » في معنى واحد وفصل خفيف . وفي مصراع الثاني أيضاً تأنيث من كلامهن ، وذكر أبو عبيدة أنه قال : « عقرت بعيري » ولم يقل ناقتي لانهم يحملون النساء على ذكور الابل لانها أقوى ، وفيه نظر ، لان الاظهر أن البعير اسم للذكر والانثى ، واحتاج الى ذكر البعير لاقامة الوزن ، وقوله :

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ... ولا تبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع … فألهيتها عن ذى تمائم مغيل [1]

البيت الأول قريب النسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف ، كأنه من عبارات المنحطين في الصنعة ، وقوله « فمثلك حبلى قد طرقت » عابه عليه أهل العربية ، ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام فرب مثلك حبلى قد طرقت ، وتقديره انه زير نساء وانه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن ، لان الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال ، والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار [2] والتهيام وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الاول ، لان تقديره لا تبعديني عن نفسك فاني أغلب النساء ، وأخدعهن عن رأيهن ، وأفسدهن بالتغازل ، وكونه مفسدة لمن لا يوجب له وصلهن وترك إيعادهن اياه ، بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش وركوبه كل مركب فاسد وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره ، وكقوله :

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له … بشق وتحتي شقها لم يحول

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت … عليّ وآلت حلفة لم تحلل

فالبيت الاول غاية في الفحش ونهاية في السخف ، وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد ؟ ان هذا ليبغضه كل من سمع كلامه ويوجب له المقت ، وهو لو صدق لكان قبيحا فكيف ويجوز أن يكون كاذباً ؟ ثم ليس في البيت لفظ بديع ولا معنى حسن ، وهذا البيت متصل بالبيت الذي قبله من ذكر المرضع التي لها ولد محول ، فأما البيت الثاني وهو قوله : « ويوما » يتعجب منه وانما تشددت وتعسرت عليه وحلفت عليه فهو [3] كلام رديء النسج لا فائدة لذكره لنا أن حبيبته تمنعت عليه يوما بموضع يسميه ويصفه ، وأنت تجد في شعر المحدثين من

---

(١) يروي : محول (٢) في الخطية : والاشتهار

(٣) هذا جواب اما ، وانظر ابن تمام قوله : وانما تشددت ، ولعله وانها

هذا الجنس في التغزل ما يذوب معه اللب وتطرب عليه النفس ، وهذا مما تستنكره النفس ويشمئز منه القلب ، وليس فيه شيء من الاحسان والحسن ، وقوله :

أفاطم مهـلا بعض هذا التدلل   وان كنت قد أزمعت صرمي فاجملي
أغرك مني أن حبك قاتلي   وانك مهما تأمري القلب يفعل

فالبيت الأول فيه ركاكة جداً ، وتأنيث ورقة ولكن فيها تخنيث ، ولعل قائلا يقول ان كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل . وليس كذلك ، لانك تجد الشعراء في الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم . والمصراع الثاني منقطع عن الاول لا يلائمه و لا يوافقه ، وهذا يبين لك اذا اعترضت[1] معه البيت الذي تقدمه . وكيف ينكر عليها تدللها ، والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله ؟ و البيت الثاني قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا تغتر بما يريها من أن حبها يقتله ، وانها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والمحب اذا أخبر عن مثل هذا صدق ، وان كان المعنى غير هذا الذي عيب عليه وانما ذهب مذهبا آخر وهو أنه أراد أن يظهر التجلد فهذا خلاف ما اظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات من الحب والبكاء على الاحبة ، فقد دخل في وجه آخر من المناقضة والاحالة في الكلام ، ثم قوله : « تأمري القلب يفعل » معناه تأمريني والقلب لا يؤمر ، والاستعارة في ذلك غير واقعة ولا حسنة ، وقوله :

فان كنت قد ساءتك مني خليقة   فسلي ثيابي عن[2] ثيابك تنسل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي   بسهميك في أعشار قلب مقتل

البيت الاول قد قيل في تأويله : انه ذكر الثوب وأراد البدن ، مثل قول الله تعالى : « وثيابك فطهر » وقال أبو عبيدة : هذا مثل للهجر ، و تنسل تبين

(١) في المخطية (عرضت)

(٢) في الخطية والديوان (من)

وهو بيت قليل المعنى ركيكه وضيعه، وكل ما أضاف الى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف [و] يوجب[1] قطعه، فلم لم يحكم على نفسه بذلك ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصي من وصله وانه مهذب الاخلاق شريف الشمائل فذلك يوجب أن لا ينفك من وصاله، والاستعارة في المصراع الثاني فيها تواضع وتقارب وان كانت غريبة. وأما البيت الثاني فمعدود من محاسن القصيدة وبدائعها، ومعناه ما بكيت الا لتجرحي قلبا معشراً ـ أي مكسراً ـ من قولهم: برمة أعشار اذا كانت قطعاً ـ هذا تأويل ذكره الاصمعي رضي الله عنه، وهو أشبه عند اكثرهم. وقال غيره: وهذا مثل للاعشار التي تقسم الجزور عليها، ويعني بسهميك المعلّى وله سبعة أنصباء، والرقيب وله ثلاثة أنصباء. فأراد أنك ذهبت بقلبي أجمع، ويعني بقوله: «مقتل» مذلل، وأنت تعلم أنه على ما يعني به فهو غير موافق للابيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذي بينا، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثاني فزع اليه لانه رأى اللفظ مستكرهاً على المعنى الأول لأن القائل اذا قال «ضرب فلان بسهمه في الهدف» بمعنى أصابه كان كلاماً ساقطا مرذولا، وهو يرى أن معنى الكلمة ان عينيها كالسهمين النافذين في اصابة قلبه المجروح فلما بكتا وذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين في قلبه، ولكن من حمل على التأويل الثاني سلم من الخلل الواقع في اللفظ، ولكنه اذا حمل على الثاني فسد المعنى واختل، لانه ان كان مجتنبا ـ على ماوصف به نفسه من الصبابة ـ فقلبه كله لها فكيف يكون بكاؤها هو الذي يخلص قلبه لها؟

واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الاول ولا متصل به في المعنى وهو منقطع عنه لانه لم يسبق كلام يقتضي بكاءها ولا سبب يوجب ذلك، فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال، ثم لو سلم له بيت من عشرين

(١) في الخطية: ويوجب.

بيتاً وكان بديعا ولا عيب فيه فليس بعجيب ، لانه لا يدعى على مثله ان كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين ، وانما يكفي أن نبين أن ما سبق من كلامه الى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال انه يتقدم فيه أحدا من المتأخرين فضلا عن المتقدمين ، وانما قدم في شعره لابيات قد برع فيها وبان حذقه بها ، وانما أنكرنا أن يكون شعره متناسبا في الجودة ، ومتشابها في صحة المعنى واللفظ ، وقلنا انه يتصرف بين وحشي غريب مستنكر وعربية كالمهل مستنكرة [1] وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامي سوقي في اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين سخف مستشنع ، ولهذا قال الله عز اسمه : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » فأما قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراساً اليها ومعشراً علىّ حراصا لو يسرون مقتلى

فقد قالوا : عنى بذلك انها كبيضة خدر في صفائها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق اليها ، بل هي دائرة في أفواه العرب وتشبيه سائر ، ويعني بقوله : « غير معجل » انه ليس ذلك مما يتفق قليلا وأحيانا ، بل يتكرر له الاستمتاع بها ، وقد يحمله غيره على انه رابط الجأش فلا يستعجل اذا دخلها خوف حصانتها ومنعتها . وليس في البيت كبير فائدة ، لانه الذي حكى في سائر أبياته فلا تتضمن مطارلته في المغازلة واشتغاله بها فتكريره في هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى ، الا الزيادة التي ذكر من منعتها ، وهو — مع ذلك — بيت سليم اللفظ في المصراع الاول دون الثاني ، والبيت الثاني ضعيف . وقوله : « لو يسرون مقتلى » أراد أن يقول لو أسروا ، فاذا نقله الى هذا ضعف ووقع في مضمار الضرورة ، والاختلال على نظمه بين ، حتى أن المحترز يحترز من مثله ، وقوله :

(١) في الخطية (مستكرهة)

اذا ما الثريا في السماء تعرّضت تعرُّض أثناء الوشاح المفصل

قد أنكر عليه قوم قوله: « اذا ما الثريا في السماء تعرضت » وقالوا: الثريا لا تتعرض، حتى قال بعضهم: عنى الثريا وانما أراد الجوزاء لانها تعرض والعرب تفعل ذلك، كما قال زهير: « كأحمر عاد » وانما هو أحمر ثمود

وقال بعضهم في تصحيح قوله « تعرض » . أول ماتطلع، كما أن الوشاح اذا طرح يلقاك بعرضه وهو ناحيته، وهذا كقول الشاعر:

تعرضت لي بمجان خل تعرض المهرة في الطول

يقول: تريك عرضها وهي في الرسن، وقال أبو عمرو: يعني اذا أخذت الثريا في وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة. والاشبه عندنا أن البيت غير[1] معيب من حيث عابوه، وانه من محاسن هذه القصيدة، ولولا أبيات عدة فيه لقابله ما شئت من شعر غيره، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ويستولي على الامد

أنت تعلم أنه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين في وصف شيء من النجوم مثل مافي وصف الثريا وكل قد أبدع فيه وأحسن، فاما أن يكون قد عارضه أو زاد عليه، فمن ذلك قول ذي الرمة:

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق

ومن ذلك قول ابن المعتز:

وترى الثريا في السماء كأنها بيضات أدحيّ يلحن بفدفد

وكقوله:

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نَوْر أولجام مفضض

(١) من هنا رجعت النسخة الخطية الى حالتها

وقوله أيضا :

فناولنيها والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى به الساقي

وقول الاشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الافق الغربي قرط مسلسل

ولابن المعتز :

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه كذات قرط أرادته وقد سقطا

أخذه من ابن الرومي في قوله :

طيِّب ريقه اذا ذقت فاه والثريا بجانب الغرب قرط

ولابن المعتز :

قد سقاني المدام والصبح بالليـل مؤتزرْ
والثريا كنَوْر غصن على الأرض قد نثرْ

وقوله :

وترى الثريا في السماء مراما
كانكباب طمرٍّ كاد يلقى لجاما (١)

ولابن الطثرِية :

اذا ما الثريا في السماء كأنها جمان وهى من سلكه فتبددا

ولو نسخت لك كل ما قالوا من البديع في وصف الثريا لطال عليك الكتاب وخرج عن الغرض ، وانما نريد أن نبين لك أن الابداع في نحو هذا أمر

---

(١) الرواية في الديوان هكذا :

ياخليلي هيا واسقياني المداما
قد لبسنا صباحنا وخلعنا ظلاما
وترى الثريا في الغروب مراما
كانكباب طمر كاد يلقي اللجاما

قريب وليس فيه شيء غريب ، وفي جملة ماقلناه ما يزيد على تشبيهه في الحسن أو يساويه ، أو يقاربه ، فقد علمت أن ما حلق فيه ، وقدر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه أمر مشترك ، وشريعة مورودة ، وباب واسع ، وطريق مسلوك ، واذا كان هذا بيت القصيدة ودرة القلادة وواسطة العقد ، وهذا محله فكيف بما تعداه ؟ ثم فيه ضرب من التكلف لأنه قال « اذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح » فقوله : « تعرضت » من الكلام الذي يستغنى عنه لأنه يشبه أثناء الوشاح سواء كان في وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، فالتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الألفاظ لا معنى له ، وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل فلا معنى لقوله « تعرض أثناء الوشاح » وانما أراد أن يقول : تعرض قطعة من أثناء الوشاح فلم يستقم له اللفظ ، حتى شبه ما هو كالشيء الواحد بالجمع ، وقوله :

فجئتُ وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل
فقالت : يمين الله مالك حيلة وما ان أرى عنك العماية[1] تنجلي

انظر الى البيت الأول والابيات التي قبله ، كيف خلط في النظم ، وفرط في التأليف ، فذكر التمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحراس ، ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ووصل اليها من نزعها ثيابها الا ثوباً واحداً ، والمتفضل الذي في ثوب واحد وهو الفضل ، فما كان من سبيله أن يقدمه انما ذكره مؤخراً ، وقوله : « لدى الستر » حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس في البيت حسن ، ولا شيء يفضل لأجله . وأما البيت الثاني ففيه تعليق واختلال ، ذكر الاصمعي أن معنى قوله « مالك حيلة » أي ليست لك جهة تجيء فيها والناس حوالى[2] ، والكلام في المصراع الثاني منقطع

(١) يروى : الغواية
(٢) في الخطية (احوالى)

عن الاول ، ونظمه اليه فيه ضرب من التفاوت ، وقوله :

فقمت بها أمشي تجر وراءنا على إثرنا أذيال مرط مرجل[١]
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

البيت الأول من مساعدتها إياه حتى قامت معه ليخلوا وانما كانت تجر على الاثر أذيال مرط مرجل ، والمرجل ضرب من البرود يقال لوشيه الترجيل وفيه تكلف لانه قال « وراءنا على اثرنا » ولو قال « على اثرنا » كان كافياً والذيل إنما يجر وراء الماشي فلا فائدة لذكره وراءنا ، وتقدير القول فقمت أمشي بها ، وهذا أيضاً ضرب من التكلف ، وقوله أذيل مرط كان من سبيله أن يقول ذيل مرط على أنه لو سلم من ذلك كان قريباً ليس مما يفوت بمثله غيره ، ولا يتقدم به سواه ، وقول ابن المعتز أحسن منه :

فبت أفرش خدي في الطريق له ذلا وأسحب أذيالي[٢] على الأثر

وأما البيت الثاني فقوله أجزنا بمعنى قطعنا ، والخبت بطن من الارض ، والحقف رمل منعرج ، والعقنقل المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض ، وهذا بيت متفاوت[٣] مع الأبيات المتقدمة ، لان فيها ما هو سلس قريب يشبه كلام المولدين وكلام البذلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة ، وليس في ذكرها والتفضيل لحاقها بكلامها فائدة ، والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد اذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها ، كقوله عزوجل في وصف يوم القيامة (٧٦ : ١٠) « يوماً عبوساً قمطريراً » فأما اذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب ما تحمد في موضعها ، وروي أن جريراً أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدة :

(١) يروى (على أثرينا ذيل مرط مرحل)
(٢) في الخطية (أكمامي)
(٣) في النسخة المطبوعة « متقارب » وما اثبتناه عن الخطية

بان الخليط برامتين فودّعوا أوَكلّما جدوا لبين تجزع ؟
كيف العزاء ولم أجد مذ بِنْتُمُ قلبا يقر ولا شرابا ينقع ؟

قال : وكان يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله :

وتقول بوزع : قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يابوزع

فقال : أفسدت شعرك بهذا الاسم

وأما قوله :

هصرت بغصنى دوحة فتمايلت[1] عليّ هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

فمعنى قوله « هصرت » جذبت وثنيت ، وقوله « بغصنى دوحة » تعسف ولم يكن من سبيله أن يجعلها اثنين : والمصراع الثاني أصح ، وليس فيه شيء إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين . وأنت تجد ذلك في وصف كل شاعر ، ولكنه مع تكرره على الالسن صالح ، وأما معنى قوله « مهفهفة » انها مخففة ليست مثقلة ، والمفاضة التي اضطرب بطولها ، والبيت - مع مخالفته في الطبع الأبياتَ المتقدمة ، ونزوعه فيه الى الالفاظ المستكرهة ، وما فيه من الخلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض - فليس بطائل ولكنه قريب متوسط ، وقوله :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش اذا هى نصته ولا بمعطل

معنى قوله « عن أسيل » أي بأسيل ، وانما يريد خداً ليس بكز ، وقوله « تتقي » يقال اتقاه بترسه[2] أى جعله بينه وبينه . وقوله : « تصد وتبدي عن أسيل » متفاوت ، لان الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد ، وقوله : « تتقى بناظرة » لفظة مليحة ، ولكن أضافها الى مانظم به كلامه وهو مختل

---

(١) في الديوان والمعلقات (هصرت بفودي راسها فتمايلت) (٢) في الخطية (بحقه)

وهو قوله : « من وحش وجرة » وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا ، كان من سبيله أن يضيف الى عيون الظباء أو المها دون اطلاق الوحش ففيهن ما تستنكر عيونها ، وقوله : « مطفل » فسروه على أنها ليست بصبية وانها قد استحكمت ، وهذا اعتذار متعسف ، وقوله : « مطفل » زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الاصمعي ، ولكن قد يحتمل عندي أن يفيد غير هذه الفائدة فيقال انها اذا كانت مطفلا لحظت أطفالها بعين رقة ففي نظر هذه رقة نظر المودة ، ويقع الكلام معلقا تعليقا متوسطا . وأما البيت الثاني فمعنى قوله : « ليس بفاحش » أي ليس بفاحش الطول ، ومعنى قوله : « نصته » رفعته ، ومعنى قوله : « ليس بفاحش » - في مدح الاعناق - كلام فاحش موضوع منه ، واذا نظرت في أشعار العرب رأيت في وصف الاعناق ما يشبه السحر ، فكيف وقع على هذه الكلمة ، ودفع الى هذه اللفظة ؟ وهلا قال كقول أبي نواس :

مثل الظباء سمت الى روض صوادر عن غدير

ولست أطول عليك فتستثقل ، ولا أكثر القول في ذمه فتستوحش ، وأكلك الآن الى جملة من القول ، فان كنت من أهل الصنعة فطنت واكتفيت وعرفت ما رمينا اليه واستغنيت ، وان كنت عن الطبقة خارجاً ، وعن الاتقان بهذا الشأن خالياً ، فلا يكفيك البيان وان استقرينا جميع شعره ، وتتبعنا عامة ألفاظه ، ودللنا على ما في كل حرف منه

اعلم ان هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة وأبيات متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة ، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة ، وأبيات معدودة بديعة ، وقد دللنا على المبتذل منها ، ولا يشتبه عليك الوحشي المستنكر

الذي يروع السمع، ويهول القلب، ويكد اللسان، ويعبس معناه في وجه كل خاطر، ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر، ولا يقع بمثله التمدح والتفاصح، وهو مجانب لما وضع له أصل الافهام، ومخالف لما بنى عليه التفاهم بالكلام، فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود، ويلحق باللغز والاشارات المستبهمة.

فأما الذي زعموا أنه من بديع هذا الشعر فهو قوله:

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

والمصراع الاخير عندهم بديع، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة لها من يكفيها، ومعنى قوله: «لم تنتطق عن تفضل» يقول لم تنتطق وهي فُضُل [١] وعن هي بمعنى بعد، قال أبو عبيدة: لم تنتطق فتعمل ولكنها تتفضل

ومما يعدونه من محاسنها:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم [٢] ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الاصباح منك بأمثل

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تقاعس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يتلو النجوم بآيب [٣]

وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء فقدمت أبيات امرىء القيس واستحسن استعارتها، وقد جعل لليل صدرا يثقل تنحيه ويبطىء تقضيه،

(١) يقال رجل او امرأة فضل ـ بضمتين، اى متفضل في ثوب واحد، كذا في القاموس، والمتفضل الذى يبقى في ثوب واحد لينام او يعمل عملا

(٢) في الديوان والمعلقات (الهموم)

(٣) في نسخة الديوان: تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآيب

وجعل له أردافاً كثيرة ، وجعل له صلباً يمتد ويتطاول ، ورأوا هذا بخلاف ما يستعيره أبو تمام من الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكرة ، ورأوا ان الالفاظ جميلة ، واعلم أن هذا صالح جميل ، وليس من الباب الذي يقال انه متناه عجيب ، وفيه المام بالتكلف ، ودخول في التعمل

وقد خرجوا له في البديع من القصيدة قوله :

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقوله أيضا (١) :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وارخاء سرحان وتقريب تتفل

فأما قوله « قيد الأوابد » فهو مليح ، ومثله في كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير ، والتعمل بمثله ممكن . وأهل زماننا الآن يصنعون نحو هذا تصنيفاً ، ويؤلفون المحاسن تأليفاً ، ثم يوشحون به كلامهم . والذين كانوا من قبل افرازتهم وعكسهم لم يكونوا يتصنعون لذلك ، انما كان يتفق لهم اتفاقا ، ويطرد في كلامهم اطرادا . وأما قوله في وصفه : « مكر مفر » فقد جمع فيه طباقا وتشبيها ، وفي سرعة جري الفرس الشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف ، وكذلك في جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه في بيت واحد صنعة ، ولكن قد عورض فيه وزوحم ، والتوصل اليه يسير ، وتطلبه سهل قريب

وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتا بيناً في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه ، وله شركاء في نظائرها ومنازعون في محاسنها ومعارضون في بدائعها ، ولا سواء كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة ، ويتلون تلون الحرباء ، ويختلف اختلاف الاهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النسخة الخطية

وتتقاذف به أسبابه ، وبين قول يجري في سبكه على نظام ، وفي رصفه على منهاج وفي وضعه على حد ، وفي صفائه على باب ، وفي بهجته ورونقه على طريق . مختلفه مؤتلف ، ومؤتلفه متحد ، ومتباعده متقارب ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد . وهو على متصرفاته واحد ، لا يستصعب في حال ، ولا يتعقد في شأن

وكنا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة فنتكلم عليها ، وندل على معانيها ومحاسنها ، ونذكر لك من فضائلها ونقائصها ، ونبسط لك القول في هذا الجنس ، ونفتح عليك في هذا النهج . ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره ووزنه بميزانه ومعياره ، ولذلك كتب وان لم تكن مستوفاة ، وتصانيف وان لم تكن مستقصاة . وهذا القدر يكفي في كتابنا ، ولم نحب أن ننسخ لك ماسطره الادباء في خطأ امرىء القيس في العروض والنحو والمعاني ، وما عابوه عليه في أشعاره ، وتكلموا به على ديوانه ، لأن ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا ، ومجانب لمقصوده . وانما أردنا أن نبين الجملة التي بيناها لتعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة ، ومنزلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم . وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبر عليه فيه ، وتجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم ، وتجد معنى قد توافدا عليه ، وتوافيا اليه ، فهما فيه شريكا عنان ، وكأنهما فيه رضيعا لبان ، والله يؤتي فضله من يشاء .

* * *

فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه ، فان العقول تتيه في جهته ، وتحار في بحره ، وتضل دون وصفه . ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض وتستولي به على الأمد ، وتصل به الى المقصد ، وتتصور اعجازه كما

تتصوّر الشمس ، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر ، وأقرب عليك الغامض وأسهل لك العسير . واعلم ان هـذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الاصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه . وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب ان وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام الا انّ يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فان احـدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفـظة الاخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها وتراها في مظانها وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها ، وتجد الاخرى ـ لو وضعت موضعها ـ في محل نفار ومرمى شراد ونابية عن استقرار

ولا أكثر عليك المثال ، ولا أضرب لك فيه الامثال ، وأرجع بك الى ما وعدتك من الدلالة ، وضمنت لك من تقريب المقالة ، فان كنت لا تعرف الفصل الذي بينا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام ومتصرفات مجاري النظام ، لم تستفد مما نقربه عليك شيئا وكان التقليد أولى بك والاتباع أوجب عليك ، ولكل شيء سبب ولكل علم طريق ، ولا سـبيل الى الوصول الى الشيء من غير طريقه ، ولا بلوغ غايته من غير سبيله

خذ الآن ـ هداك الله ـ في تفريغ الفكر وتخلية البال ، وانظر فيما نعرض عليك ونهديه اليـك ، متوكلا على الله ومعتصما به ومستعيذاً به من الشيطان الرجيم ، حتى تقف على اعجاز القرآن العظيم . سماه الله عز ذكره حكيما وعظيما ومجيداً ، وقال (٤١ : ٤٢) : « لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وقال (٥٩ : ٢١) : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله وتلك الامثال نضربهـا للناس لعلهم يتفكرون » وقال (١٣ : ٣١) « ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى بل لله الامر جميعا » وقال (١٧ : ٨٨) : « قل

لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » وأخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزويني ، حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان ، حدثنا أبو يوسف الصيدلاني ، حدثنا محمد ابن سلمة ، عن أبي سنان ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري الطائي ، عن الحارث الاعور ، عن عليّ رضي الله عنه ، قال : قيل : يا رسول الله ان أمتك ستفتتن من بعدك ، فسأل أوسئل — ما المخرج من ذلك : فقال : « بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضله الله ، ومن ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه الله وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم . فيه خبر من قبلكم ، وتبيان من بعدكم ، وهو فصل ليس بالهزل . وهو الذي سمعته الجن فقالوا : ﴿انا سمعنا قرآنا عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به﴾ لا يخلق على طول الرد ، ولا تنقضي عبره ، ولا تفنى عجائبه » وأخبرني أحمد بن علي بن الحسن ، أخبرنا أبي ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب ابن شريك ، عن عبيدة ، عن أسامة بن أبي عطاء ، قال : أرسل النبي ﷺ الى عليّ رضي الله عنه في ليلة . فذكر نحو ذلك في المعنى ، وفي بعض ألفاظه اختلاف . وأخبرنا أحمد بن عليّ بن الحسن ، أخبرنا أبي ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا المسيب بن شريك ، عن بشر بن نمير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوّة ، ومن قرأ نصف القرآن أعطى نصف النبوّة ، ومن قرأ القرآن كله أعطى النبوّة كلها غير أنه لا يوحى اليه » وذكر الحديث

ولو لم يكن من عظم شأنه الا انه طبق الارض أنواره ، وجلل الآفاق ضياؤه ، ونفذ في العالم حكمه ، وقبل في الدنيا رسمه ، وطمس ظلام الكفر بعد

ان كان مضروب الرواق ، ممدود الاطناب ، مبسوط الباع ، مرفوع العماد ، ليس على الارض من يعرف الله حق معرفته أو يعبده حق عبادته أو يدين بعظمته أو يعلم علو جلالته أو يتفكر في حكمته ، فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره من أنه نور فقال (٤٢ : ٥٢) : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم » فانظر إن شئت الى شريف هذا النظم وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية تامة وكل لفظ بديع واقع ، قوله « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » يدل على صدوره من الربوبية ، ويبين عن وروده عن الآلهية ، وهذه الكلمة بمفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه ، وكان واسطة عقده ، وفاتحة عقده ، وغرة شهره ، وعين دهره . وكذلك قوله : « ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » فجعله روحاً لأنه يحيي الخلق فله فضل الارواح في الاجساد ، وجعله نوراً لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق ثم أضاف وقوع الهداية به الى مشيئته ، ووقف وقوف الاسترشاد به على ارادته وبين أنه لم يكن ليهتدى اليه لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه ، وانه لم يكن ليهتدي فكيف كان يهدي لولاه ، فقد صار [يهدى ولم يكن (١)] من قبل ذلك ليهتدى ، فقال : وانك لتهدي الى صراط مستقيم . » (٤٢ : ٥٣) « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور » فانظر الى هذه الكلمات الثلاث فالكلمتان الاوليان (٢) مؤتلفتان ، وقوله : « ألا الى الله تصير الامور » كلمة منفصلة مباينة للاولى ، فقد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤالف وألطف انتظاماً من

(١) هذه الكلمات غير موجودة بالنسخة الخطية وفي مكانها بياض يتسع لها

(٢) بالنسخة المطبوعة (الاولتان) وهي لغة قليلة

الحديث الملائم ، وبهذا يبين فضل الكلام وتظهر فصاحته وبلاغته . الامر أظهر والحمد لله ، والحال أبين من أن يحتاج الى كشف ، تأمل قوله (٦ : ٩٦) « فالق الإصباح وجعل الليلَ سكنا والشمس والقمر حُسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » انظر الى هذه الكلمات الاربع التي ألَّف بينها ، واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة ، وبمفردها درة ؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الامر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى في بهجة القدرة ويتحلى بخالصة العزة ويجمع السلاسة الى الرصانة ، والسلامة الى المتانة ، والرونق الصافي ، والبهاء الضافي . ولست أقول أنه شمل الاطباق المليح والايجاز اللطيف والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل ، وان كان قد جمع ذلك وأكثر منه ، لان العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة ، فاذا ألفت ازدادت حسنا وزادتك اذا تأملت معرفة واعمالا ، ثم تأمل قوله (٣٦ : ٣٧ ـ ٣٩) : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » هل تجد كل لفظة وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع وتتضمن شرط القول البليغ ؟ فاذا كانت الآية تنتظم من البديع وتتألف من البلاغات فكيف لا تفوت حد المعهود ولا تحوز (١) شأو المألوف ؟ فكيف لا تحوز قصب السبق ولا تتعالى عن كلام الخلق ؟ ثم اقصد الى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها وراع ما فيها من براهينها وقصصها تأمل السورة التي يُذكر فيها النمل وانظر في كلمة كلمة وفصل فصل . بدأ بذكر السورة الى أن بين أن القرآن من عنده

---

(١) في النسخة الخطية لا تجوز بالجيم

فقال (٢٧ : ٦) : « وانك لتُلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم » ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وانه رأى نارا فقال لاهله امكثوا (٢٧ : ٧) : « أني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » وقال في سورة طه في هذه القصة (٢٠ : ١٠) : « لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » وفي موضع (٢٨ : ٢٩) : « لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » قد تصرف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، ولهذا قال (٥٢ : ٣٤) : « فليأتوا بحديث مثله » ليكون أبلغ في تعجيزهم، وأظهر للحجة عليهم. وكل كلمة من هذه الكلمات وان أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها. ثم قال (٢٧ : ٨) : « فلما جاءها نُودِيَ أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » فانظر الى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الاول، وكيف اتصل بتلك المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الاخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية وجعلها دليلا يدله عليه ومعجزة تهديه اليه، وانظر الى الكلمات المفردة القائمة بانفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء — عن نور البرهان — من غير سوء. ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف اذا قارنتها اخواتها وضامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها، ثم من قصة الى قصة، ومن باب الى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل، الى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل.

وان أردت أن تتبين ما قلناه فضل تبين، وتتحقق بما ادعيناه زيادة تحقق، فان كنت من أهل الصنعة فاعمد الى قصة من هذه القصص، وحديث من

هذه الاحاديث فعبر عنه بعبارة من جهتك وأخبر عنه بألفاظ من عندك ، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر ، وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر ، ولذلك أعاد قصة موسى في سور ، وعلى طرق شتى وفواصل مختلفة ، مع اتفاق المعنى ، فلعلك ترجع الى عقلك ، وتستر ما عندك ، ان غالطت في أمرك أو ذهبت في مذاهب وهمك أو سالطت على نفسك وجه ظنك ، متى تهيأ لبليغ أن يتصرف في قدر آية في أشياء مختلفة فيجعلها مؤتلفة من غير أن يبين على كلامه أعباء الخروج والتنقل أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتعمل ؟ وأحسب انه يسلم من هذا ـ ومحال أن يسلم منه ـ متى[1] يظفر بمثل تلك الكلمات الافراد ، والالفاظ الاعلام ، حتى يجمع بينها فيجلو فيها فقرة من كلامه ، وقطعة من قوله ؟ ولو اتفق له في أحرف معدودة وأسطر قليلة فمتى يتفق له في قدر مانقول انه من القرآن معجز ؟ هيهات هيهات ! ان الصبح يطمس النجوم وان كانت زاهرة ، والبحر يغمر الانهار وان كانت زاخرة ، متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية (٢٧ : ٣١) : « ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه من التدبير ، واشتغلت به[2] من المشورة ، ومن تعظيمها أمر المستشار ، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة ، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها (٢٧ : ٣٢) : « يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وذكر قولهم (٢٧ : ٣٣) : « قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به ، وقوله « الامر

(١) في المطبوعة (حتى) وما أثبتناه عن الخطية

(٢) الضمائر المؤنثة عائدة على بلقيس ملكة سبا المذكورة في القصة وضمائر الجمع تعود على جنودها

اليك » تعلم براعتــه بنفسه و عجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله فانظري ماذا تأمرين ، ثم الى هذا الاختصار والى البيان مع الايجاز ، فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز ، وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه ، ويتضمن الايجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه ، وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ، ووقفت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ، ثم لو وقع على الافهام [1] فما يجب فيه من شروط الاحكام أو بمعاني القصة وما تقتضي من الاعظام ، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة ، أو مدخولا في باب السياسة ، أو مصفوفا في طريق السيادة ، أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى ، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى ، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى ، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة ، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع ، وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد ، واذا اختصر كمل في بابه وجاد ، واذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره ، وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه ، لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائع تترى ، ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله (٢٧ : ٣٤) : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره ، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصلة — وهي الكلمة الثالثة — وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها ، وان شرحت لك مافي كل آية طال عليك الامر ، ولكني قد بينت بما فسرت ، وقررت بما فصلت ، الوجه الذي سلكت ، والنحو الذي قصدت ، والغرض الذي اليه رميت ، والسمت الذي اليه دعوت ، ثم فكر بعد

(١) بياض في الخطية والمطبوعة

ذلك في شيء أدلك عليه ، وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة ، فأجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة ، وتدبر الخواتم والفواتح ، والبوادي ، والمقاطع ، ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ، ثم اقض ما أنت قاض ، وان طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور ، ما رأيك في قوله (٢٨ : ٤) : « ان فرعون علا في الارض ، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبّح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ورونقها على ما تعاين ، وفصاحتها على ما تعرف ، وهي تشتمل على جملة وتفصيل ، وتفسير ذكر العلو في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء ، واذا تحكم في هذين الامرين فما ظنك بما دونهما ، لان النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لا تقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ، وكفت في التظليم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره ، ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله (٢٨ : ٥) : « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستأنس ، كما ان قوله (٢٨ : ٧٧) : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » وهي خمس كلمات متباعدة في المواقع ، نائية المطارح ، قد جعلها النظم البديع أشد تآلفاً من الشيء المؤتلف في الاصل ، وأحسن توافقا من المتطابق في أول الوضع . ومثل هذه الآية قوله (٢٨ : ٦٨) : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون » ومثلها (٢٨ : ٥٨) . « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » ومن

المؤتلف قوله (٢٨ : ٨١) . « فخسفنا به وبداره الارض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين» وهذه ثلاث كلمات كل كلمة منها أعز من الكبريت الأحمر . ومن الباب الآخر قوله تعالى (٢٨ : ٨٨) : « ولا تدعُ مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك الا وجهَه له الحكم واليه تُرجعون » كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها باضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته ، ثم تجد فيها تنظم ثقل النظم ونفور الطبع ، وشراد الكلام ، وتهافت القول ، وتمنع جانبه ، وقصورك في الايضاح عن واجبه ، ثم لاتقدر على أن تنتقل من قصة الى قصة وفصل الى فصل حتى تتبين عليك مواضع الوصل ، ويستصعب عليك أماكن الفصل ، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة ، وأمثالا سائرة . وحكما جليلة ، وأدلة على التوحيد بينة ، وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة ، وان أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين ، هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص ؟ انك لتراه اذا جاء الى وصف واقعة أو نقل خبر عاميّ الكلام سوقي الخطاب ، مسترسلا في أمره ، متساهلا في كلامه ، عادلا عن المألوف من طبعه ، ونا كباً عن المعهود من سجيته ، فان اتفق له في قصة كلام جيد كان قدر بيتين أو ثلاثة وكان ما زاد عليها حشوا وما تجاوزها لغوا . ولا أقول انها تخرج من عادته عفواً لأنه يقصر عن العفو ، ويقف دون العرف ، ويتعرض للركاكة ، فان لم تقنع بما قلت لك من الابيات فتأمل غير ذلك من السور ، هل تجد الحكم على ما وصفت لك لو لم تكن الا سورة واحدة لكفت في الاعجاز ، فكيف بالقرآن العظيم ؟ ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى وأقنع وشفى ، ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء لما طلبت بينة سواها بل قصة من قصصه

وهي قوله (٢٦ : ٥٢) : «وأوحينا الى موسى أن أسرِ بعبادي انكم متَّبعون » الى قوله (٢٦ : ٥٧ ـ ٦٠) : « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومَقام كريم. كذلك وأورثناها بني اسرائيل فأتبعوهم مشرقين » حتى قال (٢٦ : ٦٣) « فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْق كالطود العظيم » ثم قصة ابراهيم عليه السلام ، ثم لو لم تكن الا الآيات التي انتهى اليها القول في ذكر القرآن وهي قوله (٢٦ : ١٩٢ ـ ١٩٥) : « وانه لتنزيلُ رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » وهذه كلمات مفردة بفواصلها ، منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة ، ومنها ما هي فاتحة وواسطة وفاصلة ، ومنها كلمة بفاصلتها تامة ، دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيراً ، وبين أنه آية لكونه نبياً ، ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال (٢٦ : ٢١٤ ـ ٢١٥) : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » فتأمل آية آية لتعرف الاعجاز ، وتتبين التصرف البديع والتنقل في الفصول الى آخر السورة ، ثم راع المقطع العجيب وهو قوله (٢٦ : ٢٢٧) : « وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون » هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد ، وان تنظم مثل هذا النظم ، وان تجد مثل هذه النظائر السابقة ، وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟

ولولا كراهة الاملال لجئت الى كل فصل فاستقريت على الترتيب كلماته ، وبينت لك ما في كل واحدة منها من البراعة ومن عجيب البلاغة ، ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده ، وتستضيء بنوره ، وتهتدي بهداه . ونحن نذكر آيات أخر لتزداد استبصارا وتتقدم تيقنا ، تأمل من الكلام المؤتلف قوله (٤٠ : ١ ـ ٣) : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطَّول لا إله إلا هو اليه المصير » أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته ، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم

مثل هذا النظم في هذا القدر ، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني وحسن الفاتحة والخاتمة ، واتل ما بعدها من الآي واعرف وجه الخلوص من شيء الى شيء : من احتجاج الى وعيد ، ومن اعذار الى انذار ، ومن فنون من الامر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم ، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم ، ثم جاء الى قوله (٤٠ : ٥ ـ ٦) : « كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » الآية الأولى أربعة فصول ، والثانية فصلان ، وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل موقع قوله : « وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه » وهل تقع في الحسن موقع قوله ليأخذوه كلمة ؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة ؟ وهل يسد مسده في الاصالة نكتة لو وضع موضع ذلك ليقتلوه أو ليرجموه أو لينفوه أو ليطردوه أو ليهلكوه أو ليذلوه ونحو هذا ما كان ذلك بعيداً ولا بارعاً ولا عجيباً ولا بالغاً ، فانقد موضع هذه الكلمة وتعلم بها ما تذهب اليه من تخير الكلام [وجميل] (١) الألفاظ والاهتداء للمعاني فان كنت تقدر ان شيئا من هذه الكلمات التي [عددناها] (١) عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب فلا سبيل لك الى الوقوف على تصاريف الخطاب ، فافزع الى التقليد ، واكف نفسك مؤنة التفكير ، وان فطنت فانظر الى ما قال من رد عجز الخطاب الى صدره بقوله « فأخذتهم فكيف كان عقاب » ثم ذكر عقيبها العذاب في الآخرة واتلاها تلو العذاب في الدنيا ، على الاحكام الذي رأيت ، ثم ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل فقال (٤٠ : ٧) « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به » الى أن

---

(١) في مكان هذه الكلمة من الخطية بياض بمقدارها

ذكر ثلاث آيات ، وهذا كلام مفصول تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه الى ما تقدم وتقضى ، وعظم موضعه في معناه ، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله (٤٠ : ٧) : « ربنا وسعتَ كل شيء رحمة وعلما » هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظاً ومعنى ، ولطيف هذه الحكاية ، وتلاؤم هذا الكلام ، وتشاكل هذا النظام ؟ وكيف يهتدي الى وضع هذه المعاني بَشَريّ ؟ والى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنْسيّ ثم ذكر ثلاث آيات في أمر الكافرين على ما ترى ، ثم نبه على أمر القرآن وانه من آياته ، بقوله (٤٠ : ١٣) : « هو الذي يريكم آياته وينزّل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر الا من ينيب » وانما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء ، ولأن الرزاق الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس تجب طاعته والنظر في آياته ، ثم قال (٤٠ : ١٤ ـ ١٦) « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيعُ الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » قف على هذه الدلالة ، وفكر فيها ، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية ، والكلمات السامية ، والحكم البالغة ، والمعاني الشريفة تعلم ورودها عن الالهية ودلالتها على الربوبية، وتتحقق أن الخطب المنقولة عنهم والأخبار المأثورة في كلامهم الفصيحة من الكلام الذي تعلق به الهمم البشرية وما تحوم عليه الأفكار الآدمية ، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول ، أي خاطر يتشوّف الى أن يقول : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون » وأي لفظ يدرك هذا المضمار ، وأي حكيم يهتدي الى ما لهذا من الغور ، وأي فصيح يهتدى الى هذا النظم ؟ ثم استقرىء الآية الى آخرها واعتبر كلماتها ، وراع بعدها قوله (٤٠ : ١٧) : « اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت

لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب » من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها وعلى خفتها في النظم وموقعها من القلب؟ ثم تأمل قوله (٤٠ : ١٨ ـ ٢) « وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير » كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها من أنه اذا رآها الانسان في رسالة كانت عينها ، أو في خطبة كانت وجهها أو قصيدة كانت غرة غرتها ، وبيت قصيدتها ، كالياقوتة التي تكون فريدة العقد وعين القلادة ودرة الشذر ، اذا وقع بين كلام وشّحه واذا ضمن في نظام زينه ، واذا اعترض في خطاب تميّز عنه ، وبان بحسنه منه ولست أقول هذا لك في آية دون آية ، وسورة دون سورة ، وفصل دون فصل ، وقصة دون قصة ، ومعنى دون معنى ، لاني قد شرحت لك أن الكلام في حكاية القصص والاخبار ، وفي الشرائع والاحكام ، وفي الديانة والتوحيد وفي الحجج والتثبيت ، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الامور . ألا ترى أن الشاعر المفلق اذا جاء الى الزهد قصر ، والأديب اذا تكلم في بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره ، ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء ، ولا يتباين في أمر ، ولا يختلف في حال ، بل له المثل الأعلى ، والفضل الأسمى . وفيما شرحناه لك كفاية ، وفيما بيناه بلاغ

ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات أخر ، منها قوله (٥ : ٤) : « يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب » . أنت تجد في هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب والنظم البارع ما يدلك ـ ان شئت ـ على الاعجاز مع هذا الاختصار والايجاز

فكيف اذا بلغ ذلك آيات وكانت سورة ؟ ونحو هذه الآية قوله (٧ : ١٥٧) : « الذين يتَّبعون الرسول النبي الأُمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » وكالآية التي بعدها في التوحيد واثبات النبوة ، وكالآيات الثلاث في المواريث . أيٌّ بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض في قدرها من الكلام ؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم ؟ وان جئت الى آيات الاحتجاج كقوله تعالى (٢١ : ٢٢ ـ ٢٣) : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون » . وكالآيات في التوحيد كقوله (٤٠ : ٦٥) : « هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » وكقوله (٢٥ : ١ ـ ٢) : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدَّره تقديرا » . وكقوله (٦٧ : ١) : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » الى آخرها وكقوله . (٣٧ : ١ ـ ١٠) : « والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمَّعون الى الملأ الاعلى ويُقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » هذه من الآيات التي قال فيها الله تعالى ذكره (٣٩ : ٢٣) . « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يُضلل الله فما له من هاد » وانظر بعين عقلك وراجع جليَّة بصيرتك اذا تفكرت في

كلمة كلمة مما نقلناه اليك وعرضناه عليك ، ثم فيما ينتظم من الكلمات ، ثم الى أن يتكامل فصلا وقصة أو يتم حديثاً وسورة ، لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب ، وتدبره على نحو هذا التنزيل ، فلم ندَّع ماادعيناه لبعضه ، ولم نصف ما وصفناه إلا في كله ، وان كانت الدلالة في البعض أبين وأظهر ، والآية أكشف وأبهر . واذا تأملت على ماهديناك اليه ووقفناك عليه فانظر هل ترى وقع هذا النور في قلبك واشتماله على لبك وسريانه في حسك ونفوذه في عروقك وامتلاءك به ايقانا واحاطة واهتداءك به ايماناً وبصيرة ، أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه والهزة تعمل في جوانبك من لون والاريحية تستولى عليك من باب ، وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له ، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه ، وتجد في نفسك من المعرفة التي حدثت لك عزة وفى أعطافك ارتياحاً وهزة ، وترى لك فى الفضل تقدماً وتبريزا ، وفى اليقين سبقاً وتحقيقا ، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة ، ومهاويهم فى ظلال القلة والذلة ، وأقدارهم بالمبن التي يجب أن تلاحظ بها مراتبهم بحيث يجب أن ترتبها . هذا كله فى تأمل الكلام ونظامه ، وعجيب معانيه وأحكامه ، فان جئت الى ما انبسط فى العالم من بركته وأنواره ، وتمكن فى الآفاق من يمنه وأضوائه ، وثبت فى القلوب من اكباره واعظامه ، وتقرر فى النفوس من حتم أمره ونهيه ، ومضى فى السماء من مفروض حكمه ، والى أنه جعل عماد الصلاة التي هي تلو الايمان فى التأكيد ، وثانية التوحيد في الوجوب وفرض حفظه ، وو كل الصغار والكبار بتلاوته ، وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه من قوله « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه فهل يدلك هذا على عظيم شأنه وراجح ميزانه وعالى . مكانه وجملة الامر أن نقد الكلام شديد وتمييزه صعب

ومما كتب اليّ الحسن بن عبد الله العسكري : أخبرني أبو بكر بن دريد قال : سمعت أبا حاتم يقول : سمعت الاصمعي يقول : فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب . وقال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : العلماء بالشعر أعز من الكبريت الاحمر ، واذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق تمييزه ، ويصعب نقده ، يذهب عن محاسنه الكثير ، وينظرون الى كثير من قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون في الاحسن منه اختلافا كثيرا ، وتتباين آراؤهم في تفضيل ما تفضل منه فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم ، ولا يتأتى في مقدورهم ، ولا يمثل بخواطرهم ؟ وقد حير القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم ولا أتم بلاغة ولا أحسن براعة ، حتى دهشوا حين ورد عليهم ، وولهت عقولهم ، ولم يكن عندهم فيه جواب غير ضرب الامثال ، والتعرض عليه [1] ، والتوهم فيه ، وتقسيمه أقساما ، وجعله عضين . وكيف لا يكون أحسن الكلام وقد قال الله تعالى (٣٩ . ٢٣) : « الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ومن يضلل الله فما له من هاد » استفتح فهم هذه الآية وكفاك في استفهام علم هذه الكلمات وقد أغناك ، فليس يوقف على حسن الكلام بطوله ، ولا تعرف براعته بكثرة فصوله ، ان القليل يدل على الكثير ، والقريب قد يهجم بك على البعيد ، ثم انه سبحانه وتعالى لما علم من عظم شأن هذه المعرفة وكبر محلها وذهابها على أقوام ذكر في آخر هذه الآية ما ذكر وبين ما بين ، فقال : « ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » فلا يعلم ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد . وقال (٣٩ : ٢٣) : « ومن يضلل الله فما له من هاد » وقال (٢ : ٢٦) : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيرا » وقد بسطنا لك القول رجاء افهامك ،

(١) لعله (والتعرض عليه)

وهذا المنهاج الذي رأيته ان سلكته يأخذ بيدك ويدلك على رشدك ويغنيك عن ذكر براعته آية آية لك. واعلم انا لم نقصد فيما سطرناه من الآيات وضمناه من السور والدلالات ذكر الأحسن والأكشف والأظهر، لانا نعتقد في كل سورة ذكرناها وأضربنا عن ذكرها اعتقادا واحداً في الدلالة على الاعجاز والكفاية في التمنع والبرهان، ولكن لم يكن بد من ذكر بعض فذكرنا ماتيسر وقلنا فيما اتجه في الحال وخطر، وان كنا نعتقد ان الاعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعض أدق وأغمض، والكلام في هذا الفصل يجيء بعد هذا، فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا والسير بعد ذلك في التفصيل اليك. وحصِّل ما أعطيناك من العلامة، ثم النظر عليك

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم الى قسمين: أحدهما ما يتم بنفسه، أو بنفسه وفاصلته فينير في الكلام انارة النجم في الظلام، والثاني ما يشتمل على كلمتين أو كلمات اذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة وغاية البلاغة وانما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير أو خطاب طويل، فتراها ما بينها تدل على نفسها وتعلو على ما قد قرن منها لعلو جنسها، فاذا ضمت الى اخواتها وجاءت في ذواتها أرتك القلائد منظومة، كما كانت تريك عند تأمل الافراد منها اليواقيت منثورة والجواهر مبثوثة، ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر لأنشدتك ألفاظاً وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه وكيف ترى بهجتها في أثنائه وكيف تمتاز منه، حتى انه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبين انه أجنبي من الكلام الذي تضمنه والباب الذي توسطه، وأنكر مكانه واستكبر موضعه، ثم تناسبها في البلاغة والابداع وتماثلها في السلاسة والاغراب، ثم انفرادها بتلك الاسلوب وتخصصها بذلك الترتيب، ثم سائر ماقدمنا ذكره مما نكره اعادته. وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه، ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه،

ويضيق به النطاق في مذاهبه ، ويرتبك في أطرافه وجوانبه ، ويسلمه للتكلف الوحش كثرة تصرفه ، ويحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه ، ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه ، وفي فصله ووصله ، وافتتاحه واختتامه ، وفي كل نهج يسلكه ، وطريق يأخذ فيه ، وباب يتهجم عليه ، ووجه يؤمه ـ على ما وصفه الله تعالى به ـ لا يتفاوت ، كما قال (٤ : ٨٢) : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » ولا يخرج عن تشابهه وتماثله ، كما قال (٣٩ : ٢٨) : « قرآناً عربيا غيرَ ذي عوج » وكما قال (٣٩ : ٢٣) : « كتابا متشابها » ولا يخرج عن ابانته ، كما قال (٢٦ : ١٩٥) : « بلسان عربي مبين » وغيره من الكلام كثير التلون ، دائم التغير ، يقف بك على بديع مستحسن ، ويعقبه قبيح مستهجن ، ويطلع عليك بوجه الحسناء ، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشوهاء ، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كاللآلىء الزُّهر ، وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البهم ، قد يقع اليك منه الكلام المثبج[١] والنظم المشوّش ، والحديث المشوه ، وقد تجد منه مالا يتناسب ولا يتشابه ولا يتألف ولا يتماثل ، وقد قيل في وصف ما جرى هذا المجرى :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه   لسان دَعيٍّ في القريض دخيل

وقال آخر :

وبعض قريض القوم أولاد عَلّة   يكدُّ لسان الناطق المتحفظ

فان قال قائل : فقد نجد في آيات القرآن ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وانما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة ، وحد يتجاوز حد الالفاظ المستبدة ، وان كان الاكثر على ما وصفته به ، قيل له : نحن نعلم أن قوله (٤ : ٢٣) : « حُرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم » الى آخر الآية ليس

(١) المضطرب

من القبيل الذي يمكن اظهار البراعة فيه وابانة الفصاحة ، وذلك يجري عندنا مجرى ما يحتاج الى ذكره من الاسماء والالقاب ، فلا يمكن اظهار البلاغة فيه ، فطلبها في نحو هذا ضربٌ من الجهالة ، بل الذى يعتبر فى نحو ذلك تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل في هذه الآية – ان تأملت – ألا ترى انه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها وادلائها بنفسها ومكان بعضيتها ، فهى أصل الكل من يدلى بنفسه منهن ، لانه ليس في ذوات الانساب أقرب منها ، ولما جاء الى ذوات الأسباب ألحق لها حكم الام من الرضاع ، لان اللحم ينشره اللبن بما يغذوه فيحصل بذلك أيضا لها حكم البعضية ، فنشر الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة ، وذكر الأخوات من الرضاعة فنبه بهما على كل من يدلي بغيرها وجعلها تلو الام من الرضاع ، والكلام في اظهار حكم هذه الآية وفوائدها يطول ، ولم نضع كتابنا لهذا ، وسبيل هذا أن نذكره في كتاب معاني القرآن ان سهل الله لنا املاءه وجمعه ، فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكمة الاعجاز في النظم والتأليف ، والفائدة التى تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف ، فقد علم السائل أنه لم يأت بشيء ولم يهتد للاغراض في دلالات الكلام وفوائده ومتصرفاته وفنونه ومتوجهاته ، وقد يتفق في الشعر ذكر الاسامى فيحسن موقعه ، كقول أبي دواد الأسدي :

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم كَلَباً على أعدائه وأعزهم فقداً على الاصحاب

وقد يتفق ذكر الاسامى فيفسد النظم ويقبح الوزن ، والآيات الاحكاميات التى لا بد فيها من أمر البلاغة يعتبر فيها من الالفاظ ما يعتبر في غيرها ، وقد يمكن فيها ، وكل موضع أمكن ذلك فقد وجد في القرآن في بابه ما ليس عليه

مزيد في البلاغة وعجيب النظم ، ثم في جملة الآيات ما ان لم تراع البديع البليغ في الكلمات الافراد والالفاظ الآحاد فقد تجد ذلك مع تركب الكلمتين والثلاث ويطرد ذلك في الابتداء ، والخروج ، والفواصل ، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة ، أو باجتماع ذلك أو في بعض ذلك ، ما يخلف الابداع في أفراد الكلمات . وان كانت الجملة والمعظم على ماسبق الوصف فيه ، واذا عرف مايجري اليه الكلام ، وينهي اليه الخطاب ، ويقف عليه الاسلوب ، ويختص به القبيل بان عند أهل الصنعة تميز بابه وانفراد سبيله ، ولم يشك البليغ في انتمائه الى الجهة التي ينتمي اليها ، ولم يرتب الاديب البارع في انتسابه الى ما عرف من نهجه وهذا كما يعرف طريقة مترسل في رسالته فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه فكأنه يرى أنه يعدعليه مجاري حركاته وأنفاسه . وكذلك في الشعر واختلاف ضروبه يعرف المتحقق به طبع كل أحد وسبيل كل شاعر ، وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها ، وتقصيها يطول ، وعجائبها لا تنقضي . فمنها الكلام(١) والاشارات ، واذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً ربما زاد الافهام به على الايضاح ، أو ساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه ، كان النهاية في معناه ، وذلك كقوله (١٧ : ١) : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » فصول هذه الآية وكلماتها على ما شرحناه من قبل البلاغة واللطف في التقدم وفي تضمن هذا الامر العظيم والمقام الكريم ، ويتلو هذه قوله (١٧ : ٢) : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل » هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع ، وقد تمثل في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع ما لا ينفك منه القول ، وقد يتبرأ الكلام

(١) بياض بالاصلين يتسع لكلمة واحدة

المتصل بعضه من بعض ويظهر عليه التثبيج [١] والتباين للخلل الواقع في النظم ، وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا ولم يبن عليه تميز الخروج ، ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب الى ذكر نوح وكيف أثنى عليه ؟ وكيف يليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها ـ مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول ـ الى ذكره ، واجرائه الى مدحه بشكره ، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته ، وأن يستنوا بسنته في أن يشكروا كشكره ، ولا يتخذوا من دون الله وكيلا ، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه اياهم من الطوفان لما حملهم عليه ونجاهم فيه حين أهلك من عداهم به ، وقد عرفهم أنه انما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم ثم عاد عليهم بالافضال والاحسان حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذي ولدهم وهم من ذريته ، فلما عادوا الى جهالتهم وتمردوا في طغيانهم ، عاد عليهم بالتعذيب . ثم ذكر الله عز وجل في ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التي كانت لهم بكلمات قليلة في العدد كثيرة الفوائد لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير والكلام الطويل ، ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة على أعجب تدريج وأبدع تاريخ بقوله (١٧ : ٧) : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » ولم ينقطع بذلك [٢] الكلام ، وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله وينتشر مع انتظامه ، فكيف بالقاء ما ليس منه في أثنائه وطرح ما بعده في أدراجه ؟ الى أن خرج الى قوله (١٧ : ٨) « عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا » يعني ان عدتم الى الطاعة عدنا الى العفو ، ثم خرج خروجاً آخر الى ذكر القرآن . وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام ، وماله من علو الشان ، لا يطلب مطلبا

(١) التثبيج ، والثبج ـ محركة ـ اضطراب الكلام وتفنينه وتعمية الخط وترك بيانه
(٢) هنا بالنسخة الخطية بياض يتسع لكلمة واحدة

الا انفتح ، ولا يسلك قلبا الا انشرح ، ولا يذهب مذهباً إلا استنار وأضاء ، ولا يضرب مضربا الا بلغ فيه السماء ، لا تقع منه على فائدة فقدّرت انها أقصى فوائدها الا قصرْت ، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها الا وقد أخلات ، ان الذي عارض القرآن بشعر امريء القيس لأضل من حمار أهله ، وأحمق من هَبنقَّة لو كان شعره كله كالابيات المختارة التي قدمناها لأوجب البراءة من[1] قوله :

وسِنٍّ كسُنَّيْقٍ سناه وسُنَّماً ذَعَرْتُ بِمِدْلاجِ الهجيرِ نَهوضِ

قال الاصمعي : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنّم . وقال بعضهم : السنيق أكمة . وقال فيها :

له نُضْر باعير وساقا نعامة كفحل الهجان القيصري المضوض

وقوله :

عصافيرٌ وذبّان ودود وأجرأ من مجلجلة الذباب[2]

وزاد في تقبيح ذلك وقوعه في أبيات فيها :

فقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

وكل مكارم الاخلاق سارت اليه همّتي وبها اكتسابي

وكقوله في قصيدة قالها في نهاية السقوط :

أزْمانَ فوها كلما نبهتها كالمسك فاح وظل في الفدّام

أفلا ترى أظعانهن بواكراً كالنخل من شَوْكانَ حين صِرام

وكأن شاربها أصاب لسانه مُوم يخالط جسمَه بِسِقام

وكقوله :

(١) في الخطية (منه)

(٢) في الخطية (الذئاب)

لم يفعلوا فعل آل حنظلة انهمْ جَيْرِ بئسما ائتمروا
لا خِمْيَرِيٌّ وفى ولا عَدَسٌ ولا آستُ عَيْرٍ يحكُّها الثَّفَرُ
ان بنى عوفٍ ابتنَوْا حسبا ضيعه الداخلون(١) اذ غدروا

وكقوله :

أبلغ شهابا وأبلغ هل أتاك الخيزمال(٢)
انا تركنا منكم قتلى بخوعى وسَبْياً كالسعالى
يمشين بين رحالنا معترفات بجوع وهزال

ولم يقع مثل ذلك له وحده ، فقد قال الاعشى :

فأدخلك الله برد الجنا ن جذلان في مَدْخل طيِّب

وقال أيضا :

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

وقال في فرسه :

ويأمر لليحموم كل عشية بقَتٍّ وتعليق فقد كاد يسنق

وقال :

شاوٍ مشلٌّ شلول شلشل شولُ(٣)

وهذه الألفاظ في معنى واحد ، وقد وقع لزهير نحوه كقوله :

فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سُحِقت فيه المقادمُ والقَمْلُ

كيف يقال هذا في قصيدة يقول فيها :

وهل ينبت الخطى الا وشيجه وتغرس الا في مَنابتها النخل

وكقول الطرِمَّاح :

(١) في الخطية (الدخللون)
(٢) في الخطية (هل اتاك الخير مال)
(٣) صدر هذا البيت : وقد غدوت الى الحانوت يتبعني

سوف تدنيك من لميس سبنتا ة امارت بالبول ماء الكراض

السبنتاة : الناقة الصلبة ، والكراض : ماء الفحل ، أمالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه ولم تحمل فتضعف ، والمائر : السائل

فان قال قائل أجدك تحاملت على امرىء القيس ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة ، وبين اللطف والشكاسة ، وبين التوحش والاستئناس ، والتقارب والتباعد ، ورأيت الكلام الأعدل أفضل ، والنظام المستوثق أكمل ، وأنت تجد البحتري يسبق في هذا الميدان ، ويفوت الغاية في هذا الشان ، وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأي ، وكذلك تجد لأبي نواس من بهجة اللفظ ودقيق المعنى ما يتحير فيه أهل اللفظ ويقدمه الشطار والظراف على كل شاعر ، ويرون انظمه روعة لا يرون لنظم غيره ، وزبرجاً لا يتفق لسواه ، فكيف يعرف فضل ماسواه عليه ؟ فالجواب ان الكلام في أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن قد تقدم ، واذ كنا قد بينا ان شعر امريء القيس ـ وهو كبيرهم الذي يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم الذي يأتمون به ، وامامهم الذي يرجعون اليه ـ كيف سبيله وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن ، وانه لا يخلط بشعره غبار ذلك النظم ، وهو اذا لحظ ذلك كان كما قال :

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح في اعجاز نجم مغرّب

وكما قال أيضاً :

راحت مشرّقة ورحت مغربا فمتى التقاء مشرّق ومغرّب

واذا كنا قد أبنا في القاعدة ما علمت ، وفصّلنا لك في شعره ما عرفت ، لم نحتج الى أن نتكلم على شعر شاعر (١) وكلام كل بليغ ، والقليل يدل على

---

(١) لعل العبارة هكذا (على شعر كل شاعر) الخ

الكثير ، وقد بينا في الجملة مباينة أسلوب نظم القرآن جميع الاساليب ، ومزيته عليها في النظم والترتيب ، وتقدمه عليها في كل حكمة وبراعة ، ثم تكلمنا على التفضيل [1] على ما شهدت ، ولا يبقى علينا بعد ذلك سؤال

ثم نقول : أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحتري في الصنعة به من الشغل في تفضيله على ابن الرومي أو تسوية ما بينهما مالا يطمع معه في تقديمه على امريء القيس ومن في طبقته ، ، كذلك أبو نواس انما يعدل شعره بشعر أشكاله ، ويقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره ، وانما يقع بينهم التباين اليسير والتفاوت القليل ، فاما ان يظن ظان أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن « فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » وانما هي خواطر يغير بعضها على بعض ، ويقتدي فيها بعض ببعض والغرض الذي يرمي اليه ويصح التوافي عليه في الجملة فهو قبيل متداول وجنس متنازع ، وشريعة مورودة ، وطريقة مسلوكة . ألا ترى الى ما روى عن الحسين بن الضحاك ، قال : أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها :

وشاطري اللسان مختلق التكريه زان المجون بالنسك
كأنه نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك

قال : فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها :

أعاذل أعتبت الامام واعتبا وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقيها [2] اجزها فلم أكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوّزها عني عقارا ترى لها الى الشرف الاعلى شعاعا مطنبا
اذا عبّ فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

قال : فقلت له : يا أبا علي هذه مصالتة ، فقال : أتظن انه يرى لك معنى وأنا حي ؟ فتأمل هذا الاخذ وهذا الوضع وهذا الاتباع ، أما الخليع فقد رأى

(١) في الخطية (التفصيل) (٢) في الخطيه (لساقينا)

الابداع في المعنى ، فأما العبارات فانها ليست على ما ظنه ، لان قوله « يكرع » ليس بصحيح وفيه ثقل بين وتفاوت ، وفيه احالة ، لان القمر لا يصح تصور أن يكرع في نجم ، وأما قول أبي نواس : « اذا عب فيها » فكلمة قد قصد فيها المتانة وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح . وقوله : « شارب القوم » فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه أو من مثله لاقامة الوزن ، ثم قوله : « خلته يقبل في داج من الليل كوكبا » تشبيه بحالة واحدة من أحواله ، وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك ، وانما يتفاوله ليلا ، فليس بتشبيه مستوفى على ما فيه من الوقوع والملاحة . وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

ومهفهف تمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكئوس الى مراشفه وتحن في يده الى الحبس
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس
وكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

ولا شك في أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب ، الا انه تمكن من اراده في بيتين وهما ـ مع سبقهما الى المعنى ـ أتيا به في بيت واحد

وانما أردت بهذا أن أعرفك أن هذه أمور متقاربة يقع فيها التنافس والتعارض ، والاطماع متعلقة بها ، والهمم تسمو اليها ، وهي إلفُ طباعنا وطوع مدار كنا ومجانس لكلامنا ، واعجاب قوم بنحو هذا وما يجري مجراه ، وايثار أقوام لشعر البحتري على أبي تمام وعبد الصمد وابن الرومي ، وتقديم قوم كل هؤلاء أو بعضهم عليه ، وذهاب قوم عن المعرفة ، ليس بأمر يضرّ بنا ، ولا صعب يعترض على افهامنا

ونحن نعمد الى بعض قصائد البحتري فنتكلم عليها كما تكلمنا على

قصيدة امريء القيس ، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة ، ويستخلص من سر المعرفة سريرة ، ويعلم كيف تكون الموازنة ، وكيف تقع المشابهة والمقاربة ، ونجعل تلك القصيدة التي نذكرها أجود شعره

سمعت الصاحب اسماعيل بن عباد يقول : سمعت أباالفضل بن العميد يقول: سمعت أبا مسلم الرستمي يقول: سمعت البحتري يذكر أن أجود شعر قاله :

أهلا بذلكم الخيال المقبل

قال : وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول : أجود شعره هو قوله في الشيب:

زجر له لو كان ينزجر

قال : وسئلت عن ذلك فقلت : البحتري أعرف بشعر نفسه من غيره

فنحن الآن نقول في هذه القصيدة ما يصلح في مثل هذا ، قوله :

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل
برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضُّلَّل

البيت الأول ، في قوله « ذلكم الخيال » ثقل روح وتطويل وحشو ، وغيره أصلح له . وأخف منه قول الصَّنَوْبَرِي :

أهلا بذاك الزور من زور شمس بدت في فلك الدور

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف ، فيصير الى الكزازة، وتعود ملاحته بذلك ملوحة ، وفصاحته عِيّاً ، وبراعته تكلفاً ، وسلاسته تعسفاً وملاسته تلويا وتعقداً ، فهذا فصل . وفيه شيء آخر ، وهو أن هذا الخطاب انما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال اقباله ، فأما أن يحكي الحال التي كانت وسلفت على هذه العيادة ففيه عهدة ، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة ، وهو ـ ابراعته وحذقه في هذه الصنعة ـ يعلق نحو هذا الكلام ولا ينظر في عواقبه ، لان ملاحة قوله تغطي على عيون الناظرين فيه نحو هذه الامور . ثم قوله :

« فعل الذى نهواه أو لم يفعل » ليست بكلمة رشيقة ، ولا لفظة ظريفة ، وان كانت كسائر الكلام . فأما بيته الثاني فهو عظيم الموقع في البهجة ، وبديع المأخذ حسن الرواء ، أنيق المنظر والمسمع ، يملأ القلب والفهم ، ويفرح الخاطر ، وترى بشاشته في العروق . وكان البحتري يسمي نحو هذه الابيات عروق الذهب ، وفي نحوه ما يدل على براعته في الصناعة ، وحذقه في البلاغة : ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل ، مع الديباجة الحسنة والرونق المليح ، وذلك أنه جعل الخيال كالبرق لاشراقه في مسراه كما يقال انه يسري كنسيم الصبا فيطيب ما مر به كذلك يضيء ما مر حوله وينوّر ما مر به وهذا غلو في الصنعة الا ان ذكره بطن وجرة حشو ، وفي ذكره خلل ، لان النور القليل يؤثر في بطون الارض وما اطمأن منها ، بخلاف ما يؤثر في غيرها ، فلم يكن من سبيله ان يربط ذلك ببطن وجرة ، وتحديده المكان على الحشو احمد من تحديد امريء القيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة ، لم يقنع بذكر حد حتى حده بأربعة حدود ، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى ـ ان أخل بحد ـ أن يكون بيعه فاسداً او شرطه باطلا ، فهذا باب . ثم انما يذكر الخيال بخفاء الاثر ودقة المطلب ولطف المسلك ، وهذا الذي ذكر يضاد هذا الوجه ويخالف ما يوضع عليه اصل الباب . ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحتري قطع الكلام الاول وابتدأ بذكر برق لمع من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة ، لان هذا القطع ان كان فعله كان خارجا به عن النظم المحمود ولم يكن مبدعا ، ثم كان لا تكون فيه فائدة ، لان كل برق شمل وتكرر وقع الاهتداء به في الظلام ، وكان لا يكون بما نظمه مفيدا ولا متقدما ، وهو على ما كان من مقصده فهو فو لفظ محمود ، ومعنى مستحب غير مقصود ، ويعلم بعقله أنه طلب العبارات ، وتعليق القول بالاشارات ، وهذا من الشعر الجنس الذى يحلو لفظه وتقل فوائده . كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائح[1]
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الاباطح

هذه ألفاظ بعيدة المطالع والمقاطع ، حلوة المباني والمواقع ، قليلة المعاني والفوائد . فأما قول البحتري بعد ذلك :

من غادة مُنعت وتمنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل
كالبدر غير مخيل والغصن غير مميل والدعص غير مهيل

فالبيت الاول — على ما تكلف فيه من المطابقة ، وتجشم الصنعة — ألفاظه أوفر من معانيه ، وكلماته أكثر من فوائده ، وتعلم أن القصد وضع العبارات في مثله ، ولو قال هي ممنوعة مانعة كان ينوب عن تطويله ، وتكثيره الكلام وتهويله ، ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان . وأما البيت الثاني ، فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدعص أمر منقول متداول ، ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك ، وأعا بيقى تشبيه ثلاثة اشياء بثلاثة أشياء في البيت ، وهذا أيضا قريب لأن المعنى مكرر ، ويبقى له بعد ذلك شيء آخر وهو تعمله للترصيع في البيت كله ، الا أن هذه الاستثناآت فيها ضرب من التكلف ، لأن التشبيه بالغصن كاف ، فاذا زاد فقال كالغصن غير معوج كان ذلك من باب التكلف خللا ، وكان ذلك زيادة يستغنى عنها ، وكذلك قوله « كالدعص غير مهيل » لأنه اذا انهال خرج عن ان يكون مطلق التشبيه مصروفا اليه ، فلا يكون لتقييده معنى ، وأما قوله :

ما الحسن عندك يا سعاد بمُحْسِنٍ فيما أتاه ولا الجمال بُمجْمِلِ
عذل المشوق وان من سيما الهوى في حيث تجهله لجاج العُذّل

قوله — في البيت الاول — « عندك » حشو ، وليس بواقع ولا بديع

(١) في غير هذا الكتاب : وشدت على دهم المطايا رحالنا ولم ينظر الغادى الذي هو رائح

وفيه كلفة ، والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء ، وفيه شيء آخر لانه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهييج وجده وتهييم قلبه ، وضد هذا المعنى هو الذي يميل اليه أهل الهوى والحب . وبيت كشاجم أسلم من هذا وأبعد من الخلل ، وهو قوله :

بحياة حسنك أحسني وبحق من ... جعل الجمال عليك وقفا أجملي

وأما البيت الثاني فان قوله « فى حيث » حشا بقوله في كلامه ، ووقع ذلك مستنكراً وحشيا نافراً عن طبعه ، جافيا في وضعه ، فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن ، فهو يمحو حسنه ، ويأتي على جماله . ثم في المعنى شيء لان لجاج العذل لا يدل على هوى مجهول ، ولو كان مجهولا لم يهتدوا للعذل عليه ، فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعانى ، ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن في البيت معنى بديع ولا شيء يفوت قول الشعراء في العذل ، فان ذلك جملهم الذلول ، وقولهم المكرر . وأما قوله :

ماذا عليك من انتظار متيم ... بل ما يضرك وقفة فى منزل
ان سيل عيَّ عن الجواب فلم يطق ... رَجْعاً فكيف يكون ان لم يُسأل

لست أنكر حسن البيتين ، وظرفهما ورشاقتهما ولطفهما وماءهما وبهجتهما ، الا أن البيت الاول منقطع عن الكلام المتقدم ضربا من الانقطاع ، لانه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر ، وانما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائم . ثم الذي ذكره من الانتظار ـ وان كان مليحا في اللفظ ـ فهو في المعنى متكلف ، لان الواقف في الدار لا ينتظر أمراً ، وانما يقف تحسراً وتذللا وتحيراً والشطر الاخير من البيت واقع والاول مستجلب ، وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر لان وضع البيت يقتضي تقدم عذل على الوقوف ، ولم يحصل ذلك مذكوراً في شعره من قبل ، وأما البيت الثاني فانه معلق بالاول لا يستقل الا به ، وهم

يعيبون وقوف البيت على غيره ، ويرون أن البيت التام هو المحمود والمصراع التام بنفسه ــ بحيث لا يقف على المصراع الآخر ــ أفضل وأتم وأحسن . وقوله : « فكيف يكون ان لم يسأل » مليح جداً ، ولا تستمر ملاحة ما قبله عليه ، ولا يطرد فيه الماء اطراده فيه ، وفيه شيء آخر ، لانه لا يصلح أن يكون السؤال سببا لان يعيا عن الجواب ، وظاهر القول يقتضيه . فأما قوله :

لا تكلفن لي الدموع فان لي دمعا ينم عليه ان لم يفضل

ولقد سكنت الى الصدود من النوى والشرى أري عند طعم الحنظل

وكذاك طَرْفَةُ حين أوجس ضربة في الرأس هان عليه فصد الاكحل

فالبيت الاول مخالف لما عليه مذهبهم في طلب الاسعاد بالدموع ، والاسعاف بالبكاء . ومخالف لاول كلامه ، لانه يفيد مخاطبة العذل وهذا يفيد مخاطبة الرفيق . وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها ، ولذلك قال الله عز وجل « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » فأخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم ، واللفظ كيف أطاعهم ، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم ، وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب ، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن ، فصار بهذا أبلغ خطابهم . ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا لم يكن في ذلك شيء يفوت شعر شاعر أو كلام متكلم . وأما قوله : « والشرى أرى » فانه وان كان قد تصنع له من جهة الطباق ومن جهة التجنيس المقارب فهي كلمة ثقيلة على اللسان ، وهم يذمون نحو هذا ، كما عابوا على أبي تمام قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ومتى ما لمته لمته وحدي [(1)]

ذكر لي الصاحب بن عباد أنه جارى أبا الفضل بن العميد في محاسن

(١) الذي في كتب المعاني (واذا ما لمته)

القصيدة حتى انتهى الى هذا البيت فذكر له أن قوله « أمدحه أمدحه » معيب لثقله من جهة تدارك حروف الحلق ، ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا في هذه النكتة فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعة معروف. ثم ان قوله « عند أكل الحنظل » ليس بحسن ولا واقع . وأما البيت الثالث فهو أجنبي من كلامه غريب في طباعه ، نافر من جملة شعره ، وفيه كزازة وفجاجة وان كان المعنى صالحا ، فأما قوله :

وأغر في الزمن البهيم محجل ... قد رحتُ منه على أغرَّ محجلِ
كالهيكل المبنيّ الا أنه ... في الحسن جاء كصورة في هيكل

فالبيت الاول لم يتفق له فيه خروج حسن بل هو مقطوع عما سلف من الكلام ، وعامة خروجه نحو هذا ، وهو غير بارع في هذا الباب ، وهذا مذموم معيب منه ، لأن من كان صناعته الشعر ، وهو يأكل به ، و تغافل عما يرفع اليه في كل قصيدة ، واستهان باحكامه وتجويده مع تتبعه لان يكون عامة ما يصدر به اشعاره من النسيب عشرة أبيات وتتبعه للصنعة الكثيرة وتركيب العبارات وتنقيح الالفاظ وتزويرها ـ كان ذلك أدخل في عيبه ، وأدل على تقصيره أو قصوره ، وانه لا يقع له الخروج منه ، وأما قوله : « وأغر في الزمن البهيم محجل » فان ذكر التحجيل في الممدوح قريب ، وليس بالجيد ، وقد يمكن أن يقال انه اذا قرن بالاغر حسن ، وجرى مجراه ، وانخرط في سلكه ، وأهوى الى مضماره ، ولم ينكر لمكانه من جواره ، فهذا عذر ، والعدول عنه أحسن . وانما أراد أن يرد العجز على الصدر ويأتي بوجه التجنيس ، وفيه شيء ، لان ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطي الاغر الاول وراكبا عليه ، ولو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء وأقاويل الناس ، فأما ذكر الهيكل في البيت الثاني ورده عجز البيت عليه وظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظة وعمل شيئا حتى كررها فهي كلمة فيها ثقل ، ونحن نجدهم اذا أرادوا أن يصنعوا

نحو هذا قالوا : « ما هو الا صورة ، وما هو الا تمثال ، وما هو الادمية وما هو الاظبية » ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب و اللسان ، وقد استدرك هو أيضا على نفسه فذكر أنه كصورة في هيكل ، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل كان أولى وأجمل ، ولو أن هذه الكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها ، وأفزعوهم بذكرها ، وذلك من كلامهم وشبيه بصناعتهم . وأما قوله :

وافى الضلوع يشد عقد حزامه يوم اللقاء على معم مخول
أخواله للرستمين بفارس وجدوده للتبعين بموكل

نبل المحزم مما يمدح به الخيل فهو لم يأت فيه ببديع ، وقوله : « يشد عقد حزامه » داخل في التكلف والتعسف ، لا يقبل من مثله وان قبلناه من غيره لانه يتتبع الالفاظ وينقدها نقداً شديداً ، فهلا قال يشد حزامه ، أو يأتي بحشو آخر سوى العقد ، فقد عقد هذا البيت بذكر العقد ثم قوله « يوم اللقاء » حشو آخر لا يحتاج اليه ، وأما البيت الثاني فمعناه أصلح من ألفاظه ، لانها غير مجانسة لطباعه ، وفيها غلظ ونفار ، وأما قوله :

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت صيداً وينقض انقضاض الأجدل
متوجس برقيقتين كأنما تريان من ورق عليه موصل
ما إن يعاف قذى ولو أوردته يوما خلائق حمدويه الاحول

البيت الاول صالح ، وقد قاله الناس ولم يسبق اليه ولم يقل ما لم يقولوه بل هو منقول ، وفي سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها ، وقد يقولون : « يفوت الطرف ، ويسبق الريح ، ويجاري الوهم ، ويكد النظر » ولولا أن الاتيان على محاسن ما قالوه في ذلك يخرج الكلام عن غرض الكتاب لنقلت (١) لك جملة مما ذهبوا اليه في هذا المعنى ، فتتبع تعلم أنه لم

(١) كذا في الخطية وهو الصواب . وفي المطبوعة (نقلت)

يأت فيها بما يجل عن الوصف أو يفوت منتهى الحد . على أن الهُوِيّ يذكر عند الانقضاض خاصة ، و ليس للفرس هـذه الصفة في الحقيقة ، الا أن يشبه حده في العَدْو بحالة انقضاض البازي و العقاب ، و ليست تلك الحـالة بأسرع أحوال طيرانها . وأما البيت الثانى فقوله ان الاذنين كانهما من ورق موصَّل ، وانما أراد بذلك حِدّتَهما ، وسرعة حركتهما واحساسهما بالصوت كما يحس الورق بحفيف الريح ، وظاهر التشبيه غير واقع ، واذاضمن ماذكرنامن المعنى كان المعنى حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ ، وانما يجري مجرى المضمن ، و ليس هذا البيت براثق اللفظ ولا مشاكل فيه لطبعه غير قوله متوجس برقيقتين فان هذا القدر هو حسن . وأما البيت الثالث فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد ، و نقلنا نظائر ذلك من قول أبي تمام وغيره ، وقطعة أبي تمام في نهاية الحسن في هذا المعنى . والذي وقع البحتري في هذا البيت عندي ليس بجيد في لفظ ولا معنى ، وهو بيت وحش جداً قد صار قذى في عين هذه القصيدة ، بل وخزا فيها و وبالا عليها ، قد كدر صفاءها وأذهب بهاءها وماءها وطمس بظلمته سناها ، وما وجه مدح الفرس بأنه لا يعاف قذى من المياه اذا وردها ؟ كأنه أراد أن يسلك مسلك بشار في قوله :

ولا يشرب الماء الا بدم

واذا كان لهذا الباب مجانبا ، وعن هذا السمت بعيدا ، فهلا وصفها بعزة الشرب كما وصفها المتنبي فى قوله :

وصول الى المستصعبات بخيله ... فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

وهلا سلك فيه مسلك القائل :

وانى الماء الذي شابه القذى ... اذا كثرت وُرّاده لعيوف

ثم قوله « ولو أوردته يوما » حشو بارد ثم قوله « حدويه الاحول » وحش

جدا ، فما أمقت هذا البيت وأبغضه ، وما أثقله وأسخفه ، وانما غطى على عينه عيبه وزين له ايراده طمعُه في الاستطراد ، وهلا طمع فيه على وجه لا يغض من بهجة كلامه ولا معنى ألفاظه ، فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر ، فأما قوله :

ذَنبٌ كما سُحب الرداء يذُبُّ عن ... عُرُفٍ وعرف كالقناع المسبل

تتوهم الجوزاء في أرساغه ... والبدرَ فوق جبينه المتهلل

فالبيت الاول وحش الابتداء ، منقطع عما سبق من الكلام ، وقد ذكرنا أنه لا يهتدي لوصل الكلام ونظام بعضه الى بعض ، وانما يتصنع لغير هذا الوجه ، وكان يحتاج أن يقول ذنب كالرداء فقد حذف الوصل غير متسق ولا مليح ، وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ولا يذهب عن مثله . ثم قوله : « كما سحب الرداء » قبيح في تحقيق التشبيه ، وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة إلا على اضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء . وقوله : « يذب عن عرف » ليس بحسن ولا صادق ، والمحمود ما ذكره امرؤ القيس ، وهو قوله :

فويق الأرض ليس بأعزل

وأما قوله : « تتوهم الجوزاء في ارساغه » فهو تشبيه مليح ولكنه لم يسبق اليه ولا انفرد به ، ولو نسخت لك ما قاله الشعراء في تشبيه الغرة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الامور وتشبيه المحجول لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها ، وأمور مليحة قد ذهبوا اليها ، وليس ذلك موضع كلامنا ، فتتبع ذلك في أشعارهم تعلم ما وصفت لك

واعلم انا تركنا بقية كلامه في وصف الفرس لانه ذكر عشرين بيتاً في ذلك ، والذي ذكرناه في هذا المعنى يدل على ما بعده ، ولا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطا الى حد لا يفوت طريقة الشعراء ولو تتبعت أقاويل الشعراء في وصف الخيل علمت أنه وان جمع فأوعى وحشر فنادى ففيهم من سبقه في ميدانه ، ومنهم من ساواه في شأوه ، ومنهم من داناه

فالقبيل واحد ، والنسيج متشاكل ، ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم في ذلك لتقف على ما قلت ، فتجاوزنا الى الكلام على ماقاله في المدح في هذه القصيدة ، قال :

لمحمد بن عليّ الشرف الذي   لا يلحظ الجوزاء إلا من عل
وسحابة لولا تتابع مُزْنها   فينا لراح المزن غير مُبَخّل
والجود يعذله عليه حاتم   سَرَفاً ولا جودٌ لمن لم يُعذل

البيت الأول منقطع عما قبله على ما وصفنا به شعره من قطعه المعاني وفصله بينها وقلة تأنيه لتجويد الخروج والوصل ، ذلك نقصان في الصناعة وتخلف في البراعة ، وهذا اذا وقع في مواضع قليلة عذر فيها ، وأما اذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر ا. وأما المعنى الذي ذكره فليس بشيء مما سبق اليه ، وهو شيء مشترك فيه ، وقد قالوا في نحوه : ان مجده سماءُ السماء وقالوا في نحوه الكثير الذي يصعب نقل جميعه ، وكما قال المتنبي :

وعزمة بعثتها همة زحل   من تحتها بمكان الترب من زحل

وحدثني اسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل ثم قال لمن حضره : أتدري من هذا ؟ هو الذي قال في أبيه البحتري : « لمحمد بن القاسم الشرف الذي » فذلك يدل على استعظامه الميت [1] بما مدح به من البيت . والبيت الثاني في تشبيه جوده بالسحاب قريب ، وهو حديث مكرر ليس ينفك مديح شاعر منه ، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة ابداع كما قد يقع لهم في نحو هذا ، ولكنه لم يتصنع له وأرسله ارسالا ، وقد وقع في المصراع الثاني ضرب من الخلل ، وذلك ان المزن انما يبخل اذا منع نيله ، فذلك موجود في كل نيل ممنوح ، وكلاهما محمود مع الاسعاف ، فان أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه ، وان كان انما شبه غالب أحدهما بالآخر ، وذكر قصور أحدهما عن صاحبه حتى أنه قد يبخل في وقت والآخر لا يبخل بحال ،

(١) في الخطية (للبيت)

فهذا جيد ، وليس في حمل الالفاظ على الاشارة الى هذا شيء ، والبيت الثالث وان كان معناه مكرراً فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم يشبه ألفاظ المبتدئين ، وأما قوله :

فضل وافضال وما أخذ المدى   بعد المدى كالفاضل المتفضل
سارٍ اذا ادَّلج العفاة الى الندى   لا يصنع المعروف غير معجل

فالبيت الاول منقطع عما قبله وليس فيه شيء غير التجنيس الذي ليس ببديع لتكرره على كل لسان ، وقوله : « ما أخذ المدى » فانه لفظ مليح ، وهو كقول القائل :

قد أركبُ الآلة بعد الآله

وروي : الحالة بعد الحالة . وكقول امريء القيس :

سمو حباب الماء حالا على حال

ولـكنها طريقة مذللة فهو فيها تابع . وأما البيت الثاني فقريب في اللفظ والمعنى ، وقوله : « لايصنع المعروف » ليس بلفظ محمود . وأما قوله :

عالٍ على نظر الحسود كأنما   جذبتـه أفراد النجوم بأحبل
أوَ ما رأيت المجد ألقى رحله   في آل طلحة ثم لم يتحول

فالبيت الاول منكر جـداً في جر النجوم بالارسان موضعه الى العلو والتكلف فيه واقع ، والبيت الثاني أجنبي عنه ، بعيد منه ، وافتتاحه رديء وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوقيف ؟ والبيتان أجنبيان من كلامه ، غريبان في قصيدته ، ولم يقع له في المدح في هذه القصيدة شيء جيد ، ألا ترى أنه قال بعد ذلك :

نفسي فداؤك يا محمد من فتى   يوفي على ظُلَم الخطوب فتنجلي
اني أريد أبا سعيد ، والعدى   بيني وبين سحابه المتهلل

كأن هذا ليس من طبعه ولا من سبكه ، وقوله :

مضر الجزيرة كلها وربيعة الـ خابور توعدني وأزْدُ الموصل
قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأُخيك من ادد أبيك بمنصل

البيت الاول حسن المعنى وان كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين، وهذا المعنى قد يمكن ايراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق منه، كقوله:

اذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

والبيت الثاني قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف، وهو قبيح اللفظ حيث يقول فيه: « فثنّه لأُخيك من أُدد أبيك » ومن أخذه بهذا التعرض لهذا السجع وذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره. وأما قوله بعد ذلك في وصف السيف، يقول:

يتناول الروح البعيد مناله عفوا ويفتح في القضاء المقفل
بابانة فى كل حتف مظلم وهداية في كل نفس مجهل
ماض وان لم تمضه يد فارس بطل ومصقول وان لم يصقل

ليس لفظ البيت الاول بمضاهٍ لديباجة شعره، ولا له بهجة نظمه، لظهور أثر التكلف عليه، وتبين ثقل فيه، وأما القضاء المقفل وفتحه فكلام غير محمود ولا مرضي، واستعارة لو لم يستعرها كانت أولى به، وهلا عيب عليه كما عيب على أبي تمام قوله:

فضربت الشتاء فى أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

وقالوا يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع في أخدعيه، وقد اتبعه البحتري في استعارة الاخدع وَلوعا باتباعه فقال في الفتح:

واني وقد بلغتني الشرف العلا وأعتقت من ذل المطامع أخدعي

ان شيطانه حيث زيَّن له هذه الكلمة تابعه حين حسن عنده هذه اللفظة لخبيثٌ ماردٌ ورديء معانده، أراد أن يطلق أعنة الذم فيه، ويسرح جيوش

العتب اليه ، ولم يقنع بقفل القضاء حتى جعل للحتف ظلمة تجلى بالسيف ، وجعل السيف هاديا في النفس المجهل الذي لا يهتدى اليه ، وليس في هذا مع تحسين اللفظ وتنميقه شيء لأن السلاح وان كان معيبا فانه يهتدي الى النفس ، وكان يجب أن يبدع في هذا ابداع المتنبي في قوله :

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقد صغت الاسنة من هموم فما يخطرْنَ الا في الفؤاد

فالاهتداء على هذا الوجه في التشبيه بديع حسن . وفي البيت الاول شيء آخر ، وذلك أن قوله : « ويفتح في القضاء » في هذا الموضع حشو رديء يلحق بصاحبه اللُّكنة ، ويلزمه الهجنة . وأما البيت الثالث فانه أصلح هذه الابيات وان كان ذكر الفارس حشوا وتكلفاً ولغواً لأن هذا لا يتغير بالفارس والراجل ، على أنه ليس فيه بديع . وأما قوله :

يغشى الوغى والترس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمعقل

مصغ الى حكم الردى فاذا مضى لم يلتفت واذا قضى لم يعدل

متوقد يبري بأول ضربة ما أدركت ولو انها في يذبل

البيتان الاولان من الجنس الذي يكثر كلامه عليه وهي طريقه التي يجتنيها ، وذلك من السبك الكتابي والكلام المعتدل ، الا أنه لم يبدع فيها بشيء ، وقد زيد عليه فيها ، ومن قصد الى أن يكمل عشرة أبيات في وصف السيف فليس من حكمه أن يأتي بأشياء منقولة وأمور مذكورة ، وسبيله أن يغرب ويبدع كما أبدع المتنبي في قوله :

سلّه الركض بعد وهن بنجد فتصدى للغيث أهل الحجاز

هذا في باب صقاله وأضوائه وكثرة مائه ، وكقوله :

ريّان لو قذف الذي أسقيتَهُ لجرى من المهجات بحر مزبد

وقوله : « مصغ الى حكم الردى » ان تأملته مقلوب ، كان ينبغي أن يقول : يصغى الردى الى حكمه ، كما قال الآخر :

فالسيف يأمر والاقدار تنتظر

وقوله : « واذا قضى لم يعدل » متكرر على ألسنتهم في الشعر خاصة في نفس هذا المعنى ، والبيت الثالث سليم وهو كالاولين في خلوه عن البديع ، فأما قوله :

فاذا أصاب فكل شيء مقتل   واذا أصيب فما له من مقتل

وكأنما سود النمال وحمرها   دبت بأيد في قراه وأرجل

البيت الأول يقصد به صنعة اللفظ ، وهو في المعنى متفاوت ، لأن المضرب قد لا يكون مقتلا ، وقد يطلق الشعراء ذلك ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبي وأنه بضده :

يقتل السيف في جسم القتيل به   وللسيوف كما للناس آجال

وهذه طريقة لهم يتمدحون بها في قصف الرمح طعنا وتقطيع السيف ضربا . وفي قوله : « واذا أصيب فما له من مقتل » تعسف لأنه يريد بذلك أنه لا يتكسر ، فالتعبير عما عبر به عن المعنى الذي ذكرناه يتضمن التكلف وضرباً من المحال ، وليس بالنادر ، والذي عليه الجملة ما حكيناه عن غيره ونحوه قال بعض أهل الزمان :

يقصف في الفارس السمهري   وصدر الحسام فريقا فريقا

والبيت الثاني أيضا هو معنى مكرر على ألسنة الشعراء ، وأما تصنيعه بسود النمال وحمرها فليس بشيء ، ولعله أراد بالحمر الذر ، والتفصيل بارد ، والاعراب به منكر ، وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال : كان كذا حين كانت الثريا بحذاء رأسي على سواه ، أو منحرفاً قدر شبر أو نصف شبر أو اصبع أو ما يقارب ذلك فقيل له : هذا من الورع الذي يبغضه الله ، ويمقته الناس ، ورب زيادة كانت

نقصانا ، وصفة النمل بالسواد والحمرة في هذا من ذلك الجنس وعليه خرج بقية البيت في قوله :

دبت بأيد في قراه وأرجل

وكان يكفي ذكر الارجل عن ذكر الايدي ، ووصف الفرند بمدب النمل شيء لا يشذ عن أحد منهم ، وأما قوله :

وكأن شاهره اذا استضوى به الز   حفان يعصى بالسماك الاعزل
حملت حمائله القديمة بَقْلة   من عهد عاد غضة لم تذبل

البيت الاول منهما فيه ضرب من التكلف ، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم ، وانما[1] يقول : « قمر يشد على الرجال بكوكب » فجعل ذلك الكوكب السماك ، واحتاج الى أن يجعله أعزل للقافية ولو لم يحتج الى ذلك كان خيراله ، لان هذه الصفة في هذا الموضع تنقضه من الموضع وموضع التكلف الذى ادعيناه الحشو الذي ذكره من قوله : « اذا استضوى به الزحفان » وكان يكفي أن يقول : كأن صاحبه يعصى بالسماك ، وهذا وان كان قد تعمل فيه للفظ فهو لغو على ما بينا ، وأما البيت الثاني ففيه لغو من جهة قوله : « حمائله قديمة » ولا فضيلة له في ذلك ، ثم تشبيه السيف بالبقلة من تشبيهات العامة والكلام الرذل النذل ، لأن العامة قد يتفق منها تشبيه واقع حسن . ثم انظر الى هذا المقطع الذي هو بالعي أشبه منه بالفصاحة ، والى اللكنة أقرب منه الى البراعة ، وقد بينا أن مراعاة الفواتح والخواتم والمطالع والمقاطع والفصل والوصل بعد صحة الكلام ووجود الفصاحة فيه مما لا بد منه ، وان الاخلال بذلك يخل بالنظم ، ويذهب رونقه ، ويحيل بهجته ، ويأخذ ماءه وبهاءه

وقد أطلت عليك فيما نقلت وتكلفت ما سطرت ، لان هذا القبيل قبيل

(١) كذا بالاصلين ، ولعل العبارة (وانما اراد ان يقول)

موضوع متعمل مصنوع ، وأصل الباب في الشعر على أن ينظر الى جملة القصة ثم يتعمل الالفاظ ، ولا ينظر بعد ذلك الى مواقعها ، ولا يتأمل مطارحها . وقد يقصد تارة الى تحقيق الاغراض ، وتصوير المعاني التي في النفوس ، ولكنه يلحق بأصل بابه ، ويميل بك الى موضعه ، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها التفاضل . وان أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا في ذلك بما يقع اليك ـ ان كنت من أهل الصنعة ـ مما يطول عليّ نقله وكذلك في السيف . وذكر لي بعض أهل الادب أن أحسن قطعة في السيف قول أبي الهول الحميري :

حاز صَمْصامةَ الزّبيديِّ من بيـــن جميع الأنام موسى الأمينُ
سيف عمرو وكان ـ فيما سمعنا ـ خير ما أطبقت عليه الجفون
أخضر اللون بين برديه حد من ذُعافٍ تميس فيه المنون
اوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت له الذعاف القيون
فاذا ما شهرته بهر الشمـ ـس ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الابصـار كالقبس المشـعل لا تستقيم فيـه العيون
وكأن الفرند والرونق الجا ري في صفحتيه ماء معين
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيـ ـجاء يعصى به ونعم القرين
ما يبالي اذا انتحاه بضرب اشمـال سطت به أم يمين

وانما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته ومن أهـل عصره ومن هو في مضماره أو في منزلته . ومعرفة أجناس الكلام والوقوف على اسراره والوقوع على مقداره شيء وان كان عزيزاً وأمر وان كان بعيداً فهو سهل على أهله مستجيب لاصحابه مطيع لاربابه ينقدون الحروف ويعرفون الصروف وانما تبقى الشبهة في ترتيب الحال بين البحتري وأبي تمام وابن الرومي وغيره . ونحن

وان كنا نفضل البحتري بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقد قوله ، والشعر قبيل ملتمس مستدرك وأمر ممكن منطبع ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم أو يسمو اليه الفكر أو يطمع فيه طامع أو يطلبه طالب « لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد وكنت قد ذكرت لك قبل هذا أنك ان كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدما أمكنك الوقوف على ما ذكرنا والنفوذ فيما وصفنا والا فاجلس في مجلس المقلدين وارض بمواقف المتحيرين ونصحت لك حيث قلت انظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن الجوهر وبدائع الياقوت ودقاق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور. ومقدماتها وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها ولكل شيء طريق يتوصل اليه به وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه ، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك واغمض وأدق وألطف . وتصوير ما في النفس وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وان كان قد يقع بالاشارة ويحصل بالدلالة والامارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح فللاشارات أيضا مراتب وللسان منازل ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ، ورب وصف يربو عليه ويتعداه ، ورب وصف يقصر عنه . ثم اذا صدق الوصف انقسم الى صحة واتقان وحسن واحسان والى اجمال وشرح والى استيفاء وتقريب والى غير ذلك من الوجوه . وكل مذهب وطريق له باب وسبيل : فوصف الجملة الواقعة كقوله تعالى (١٨ : ١٨) « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا » والتفسير كقوله (١٨ : ٤٧) ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً » الى آخر الآيات في هذا المعنى وكنحو قوله (٢٢ : ١ ـ ٢) «يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء

عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمـا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ولـكن عذاب الله شديد » هذا ممـا يصور الشيء على جهته ويمثل أهوال ذلك اليوم . ومما يصور لك الـكلام الواقع في الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا ٢٦ : ٥٠ ـ ٥١ «قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » وقال في موضع آخر (٧ : ١٢٥-١٢٦) « انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » وهذا ينبيء عن كلام الحزين لما ناله ، الجازع لما مسه ومن باب التسخير والتكوين قوله تعالى(٣٦ : ٨٢) « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وقوله ٢ : ٦٥ « فقلنـا لهم كونوا قردة خاسئين » وكقوله (٢٦ : ٦٣) « فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرق كالطود العظيم » . وتقصّي أقسـام ذلك مما يطول ، ولم اقصد استيفاء ذلك وانما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل واشرت اليك بما اشرت لتتأمل

وانما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحتري لان الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من في عصره ، ومنهم من يدعى له الاعجاز غلواً ، ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا . والملحدة تستظهر بشعره ، وتتكثر بقوله وتدعي كلامه من شبهاتهم ، وعباراته مضافا الى ماعندهم من ترهاتهم ، فبينا قدر درجته وموضع رتبته وحد كلامه ، وهيهات أن يكون المطموع فيـه كالمأيوس منه ، وان يكون الليل كالنهار ، والباطل كالحق ، وكلام رب العالمين كـكلام البشر

فان قال قائل : فقد قدح الملحد في نظم القرآن ، وادَّعى عليه الخلل في البيان ، وأضاف اليه الخطأ في المعنى واللفظ وقال ما قال ، فهل من فصل ؟

قبيل الكلام على مطاعن الملحدة في القرآن مما قد سبقنا اليه، وصنف أهل الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وقع اليهم فشفوا، ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه فى كتابنا. وأما الغرض الذي صنفنا فيه في التفصيل والكشف عن اعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنياً ووافيا. وان سهل الله لنا مانويناه من املاء معاني القرآن ذكرنا في ذلك ما يشتبه من الجنس الذى ذكروه، لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه، فانما يقع على جهل القوم بالمعانى أو بطريقة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قال النبي ﷺ: « فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ». وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ومهدنا الطريق، فمن كمل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك مابينا، ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والاخطل، والحكم بين فضل زهير والنابغة، أو الفصل بين البحتري وأصحابه، ولم يعرف سخف مسيلمة في نظمه ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه كشعر أبي العيس في جملة الشعر وشعر على بن صلاة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على مابينا

فان قال قائل فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الاشعر والأبلغ، قيل له هذا أيضا خارج عن غرض هذا الكتاب، وقد تكلم فيه الادباء. ويحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب ويفرد له باب، وليس من قبيل مانحن فيه بسبيل. وليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمده في الفصاحة والنظم العجيب ولا يبلغ عندكم حد المعجز، فلم قضيتم بما قضيتم به في القرآن دون غيره من الكلام، وانما لم يصح هذا السؤال وما نذكر فيه من أشعار في نهاية الحسن وخطب ورسائل في غاية الفضل لانا قد بينا أن هذه الاجناس قد وقع

النزاع فيها ، والمساماة عليها ، والتنافس في طرقها ، والتنافر في بابها ؛ وكان البون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريباً والتفاوت خفيفاً وذلك القدر من السبق ان ذهب عن الواحد لم ييأس منه الباقون ، ولم ينقطع الطمع في مثله وليس كذلك سمت القرآن لانه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته ، وان الكل في العجز عنه على حد واحد.

وكذلك قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه ، والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريبا ، ومنهاجه معيبا ونطاق قوله ضيقا حتى يستعين بكلام غيره ويفزع الى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ومثل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة . وأما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظ يسيرة ، فاذا أحوج الى تطويل الكلام خاليا عن شيء يستعين به ـ فيخلط بقوله من قول غيره ـ كان كلاما ككلام غيره . فان أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في نظم القرآن وفي الرد على النصارى وفي خبر الواحد وغير ذلك مما يجري هذا المجرى هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع او كلام مليح . على أن متأخري الكتاب قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم من أبرّ عليه اذ باراه هذا أبو الفضل ابن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه فلم يقصر عنه ولعله قد بان تقدمه عليه لانه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ويكملها على شروط صنعته ولا يقتصر على أن يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقا ، واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا . وهذا يدلك على أن الشيء اذا استحسن اتبع ، واذا استملح قصد له وتعمد . وهذا الشيء يرجع الى الاخذ بالفضل والتنافس في التقدم . فلو كان في مقدور

البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده لكثرت المعارضات ، ودامت المنافسات فكيف وهناك دواع لا انتهاء لها ، وجوالب لا حد لكثرتها، لانهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا الى تكذيبه ، ثم الى قطع المحامين دونه عنه ، أو تنفيرهم عليه وادخال الشبهات على قلوبهم ، وكان القوم يكتفون بذلك عن بذل النفوس ، ونصب الارواح والاخطار بالأموال والذراري في وجه عداوته ويستغنون بكلام هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم عن محاربته وطول منافسته ومجاذبته . وهذا الذي عرضناه على قلبك يكفى ان هديت لرشدك ، ويشفي ان دللت على قصدك ، ونسأل الله حسن التوفيق والعصمة والتسديد ، انه لا معرفة الا بهدايته ، ولا عصمة الا بكفايته ، وهو على ما يشاء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

فصل

فان قال قائل قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن وان كان من بعدهم من أهل الاعصار لم يعجزوا . قيل هذا سؤال معروف وقد أجيب عنه بوجوه منها ما هو صواب ومنها ما فيه خلل لان من كان يجيب عنه بأنهم لا يقدرون على معارضته في الاخبار عن الغيوب ان قدروا على مثل نظمه فقد سلم المسألة ، لانا ذكرنا أن نظمه معجز لا يقدر عليه فاذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده . والوجه أن يقال فيه طرق : منها انا اذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الاتيان بمثله فمن بعدهم أعجز ، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم فاما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا . ومنها انا قد علمنا عجز سائر أهل الاعصار

كملمنا بعجز أهل العصر الاول و الطريق فى العلم بكل واحد من الامرين طريق واحد لان التحدي في الكل على جهة واحدة ، والتنافر في الطباع على حد ، والتكلف على منهاج لا يختلف ، ولذلك قال الله تبارك وتعالى (١٧ : ٨٨) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »

فصل

﴿ في التحدّي ﴾

يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات اذا ظهرت على الانبياء أن يدعوا فيها انها من دلالتهم وآياتهم لانه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية لان النبي لا يتميز من الكاذب بصورته ولا بقول نفسه ولا بشيء آخر سوى البرهان الذى يظهر عليه فيستدل به على صدقه ، فاذا ذكر لهم ان هذه آيتى وكانوا عاجزين عنها صح له ما ادعاه ، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له ، وليس يكون ذلك معجزاً الا بأن يتحداهم الى أن يأتوا بمثله فاذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزا

وانما احتيج في باب القرآن الى التحدي لان من الناس من لا يعرف كونه معجزاً فانما يعرف أولا اعجازه بطريقة ، لان الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته وانما يحتاج الى علم وطريق يتوصل به الى معرفة كونه معجزا فان كان لا يعرف بعضهم اعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل به ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدى اليه والتقريع به والتمكين منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصى ثعبانا تتلقف ما يأفكون . وأما من كان من أهل صنعة العربية والتقدم فى البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق فانه يعرف حين يسمعه عجزه عن الاتيان

بمثله ويعرف أيضا أهل عصره ممن هو في طبقته أو يدانيه في صناعته عجزهم عنه فلا يحتاج الى التحدى حتى يعلم به كونه معجزا ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم مابينا لا يعرفون كونه معجزاً حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه لم يجز أن يعرف النبي ﷺ أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدي اليه واذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي الى التحدي الى أقصاهم وحتى يعرف عجز مسيلمة الكذاب عنه ثم يعرف حينئذ كونه معجزاً . وهذا القول ان قيل أفحشُ ما يكون من الخطأ ، فيجب أن تكون منزلة أهل الصنعة في معرفة اعجاز القرآن بانفسهم منزلة من رأى اليد البيضاء وفلق البحر بأن ذلك معجز . وأما من لم يكن من أهل الصنعة فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة يعرف بها كونه معجزاً فيساوي حينئذ أهل الصنعة فيكون استدلالها في تلك الحالة به على صدق من ظهر ذلك عليه على سواه اذا ادعاه دلالة على نبوته وبرهانا على صدقه ، فاما من قدر أن القرآن لا يصير معجزاً إلا بالتحدي اليه فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات حتى يقع التحدى اليها والحض عليها ثم يقع العجز عنها فيعلم حينئذ انها معجزات وقد سلف من كلامنا في هذا المعنى مايغنى عن الاعادة . ويبين ماذكرناه في غير البليغ ان الاعجمي الآن لا يعرف اعجاز القرآن إلا بأمور زائدة على الاعجمي الذي كان فى ذلك الزمان مشاهداً له لان من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولا أن العرب عجزوا عنه وانما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة اليه أن النبي ﷺ قد تحدى العرب اليه فعجزوا عنه ويحتاج في النقل الى شروط وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزاً كذلك لا يصير معجزاً بان يعلم العربي الذي ليس ببليغ انهم قد عجزوا عنه بأبلغهم بل هو معجز في نفسه وانما طريق معرفة هذا وقوفهم على العلم بعجزهم عنه

فصل

﴿ في قدر المعجز من القرآن ﴾

الذي ذهب اليه عامة أصحابنا وهو قول أبي الحسن الاشعري في كتبه ان أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أوما كان بقدرها قال فاذا كانت الآية بقدر حروف السورة وان كانت سورة الكوثر فذلك معجز قال ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر وذهب المعتزلة الى أن كل سورة برأسها فهي معجزة . وقد حكي عنهم نحو قولنا الا ان منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل شرط الآيات الكثيرة وقد علمنا أنه تحداهم تحديا الى السور كلها ولم يخص. ولم يأتوا لشيء منها بمثل، فعلم أن جميع ذلك معجز وأما قوله عز وجل ٥٢ : ٣٤ « فليأتوا بحديث مثله » فليس بمخالف لهذا لأن الحديث التام لاتتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة وهذا يؤكد ما ذهب اليه أصحابنا ويؤيده وان كان قد يتأول قوله فليأتوا بحديث مثله على أن يكون راجعا الى القبيل دون التفصيل وكذلك يحمل قوله تعالى ١٧ : ٨٨ « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » على القبيل لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزهم عن الاتيان بجميعه من أوله الى آخره

فان قيل : هل تعرفون اعجاز السور القصار بما تعرفون به اعجاز السور الطوال ، وهل تعرفون اعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذي قدرتموه بمثل ماتعرفون به اعجاز سورة البقرة ونحوها. فالجواب ان أبا الحسن الاشعري رحمه الله أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز

العرب عنها . وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول ان ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفا. والطريقة الاولى أسدّ وليس هذا الذي ذكرناه أخيرا بمناف له لأنه لا يمتنع ان يعلم اعجازه بطرق مختلفة تتوافى عليه وتجتمع فيه

واعلم ان تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة لأن الطريقة الأولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزاً موجود في كل سورة صغرت أو كبرت فيجب أن يكون الحكم في الكل واحداً . والطريقة الاخيرة تتضمن تعذر معرفة اعجاز القرآن بالطريقة التي سلكناها في بناء من التفصيل الذي بينا فيما تعرف به في الكلام الفصاحة وتتبين فيه البلاغة حتى يعلم ذلك بوجه آخر فيستوي فى هذا القدر البليغ وغيره في أن لا يعلمه معجزا حتى يستدل به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء من التقدم في الصنعة وهذا غير ممتنع ألا ترى أن الاعجاز في بعض السور والآيات أظهر وفي بعضها اغمض ، وقد لا يحتاج في النظر في حال بعضها الى تأمل كثير ولا بحث شديد حتى يتبين له الاعجاز ويفتقر في بعضها الى نظر دقيق وبحث لطيف حتى يقع على الجلية ويصل الى المطلب ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه فى بعض السور فيحتاج أن يفزع فيه الى اجماع أو توقيف أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه فان ادعى ملحد أو زعم زنديق أنه لا يقع العجز عن الاتيان بمثل السور القصار أو الآيات بهذا المقدار قلنا له ان الاعجاز قد حصل بما بيناه وعرف بما وقفنا عليه من عجز العرب عنه ثم فيه شيء آخر وهو ان هذا سؤال لا يستقيم للملحد لانه يزعم أنه ليس في القرآن كله اعجاز فكيف يجوز ان يناظره على تفصيله واذا ثبت لنا معه اعجازه في السور الطوال قامت الحجة عليه وثبتت المعجزة ، ولا معنى لطلبه لكثرة الادلة والمعجزات. ونحن نعلم أن اعجاز البعض بما بيناه والبعض الآخر بانه

اذا ثبت الاصل لم يبق بعد ذلك الا قولنا ، لأنا عرفنا في البعض الاعجاز بما بينا ثم عرفنا في الباقي بالتوقيف ونحو ذلك وليس بممتنع اختلاف حال الكلام حتى يكون الاعجاز على بعضه أظهر وفي بعضه أغمض ومن آمن ببعض دون بعض كان مذموما على ما قال الله تعالى ٢ : ٨٥ « افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » وقال ١٧ : ٨٢ « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » فظاهره عند بعض أهل التأويل كالدليل على أن الشفاء ببعضه أوقع وان كنا نقول انه يدل على أن الشفاء في جميعه

واعلم أن الكلام يقع فيه الابلغ والبليغ ، ولذلك كانوا يسمون الكلمة « يتيمة » ويسمون البيت الواحد « يتيما » ، سمعت اسماعيل بن عبادة يقول سمعت أبا بكر بن مقسم يقول سمعت ثعلبا يقول سمعت الفراء يقول : العرب تسمي البيت الواحد يتيما ، وكذلك يقال الدرة اليتيمة لانفرادها فاذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نتفة والى العشرة تسمى قطعة واذا بلغ العشرين استحق ان يسمى قصيداً وذلك مأخوذ من المخ القصيد وهو المتراكم بعضه على بعض وهو ضد الرار ومثله الرثيد . انتهت الحكاية ثم استشهد بقول لبيد :

فتذكرا ثقلا رثيداً بعد ما ألقت ذُكاء يمينها في كافر

يريد بيض النعام لأنه ينضد بعضه على بعض . وكذلك يقع في الكلام البيت الوحشي والنادر والمثل السائر والمعنى الغريب والشيء الذي لو اجتهد له لم يقع عليه فيتفق له ويصادفه قال لي بعض علماء هذه الصنعة وجاريته في ذلك : ان هذا مما لا سبب له يخصه وانما سببه القرارة في أصل الصنعة والتقدم في عيون المعرفة ، فاذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب وما يشذ عن تفصيل الحساب ، فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السورة معجز فان ذلك صحيح

فصل

﴿في أنه هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة﴾

ذهب ابو الحسن الاشعري الى أن ظهور ذلك على النبي ﷺ يعلم ضرورة وكونه معجزا يعلم باستدلال وهذا المذهب محكى عن المخالفين . والذي نقوله في هذا أن الاعجمي لا يمكنه ان يعلم اعجازه الا استدلالا وكذلك من لم يكن بليغا . فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فانه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الاتيان بمثله ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه ، كما انه اذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك فهو يعلم عجز غيره استدلالا

فصل

﴿فيما يتعلق به الاعجاز﴾

ان قال قائل بينوا لنا ما الذي وقع التحدي اليه ، أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك . قيل الذي تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن ، منظومة كنظمها ، متتابعة كتتابعها ، مطردة كاطرادها ولم يتحدهم الى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له ، وان كان كذلك فالتحدي واقع الى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها ، وهي حكاية لكلامه ودلالات عليه وأمارات له ، على أن يكونوا مستأنفين لذلك لا حاكين بما أتى به النبي ﷺ . ولا

يجب أن يقدّر مقدر أو يظن ظان أنا حين قلنا ان القرءان معجز فانه تحداهم الى أن يأتوا بمثله أردنا غير ما فسرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات . وقد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزاً لكونه عبارة عن الكلام القديم ، لان التوراة والانجيل عبارة عن الكلام القديم . وليس ذلك بمعجز في النظم والتأليف ، وكذلك مادون الآية ـ كاللفظة ـ عبارة عن كلامه وليست بمفردها بمعجزة ، وقد جوز بعض أصحابنا أن يتحداهم الى مثل كلامه القديم القائم بنفسه ، والذي عول عليه مشايخنا ماقدمنا ذكره ، وعلى ذلك اكثر مذاهب الناس ، ولم يجب أن نفسر ونذكر موجب هذا المذهب الذي حكيناه وما يتصل به لانه خارج عن غرض كتابنا لان الاعجاز وقع في نظم الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلامه ، والى مثل هذا النظم وقع التحدي ، فبينا وجه ذلك وكيفية مايتصور القول فيه ، وأزلنا توهم من يتوهم أن الكلام القديم حروف منظومة أو حروف غير منظومة ، أو شيء مؤلف أوغير ذلك مما يصح أن يتوهم على ماسبق من اطلاق القول فيا مضى

فصل

﴿ في وصف وجوه من البلاغة ﴾

ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان . فاما الايجاز فانما يحسن مع ترك الاخلال باللفظ والمعنى ، فيأتي باللفظ القليل الشامل لامور كثيرة ، وذلك ينقسم الى حذف وقصر فالحذف الاسقاط للتخفيف كقوله (١٢ : ٨٢)

« وأسأل القرية » وقوله (٤٧ : ٢١) : « طاعة وقول معروف » وحذف الجواب كقوله (١٣ : ٣١) : « ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى » كأنه قيل لكان هذا القرآن . والحذف أبلغ من الذكر لان النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب . والايجاز بالقصد كقوله (٢ : ١٧٩) : « ولكم في القصاص حياة » وقوله (٦٣ : ٤) : « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » وقوله (١٠ : ٢٣) : « انما بغيكم على أنفسكم » (٣٥ : ٤٣) « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » . واطناب فيه بلاغة ، فأما التطويل ففيه عيّ . واما التشبيه بالعقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل كقوله : (٢٤ : ٣٩) « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » وقوله (١٤ : ١٨) : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » وقوله (٧ : ١٧١) : « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » وقوله : (١٠ : ٢٤) « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالامس » وقوله (٥٤ : ١٩ و ٢٠) : « انا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » وقوله (٥٥ : ٣٧) : « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله : (٥٧ : ٢٠) « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما » وقوله (٥٧ : ٢١) : « وجنة عرضها كعرض السماء والارض » وقوله (٦٢ : ٥) : « مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل

أسفارا » وقوله تعالى : (٧ : ١٧٦) « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث » وقوله (٦٩ : ٧) : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » وقوله : (٢٩: ٤١) : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت » وقوله (٥٥ : ٢٤) : « وله الجوار المنشآتُ في البحر كالاعلام » وقوله (٥٥ : ١٤ : « خلق الانسان من صلصال كالفخار » ونحو ذلك

ومن ذلك باب الاستعارة وهو بيان التشبيه كقوله تعالى (٢٥ : ٢٣) « وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » وكقوله : (١٥ : ٩٤) « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وكقوله :(٦٩ : ١١) « انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية » وقوله : (٧ : ١٥٤)« ولما سكت عن موسى الغضبُ » وكقوله (١٧ : ١٢) « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » وقوله (٢١ : ١٨) : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » فالدمغ والقذف مستعار . وقوله : (٣٦ : ٣٧) « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » . وقوله (٨ : ٧) « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » وقوله (٤١ : ٥١) « فذو دعاء عريض » وقوله (٤٧ : ٤)« حتى تضع الحرب أوزارها » وقوله (٨١ : ١٨) « والصبح اذا تنفس » وقوله (٢ : ٢١٤) « مستهم البأساء والضراء » وقوله (٣ : ١٨٧) « فنبذوه وراء ظهورهم » وقوله (١٠ : ٢٤) « أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيدا » وقوله (٢١ : ١٥) « حصيدا خامدين » وقوله (٢٦ : ٢٢٥) :« ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » وقوله (٣٣ : ٤٦) « وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وقوله (١٧ : ٢٩) « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » وقوله (٣٢ : ٢١) « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » وقوله (١٨ : ١١)

« فضربنا على آذانهم » يريد ان لا إحساس بآذانهم من غير صمم . وقوله (٧ : ١٤٩) : « ولما سُقط في أيديهم » وهذا أوقع من اللفظ الظاهر وأبلغ من الكلام الموضوع

واما التلاؤم فهو تعديل الحروف في التأليف . وهو نقيض التنافر ؛ كقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

قالوا هو من شعر الجن حروفه متنافرة لا يمكن انشاده الا بتتعتع فيه .

والتلاؤم على ضربين : أحدهما في الطبقة الوسطى كقوله :

رمتني وستر الله بيني وبينها عشيّة آرام الكناس رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ضمنتُ لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

قالوا والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله وان كان بعض الناس أحسن احساسا من بعض كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض . والتلاؤم حُسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ ووقع المعنى في القلب وذلك كالخط الحسن والبيان الشافي والمتنافر كالخط القبيح فاذا انضاف الى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الاعجاز لمن كان جيد الطبع وبصيرا بجودة الكلام كما يظهر له أعلى طبقة الشعر . والمتنافر ذهب الخليل الى أنه من بعد شديد أو قرب شديد ، فاذا بعد فهو كالطفر واذا قرب جداً كان بمنزلة مشي المقيد ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدها

واما الفواصل فهي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها افهام المعاني . وفيها بلاغة. والاسجاع عيب لأن السجع يتبع المعنى والفواصل تابعة للمعاني والسجع كقول مسيلمة. ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسة كما قد تقع على

حروف متقاربة ولا تحتمل القوافي ما تحتمل الفواصل لأنها ليست في الطبقة العليا في البلاغة لان الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافي وإقامة الوزن. وأما التجانس فانه بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد وهو على وجهين مزاوجة، ومناسبة، فالمزاوجة كقوله تعالى (٢ : ١٩٤) «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وقوله (٣:٥٤) «ومكروا ومكر الله» وكقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلنْ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

واما المناسبة فهي كقوله تعالى (٩:١٢٧) «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم» وقوله (٢٤:٣٧) «يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار»

وأما التصريف فهو تصريف الكلام في المعاني كتصريفه في الدلالات المختلفة كتصريف الملك في معاني الصفات فصرف في معنى مالك وملك وذي الملكوت والمليك وفي معنى التمليك والتملك والاملاك. وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة كما كرر من قصة موسى في مواضع

وأما التضمين فهو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه وذلك على وجهين تضمين توجبه البنية كقولنا معلوم يوجب أنه لابد من عالم وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح الا به كالصفة بضارب يدل على مضروب . والتضمين كله ايجاز، والتضمين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضا ايجاز . وذكر ان بسم الله الرحمن الرحيم من باب التضمين لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الامور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى أو التبرك باسمه وأما المبالغة فهي الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه : منها مبالغة في الصفة المبنية لذلك، كقولك رحمن عدل عن ذلك المبالغة، وكقوله غفار وكذلك فعال وفعول كقوله شكور وغفور، وفعيل كقوله رحيم وقدير، ومن

ذلك أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة كقوله (٣٩ : ٦٢) : « خالق كل شيء » وكقوله (١٦ : ٢٦) « فأتى الله بنيانهم من القواعد » وكقوله (٧ : ٤٠) « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط » وكقوله (٣٤ : ٢٤) « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » وقد يدخل فيه الحذف الذي تقدم ذكره للمبالغة

وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام : كلام ، وحال ، واشارة ، وعلامة . ويقع التفاضل في البيان ولذلك قال عز من قائل (٥٥ : ١ـ ٤) : « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » وقيل أعيا من باقل ، سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها فأراد أن يقول بأحد عشر فأشار بيديه مادّاً أصابعه العشرة ثم أدلع لسانه وأفلت الظبي من يده

ثم البيان على مراتب قلنا قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ اعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي ذكرنا أنها تسمى البديع في أول الكتاب مما مضت امثلته في الشعر ومن الناس من زعم أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التي عددناها في هذا الفصل . واعلم أن الذي بيناه قبل هذا وذهبنا اليه هو سديد وهو أن هذه الأمور تنقسم فمنها ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له ويدرك بالتعلم فما كان كذلك فلا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن به وأما مالا سبيل اليه بالتعلم والتعمل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على اعجازه ونحن نضرب لذلك أمثلة لتقف على ما ذهبنا اليه ، وذكرنا في هذا الفصل عن هذا القائل ان التشبيه تعرف به البلاغة وذلك مسلم ، ولكن ان قلنا ما وقع من التشبيه في القرآن معجز عرض علينا من التشبيهات الجارية في الاشعار مالا يخفى عليك ، وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر وقد تتبع في هذا مالم يتتبع غيره ، واتفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء . وكذلك كثير من

وجوه البلاغة قد بينا أن تعلمها يمكن وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره فان كان انما يعني هذا القائل انه اذا أتى في كل معنى يتفق في كلامه بالطبقة العالية ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض وينتهي منه الى متصرفاته على أتم البلاغة وأبدع البراعة ، فهذا مما لا نأباه بل نقول به وانما ننكر أن يقول قائل ان بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الاعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام ويفضي اليه مثل ما يقول ان ما أقسم به وحده بنفسه معجز وان التشبيه معجز وان التجنيس معجز والمطابقة بنفسها معجزة . فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه فان ادعى اعجازها لالفاظها ونظمها وتأليفها فاني لا أدفع ذلك وأصححه ولكن لا أدعي اعجازها لموضع التشبيه وصاحب المقالة التي حكيناها أضاف ذلك الى موضع التشبيه وما قرن به من الوجوه ، ومن وتلك الوجوه ما قد بينا أن الاعجاز يتعلق به كالبيان وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس ولذلك قال (٣ : ١٣٨) « هذا بيان للناس » وقال (١٦ : ٨٩) : « تبيانا لكل شيء » وقال (٢٦ : ١٩٥) « بلسان عربي مبين » فكرر في مواضع ذكره أنه مبين فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة . واذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج ويقلق ويؤنس ويطمع ويؤيس ويضحك ويبكي ويحزن ويفرح ، ويسكن ويزعج ، ويشجي ويطرب ، ويهز الاعطاف ، ويستميل نحوه الاسماع ، ويورث الاريحية والعزة وقد يبعث على بذل المهج والاموال شجاعة وجودا ، ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيدا ، وله مسالك في النفوس

لطيفة ، ومداخل الى القلوب دقيقة ، وبحسب ما يترتب في نظمه ، ويتنزل في موقعه ويجري على سمت مطلعه ومقطعه يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته ، وكذلك على حسب مصادره يتصور وجوه موارده . وقد ينبيء الكلام عن محل صاحبه ، ويدل على مكان متكلمه ، وينبه على عظيم شأن أهله ، وعلى علو محله . ألا ترى أن الشعر في الغزل اذا صدر عن محب كان أرق وأحسن ، واذا صدر عن متغزل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمداجاة ، وأخبر عن خبيئه في المراياة . وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع فيعلم وجه صدوره ويدل على كنهه وحقيقته . وقد يصدر عن المتشبه ويخرج عن المتصنع ، فيعرف من حاله ما ظن انه يخفيه ، ويظهر من أمره خلاف ما يبديه ، وأنت تجد لقول المتنبي :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والطعن والقرطاس والقلم

من الوقع في القلب — لما تعلم أنه من أهل الشجاعة — ما لا تجده للبحتري في قوله :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفي بعقرقس والمشرفية شهدي

وتجد لابن المعتز في موقع شعره من القلب في الفخر وغيره ما لا تجده لغيره ، لانه اذا قال :

اذا شئت أوقرت البلاد حوافراً وسارت ورائي هاشم ونزار
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار

وقال :

قد ترديت بالمكارم دهراً وكفتني نفسي من الافتخار
أنا جيش اذا غزوت وحيدا ووحيد في الجحفل الجرار

وقال :

أيها السائلي عن الحسب الاطـ يب ما فوقه لخلق مزيد
نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القربى فما ذا تريد
ولنا ما أضاء صبح عليه وأتته رايات ليل سود

وكما أنشدنا الحسن بن عبد الله قال : أنشدنا محمد بن يحيى لابن المعتز قصيدته التي يقول فيها :

أنا ابن الذي سادهم في الحيا ة وسادهم بي تحت الثرى
ومالي في أحد مرغب بلى فيّ يرغب كل الورى
وأصهر المجد والمكرما ت اذا كحلت أعين بالكرى

فانظر في القصيدة كلها ثم في جميع شعره تعلم أنه ملك الشعر ، وانه يليق به من الفخر خاصة ثم مما يتبعه مما يتعاطاه ما لا يليق بغيره بل ينفر عن سواه ؛ ولم أحب أن أكثر عليك فاطول الكتاب بما يخرج عن غرضه ، وكما ترى من قول أبي فراس الحمداني في نفسك اذا قال :

ولا أصبح الحي الخلوف بغارة ولا الجيش ما لم يأته قبلي النذر
ويا رب دار لم تخفني منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبة الاذيال نحوي لقيتها فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله وأبت ولم يكشف لابياتها ستر
وما راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبغي وفوره اذا لم أفر وفري فلا وفر الوفر

والشيء اذا صدر من أهله ، وبدا من أصله ، وانتسب الى ذويه سلم في نفسه ، وبانت فخامته وشواهد أثر الاستحقاق فيه . واذا صدر من متكلف وبدا من متصنع بان أثر الغرابة عليه ، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه ، وعرف

شمائل التعخير منه

إنا نعرف في شعر أبي نواس أثر الشطارة ، وتمكن البطالة ، وموقع كلامه في وصف ما هو بسبيله من أمر المغازلة ووصف الخمر والخمار كما نعرف موقع كلام ذي الرمة في وصف المهامه والبوادي والجمال والانساع والازمة وعيب أبي نواس التصرف في وصف الطلول والرباع والوحش فذكر في قوله :

دع الأطلال تسفيها الجنوب ... وتبلي عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا ... تخب بها النجيبة والنجيب
بلاد نبتها عشر وطلح ... وأكثر صيدها ضبع وذيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهواً ... ولا عيشا فعيشهم جديب
دع الالبان يشربها رجال ... رقيق العيش عندهم غريب
اذا راب الحليب فبل عليه ... ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول ... يطوف بكأسها ساق أديب
كأن هديرها في الدن يحكي ... قراة القس قابله الصليب
أعاذل أقصري عن طول لومي ... فراجي توبتي عندي يخيب
تعيبين الذنوب ، وأي حر ... من الفتيان ليس له ذنوب

وقوله :

صفة الطلول بلاغة الفدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وسمعت الصاحب اسماعيل ابن عباد يقول : سمعت بر لكويه الزنجاني يقول : أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيدة على وزن قصيدة الاعشى :

ودع هريرة ان الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وكان وصف فيها الطلل قال بو لكويه : فقال لي هلال قلت بديها :

اذا سمعت فتى يبكي على طلل ... من أهل زنجان فاعلم انه طلل

وانما ذكرت لك هذه الامور لتعلم أن الشيء في معدنه أعز، وفي مظانه أحسن، والى أصله أنزع، وبأسبابه أليق، وهو يدل على ما صدر منه، ويشبه ما انتج عنه، ويكون قراره على موجب صورته، وأنواره على حسب محله، ولكل شيء حد ومذهب، ولكل كلام سبيل ومنهج. وقد ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلام مسيلمة ما أخبرتك به، فقال: ان هذا كلام لم يخرج من إله فدل على أن الكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الالهية يتميز عما لم يكن كذلك. ثم رجع الكلام بنا الى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان ولو لم يكن فيه إلا ما منّ به الله على خلقه بقوله: (٥٥: ٣ و ٤) «خلق الانسان علمه البيان». فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان واهداه، وأكمله وأعلاه، وأبلغه وأسناه تأمل قوله تعالى (٤٣: ٥) «افنضرب عنكم الذكر صفحاً ان كنتم قوماً مسرفين» في شدة التنبيه على تركهم الحق والاعراض عنه وموضع امتنانه بالذكر والتحذير. وقوله (٤٣: ٣٩) «ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون» وهذا بليغ في التحسير. وقوله (٦: ٢٨) «ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه» وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر معودين لمخالفة النهي والأمر. وقوله (٤٣: ٦٧): «الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ الا المتقين» هو في نهاية الوضع من الخلة الا على التقوى. وقوله (٣٩: ٥٦) «أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله» وهذا نهاية في التحذير من التفريط. وقوله: (٤١: ٤٠) «أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير» هو النهاية في الوعيد والتهديد. وقوله (٤٢: ٤٤ ـ ٤٥): «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مردّ من سبيل، وتراهم يُعرَضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرْف خفي» نهاية في الوعيد. وقوله (٤٣: ٧١):

« وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون » نهاية في الترغيب . وقوله (٢٣ : ٩١) : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » وكذلك قوله (٢١ : ٢٢) : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » نهاية في الحجاج . وقوله (٦٧ : ١٣ ، ١٤) « وأسِرّوا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات . ولا وجه للتطويل فان بيان الجميع في الرفعة وكبر المنزلة على سواء . وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الاعجاز وهو معجز من القرآن وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ فليس ذلك بطريق الاعجاز لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره وليس ذلك بمعجز ، بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه من اللفظ يثمر الاعجاز . وتضمين المعاني أيضا قد يتعلق به الاعجاز اذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها . وأما الفواصل فقد بينا انه يصح أن يتعلق بها الاعجاز ، وكذلك قد بينا في المقاطع والمطالع نحو هذا وبينا في تلاؤم الكلام ما سبق من صحة تعلق الاعجاز به . والتصرف في الاستعارة البديعة يصح أن يتعلق به الاعجاز كما يصح مثل ذلك في حقائق الكلام ، لأن البلاغة في كل واحد من البابين تجري مجرى واحداً وتأخذ مأخذاً مفردا

وأما الايجاز والبسط فيصح أن يتعلق بهما اعجاز كما يتعلق بالحقائق . والاستعارة والبيان في كل واحد منهما مالا يضبط حده ولا يقدر قدره ، ولا يمكن التوصل الى ساحل بحره بالتعلم ، ولا يتطرق الى غوره بالتسبب ، وكل ما يمكن تعلمه ويتهيأ تلقنه ويمكن تخليصه ويستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الاعجاز به ولذلك قلنا أن السجع مما ليس يلتمس فيه الاعجاز لأن ذلك أمر محدود وسبيل مورود ، ومتى تدرب الانسان به واعتاده لم يستصعب عليه

أن يجعل جميع كلامه منه . وكذلك التجنيس والتطبيق متى أخذا حدهما وطلب وجوههما استوفى ماشاء ولم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه ، كما أولع بذلك أبو تمام والبحتري ، وان كان البحتري أشغف بالمطابق وأقل طلبا للمجانس

فان قال قائل هلا قلت ان هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية لا يوصل اليها بالتعلم ولا تملك بالتعمل كما ذكرتم في البيان وغير ذلك ، قلنا لو عمد الى كتاب الاجناس ونظر في كتاب العين لم يتعذر عليه التجنيس الكثير ، فاما الاطباق فهو أقرب منه وليس كذلك البيان والوجوه التي رأينا الاعجاز فيها لأنها لا تستوفي بالتعلم

فان قيل : فالبيان قد يتعلم . قيل ان الذي يمكن أن يتوصل اليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس وتتناهى فيه العادات وهو كما يعلم من مقادير القوى في حمل الثقيل وان الناس يتقاربون في ذلك فيرمون فيه الى حد فاذا تجاوزوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطي ولم يقدروا على التعدي الا أن يحصل ما يخرق العادة وينقض العرف وان يكون ذلك الا للدلالة على النبوات على شروط في ذلك القدر الذي يفوت الحد في البيان ويتجاوز الوهم ويشذ عن الصنعة ويقذفه الطبع في النادر القليل كالبيت البديع والقطعة الشريفة التي تتفق في ديوان شاعر ، والفقرة تتفق في لسان كاتب حتى يكون للشاعر ابن بيت أوبيتين أو قطعة أو قطعتين ، والاديب شهوته كلمة أو كلمتين وذلك أمر قليل ولو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك ويستمر على ذلك المنهج امكن ان يدعى فيه الاعجاز ولكنك ان كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الأبيات الشوارد والكلمات الفرائد وأمهات القلائد فان أردت ان تجد قصيده كلها وحشية وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية لم تجد ذلك في الدواوين ولم تظفر بذلك الى يوم الدين . ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ولفظة بديعة وانما انكرنا أن يقدروا على

مثل نظم سورة أو نحوها وأمانا أن يتمكنوا من حد في البلاغة ومقدار في الخطابة؛ وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق في القرآن وان لم يكن له حكم الشعر. فأما قدر المعجز فقد بينا انها السورة طالت أو قصرت وبعد ذلك خلاف: من الناس من قال مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز، وعندنا كل واحد من الأمرين معجز، والدلالة عليه ما تقدم، والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك فلذلك لم نحكم باعجازه وما صح أن تتبين فيه البلاغة ومحصولها الابانة في الابلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى وأجزل لفظ وبلوغ الغاية في المقصود بالكلام فاذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا وبليغا، فاذا تجاوز حد البلاغة الى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة، وانتهى الى أمر يعجز عنه الكامل في البراعة صح أن يكون له حكم المعجزات، وجاز أن يقع موقع الدلالات. وقد ذكرنا أنه بجنسه وأسلوبه مباين لسائر كلامهم ثم بما يتضمن من تجاوزه في البلاغة الحد الذى يقدر عليه البشر

فان قيل: فاذا كان يجوز عندكم أن يتفق في شعر الشاعر قطعة عجيبة شاردة تباين جميع ديوانه في البلاغة ويقع في ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه ولا يعرف سبب ذلك البيت ولا تلك القطعة في التفصيل، ولو أراد أن يأتي بمثل ذلك ويجعل جميع كلامه من ذلك النمط لم يجد الى ذلك سبيلا وله سبب في الجملة وهو التقدم فى الصنعة، لانه يتفق من المتأخر فيها؛ فهلا قلتم انه اذا بلغ فى العلم بالصناعة مبالغة قصوى كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وتلك القطعة، وهلا قلتم ان القرآن من هذا الباب؟ فالجواب انا لم نجد أحدا بلغ الحد الذي وصفتم في العادة وهذا الناس وأهل البلاغة أشعارهم عندنا محفوظة، وخطبهم منقولة، ورسائلهم مأثورة، وبلاغاتهم مروية، وحكمهم مشهورة. وكذلك أهل الكهانة والبلاغة مثل قس بن ساعدة وسحبان وائل،

ومثل شق وسطيح وغيرهم ، كلامهم معروف عندنا وموضوع بين أيدينا لايخفى علينا في الجملة بلاغة بليغ ، ولاخطابة خطيب ، ولا براعة شاعر مفلق ، ولا كتابة كاتب مدقق . فلما لم نجد في شيء من ذلك ما يداني القرآن في البلاغة أو يشاكله في الاعجاز مع ما وقع من التحدي اليه المدة الطويلة ، وتقدم من التقريع والمجازاة الامد المديد ، وثبت له وحده خاصة قصب السبق والاستيلاء على الامر ، وعجز الكل عنه ووقفوا دونه حيارى يعرفون عجزهم وان جهل قوم سببه ، ويعلمون نقصهم وان أغفل قوم وجهه ، رأينا أنه ناقض العادة ورأينا أنه خارق المعروف في الحيلة وخرق العادة انما يقع بالمعجزات على وجه اقامة البرهان على النبوات وعلى أن من ظهرت عليه ووقعت موقع الهداية اليه صادق فيما يدعيه من نبوته ومحق في قوله ومصيب في هديه ، قد سادت له الحجة البالغة والكلمة التامة والبرهان النير والدليل البين

فصل

﴿ في حقيقة المعجز ﴾

معنى قولنا ان القرآن معجز على أصولنا انه لا يقدر العباد عليه وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي ﷺ لا يصح دخوله تحت قدرة العباد وانما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه كما يستحيل عجزهم عن فعل الاجسام . فنحن لا نقدر على ذلك وان لم يصح وصفنا بانا عاجزون عن ذلك حقيقة ، وكذلك معجزات سائر الانبياء على هذا . فلما لم يقدر عليه أحد شبه بما يعجز عنه العاجز ، وانما لا يقدر العباد على الاتيان بمثله لانه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجزة وقد أجرى العادة

أن يتعذر فعل ذلك منهوان لا يقدروا عليه ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله وعرضوا عليه من كلام فصحائهم و بلغائهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظامهم و زالت أطماعهم عنه . وقد كنا بينا أن التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر ووجوه النظم المستحسنة فى الاوزان المطربة للسمع ولا يحتاج في مثله الى توقيف وانه يتبين أن مثل ذلك يجري في الخطاب ، فلما جرى فيه فطنوا له واختاروه وطلبوا أنواع الاوزان والقوافي ثم وقفوا على حسن ذلك وقدروا عليه بتوفيق الله عز وجل وهو الذي جمع خواطرهم عليه وهداهم له وهيأ دواعيهم اليه ، ولكنه أقدرهم على حد محدود وغاية في العرف مضروبة ، لعلمه بان سيجعل القرآن معجزاً ، ودل على عظم شأنه بأنهم قدروا على ما بينا من التأليف وعلى ما وصفنا من النظم من غير توقيف ولا اقتضاء أثر ولا تحدٍّ اليه ولا تقريع ، فلو كان هذا من ذلك القبيل أو من الجنس الذي عرفوه وألفوه لم تزل أطماعهم عنه ، ولم يدهشوا عند وروده عليهم فكيف وقد أمهلهم وفسح لهم في الوقت و كان يدعو اليه سنين كثيرة و قال عز من قائل (٣٥: ٣٧) : « أو لم نعمر كم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدي بان أنه خارج عن عاداتهم وأنهم لا يقدرون عليه . وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لان ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ، وهذا في البلغاء منهم دون المتأخرين في الصنعة والذي ذكرناه يدلك على أنه لا كلام أزيد في قدر البلاغة من القرآن وكل من جوّز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله في البلاغة لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال ولو لم يكن جرى في العلوم أنه سيجعل القرآن معجزاً لكان يجوز أن تجري عادات الاولين وأخبار المرسلين وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الاخبار عن الغيوب وعن الحوادث التي أنبأ أنها تقع في الآتي فلا

يخرج من أن يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة تقدح في معجزته أو تعارضه في طريقه ، و كذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك في وجه دلالته واعجازه وهذا أشبه بسياق الكلام ونظامه . ثم قال (٤١ : ٤٤): « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي » فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده إما بان ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الاعجاز فيه لانه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الامور وانه اذا تحداهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم به على ما نبينه في وجه هذا الفصل . الى أن قال (٤١ : ٥٢) « قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد » والذي ذكرنا من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور فكرهنا سرد القول فيها فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك . ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل (٢٩ : ٥٠ و٥١) « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فاخبر أن الكتاب آية من آياته ، وعلم من أعلامه ، وان ذلك يكفي في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الانبياء صلوات الله عليهم . ويدل عليه قوله عز وجل (٢٥ : ١) : « تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » وقوله (٤٢ : ٢٤) : « أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » فدل على انه جعل قلبه مستودعا لوحيه ومستنزلا لكتابه ، وانه لو شاء صرف ذلك الى غيره وكان له حكم دلالته على تحقيق الحق وابطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباه كثيرة تدل نحو الدلالة التي وصفناها ، فبان بهذا وبنظائر ماقلنا أن بناء نبوّته

صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته ، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى. وفارقَ حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الانبياء لانها لا تدل على أنفسها الا بأمر زائد عليها ووصف منضاف اليها ، لان نظمها ليس معجزاً وان كان ماتتضمنه من الاخبار عن الغائبات والغيوب معجزا . وليس كذلك القرا ن لانه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه . وحل في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه ، لان موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله وان اختلف الحال في ذلك عند البشر بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة وأمر يفوق ماعرفوه من الفصاحة

وأما نظم القرآن فقد قال أصحابنا ان الله تعالى يقدر على نظم القرآن في الرتبة التي لا مزيد عليها ، وقال مخالفونا إن هذا غير ممتنع لان فيه من الكلمات الشريفة الجامعة المعاني البديعة وانضاف الى ذلك حسن الموقع فيجب أن يكون قد بلغ النهاية ، لانه عندهم وان زاد على ما في العادة فان الزائد عليها وان تفاوت فلا بد من أن ينتهي الى حد لامزيد عليه . والذي نقول انه لا يمتنع أن يقال انه يقدر الله تعالى على أن يأتي بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله ، وأما قدرة العباد فهي متناهية في كل ما يقدرون عليه مما تصح قدرتهم عليه

فصل

﴿ في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأمور تتصل بالاعجاز ﴾

ان قال قائل اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب - وقد قال هذا في حديث مشهور وهو صادق في قوله - فهلا قلتم ان القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على

مقدار لا يبلغه غيره؟ قيل قد علمنا انه لم يتحدَّهم الى مثل قوله وفصاحته، والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرَين وكلام الخطيبين في الفصاحة وذلك مما لا يقع به الاعجاز . وقد بينا قبل هذا انا اذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور وبين نظم القرآن تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس ، ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي ﷺ معجز وان كان دون القرآن في الاعجاز

فان قيل لولا ان كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن ، وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن أم لا ؟ ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط ، وقد يجوز أن يكون شذَّ عن مصحفه لا لأنه نفاه من القرآن بل عول على حفظ الكل اياه على أن الذي يروونه خبر واحد لا يسكن اليه في مثل هذا ولا يعمل عليه ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه كما يكتب الواحد منا بعض الادعية على ظهر مصحفه . وهذا نحو ما يذكره الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما ، ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة كما يغلط الحافظ في حروف وينسى . وما لا نجيزه على الحفاظ مما لم نجزه عليه ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك وكان يظهر وينتشر فقد تناظروا في أقل من هذا وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه وقد علمنا اجماعهم على ما جمعوه في المصحف فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولدة بالاجماع المتقرر والاتفاق المعروف ويجوز أن يكون الناقل أشتبه عليه لانه خالف في النظم والترتيب فلم يثبتهما في آخر القرآن والاختلاف بينهم في موضع الاثبات غير الكلام في الاصل ألا ترى أنهم قد اختلفوا في

أول ما نزل من القرآن فمنهم من قال قوله (٩٦ : ١) : « اقرأ باسم ربك » ومنهم من قال (٧٤ : ١) : « يا أيها المدثر » ومنهم من قال فاتحة الكتاب . واختلفوا أيضا في آخر ما أنزل فقال ابن عباس : (١١٠ : ١) « اذا جاء نصر الله » وقالت عائشة : سورة المائدة وقال البراء بن عازب : آخر ما أنزل سورة براءة ، وقال سعيد بن جبير آخر ما أنزل قوله تعالى (٢ : ٢٨١) : « واتقوا يوما تُرجَعون فيه الى الله » . وقال السدّي : آخر ما أنزل (٩ : ١٢٩) « فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت » ويجوز أن يكون في مثل هذا خلاف وأن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع . ولو كان القرآن من كلامه لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئها رجل واحد وكانوا يعارضونه لانا قد علمنا أن القدر الذي بين كلامهم وبين كلام النبي صلى الله عليه وسلم لايخرج الى حد الاعجاز ولا يتفاوت التفاوتَ الكثير ، ولا يخفي كلام من جنس أوزان كلامهم ، وليس كذلك نظم القرآن لانه خارج من جميع ذلك

فان قيـل لو كان على ما ادعيتم لعرفنا بالضرورة أنه معجز دون غيره ، قيل معرفة الفصل بين وزن الشعر ووزنه والفرق بينه وبين غيره من الاوزان يحتاج الى نظر وتأمل وفكر وروية واكتساب وان كان النظم المختلف الشديد التباين اذا وجد أدرك اختلافه بالحاسة الا ان كل وزن وقبيل اذا أردنا تمييزه من غيره احتجنا فيه الى الفكرة والتأمل . فان قيل لو كان معجزاً لم يختلف أهل الملة في وجه اعجازه . قيل قد يثبت الشيء دليلا وان اختلفوا في وجه دلالة البرهان كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق . فاما المخالفون فانه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآن كلام الله لان مذهبهم أنه لافرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل الله

عز وجل في كونه معجزا ، لانه ان خصه بقدر من العلم لم تجر العادة بمثله أمكنه أن يأتي بما له هذه الرتبة وكان متعذرا على غيره لفقد علمه بكيفية النظم . وليس القوم بعاجزين عن الكلام ولا عن النظم والتأليف . والمعنى المؤثر عندهم في تعذر مثل نظم القرآن علينا فقد العلم بكيفية النظم ، وقد بينا قبل هذا أن المانع هو انهم لا يقدرون عليه . والمفحم قد يعلم كيفية الاوزان واختلافها وكيفية التركيب وهو لا يقدر على نظم الشعر ، وقد يعلم الشاعر وجوه الفصاحة واذا قالا الشعر جاء شعر أحدهما فى الطبقة العالية وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة وقد ترد في شعر المبتدى والمتأخر في الحذق القطعة الشريفة والبيت النادر مما لا يتفق للشاعر المتقدم . والعلم بهذا الشأن في التفصيل لا يغني ، ويحتاج معه الى مادة من الطبع وتوفيق من الاصل . وقد يتساوى العالمان بكيفية الصناعة والنساجة ثم يتفق لاحدهما من اللطف في الصنعة ما لا يتفق في الآخر . وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم ، وكذلك أهل الرمى يتفاضلون فى الاصابة مع العلم بكيفية الاصابة . واذا وجدت للشاعر بيتاً أو قطعة أحسن من شعر امريء القيس لا يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه لانه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد ، وبحسب ذلك البيت في الشرف والحسن والبراعة ، ولايجوز أن يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها ، وان كان كذلك علم أن هذا لا يرجع الى قدرة من العلم ، ولسنا نقول : انه يستغني عن العلم فى النظم بل يكفي علم به فى الجملة ثم يقف الامر على القدرة . وهذا يبين لك بانه قد يعلم الخط فيكتب سطرا فلو أراد أن يأتي بمثله بحيث لا يغادر منه شيئاً لتعذر والعلم حاصل . وكذلك قد يحسن كيفية الخط ويميز الجيد منه من الرديء ولا يمكنه أن يأتى بأرفع درجات الجيد . وقد يعلم قوم كيفية ادارة الاقلام وكيفية تصوير الخط ثم يتفاوتون في التفصيل ويختلفون في التصوير وألزمهم أصحابنا أن يقولوا

بقدرتنا على احداث الاجسام وانما يتعذر وقوع ذلك منا لانا لا نعلم الاسباب التي اذا عرفنا ايقاعها على وجوه اتفق لنا فعل الاجسام . وقد ذهب بعض المخالفين الى ان العادة انتقضت بان أنزله جبريل فصار القرآن معجزا لنزوله على هذا الوجه ومن قبله لم يكن معجزا . وهذا قول أبي هاشم وهو ظاهر الخطأ لانه يلزم أن يكونوا قادرين على مثل القرآن وان لم يتعذر عليهم فعل مثله وانما تعذر بانزاله ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتفق من بعضهم مثله وان كانوا في الحقيقة غير قادرين قبل نزوله ولا بعده على مثله فهو قولنا

وأما قول كثير من المخالفين فهو على ما بينا لان معنى المعجز عندهم تعذر فعل مثله وكان ذلك متعذراً قبل نزوله وبعده فأما الكلام في أن التأليف هل له نهاية فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه فمنهم من قال ليس لذلك نهاية كالعدد فلا يمكن أن يقال انه لا يتأتى قول قصيدة الا وقد قيلت من قبل ، ومنهم من قال ان ما جرت به العادة فله نهاية وما لم تجر به العادة فلا يمكن أن نعلم نهاية الرتبة فيه ، وقد بينا أن على أصولنا قد تقدر لكلامنا حد في العادة ولا سبيل الى تجاوزه ولا يقدر فان القرآن خرق العادة فزاد عليها

فصل

ان قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه ؟ قيل لا بد من ذلك لانا لو لم نعلم أن النبي ﷺ هو الذي أتى بالقرآن وظهر ذلك من جهته لم يمكن أن يستدل به على نبوته . وعلى هذا لو تلقى رجل منه سورة فأتى بها بلدا وادعى ظهورها عليه وانها معجزة له لم تتم الحجة عليهم حتى يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه ، وقد حققنا أن القرآن أتى به النبي ﷺ وظهر من جهته وجعله علماً على نبوته وعلمنا ذلك ضرورة فصار حجة علينا

فصل

قد ذكرنا في الابانة عن معجز القرآن وجيزاً من القول رجونا أن يكفي، وأملنا أن يقنع، والكلام في أوصافه ان استقصي بعيد الاطراف واسع الاكناف لعلو شأنه وشريف مكانه والذي سطرناه في الكتاب وان كان موجزا وما أمليناه فيه وان كان خفيفا فانه ينبه على الطريقة ويدل على الوجه ويهدي الى الحجة ومتى عظم محل الشيء فقد يكون الاسهاب فيه عيّا والاكثار في وصفه تقصيرا وقد قال الحكيم ـ وسُئل عن البليغ متى يكون عييّا ـ فقال متى وصف هوى أو حبيباً. وضل اعرابي في سفر له ليلا وطلع القمر فاهتدى به، فقال ماأقول لك؟ أقول رفعك الله وقد رفعك؟ أم أقول نورك الله وقد نورك؟ أم أقول جملك الله وقد جملك؟ ولولا أن العقول تختلف والافهام تتباين والمعارف تتفاضل لم نحتج الى ما تكلفنا ولكن الناس يتفاوتون في المعرفة ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا في معرفة هذا الفن أو يجتمعوا في الهداية الى هذا العلم لاتصاله باسباب وتعلقه بعلوم غامضة الغور عميقة القعر كثيرة المذاهب قليلة الطلاب ضعيفة الاصحاب، وبحسب تأتي مواقعه يقع الافهام دونه، وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه

أنشدني أبو القاسم الزعفراني قال: أنشدني المتنبي لنفسه القطعة التي يقول فيها:

وكم من عائب قولا صحيحا   وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه   على قدر القرائح والعلوم

وأنشدني الحسن بن عبد الله قال: أنشدنا بعض مشايخنا للبحتري:

أهز بالشعر أقواما ذوي سِنة   لو أنهم ضُربوا بالسيف ماشعروا

عليَّ نحت القوافي من مقاطعها وما عليَّ لهم أن تفهم البقر

فاذا كان نقد الكلام كله صعبا وتمييزه شديداً والوقوع على اختلاف فنونه متعذراً ، وهذا في كلام الآدمي ، فما ظنك بكلام رب العالمين

قد أبنا لك أن من قدر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام لا يعرف من البلاغة إلا القليل ولا يفطن منها الا لليسير . ومن زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم في الشعر فهو متطرف . بلى ان كانوا يقولون ان هذه من وجوه البلاغة وغرر البديع وأصول اللطيف ، وان ما يجري مجرى ذلك ويشاكله ملحق بالاصل ومردود على القاعدة فهذا قريب . وقد بينا في نظم القرآن ان الجملة تشتمل على بلاغة منفردة والاسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف ثم الفواتح والخواتم والمباديء والمثاني والطوالع والمقاطع والوسائط والفواصل ثم الكلام في نظم السور والآيات في تفاصيل التفاصيل ثم في الكثير والقليل ثم الكلام الموشح والمرصع والمفصل والمصرع والمجنس والموشى والمحلى والمكلل والمطوّق والمتوج والموزون والخارج عن الوزن والمعتدل في النظم والمتشابه فيه ، ثم الخروج من فصل الى فصل ووصل الى وصل ومعنى الى معنى ومعنى في معنى ، والجمع بين المؤتلف والمختلف والمتفق والمتسق ، وكثرة التصرف وسلامة القول في ذلك كله من التعسف وخروجه عن التعمق والتشدق وبعده عن التعمل والتكلف والالفاظ المفردة ، والابداع في الحروف والادوات كالابداع في المعاني والكلمات ، والبسط والقبض والبناء والنقض ، والاختصار والشرح والتشبيه والوصف وتميز الابداع من الاتباع كتمييز المطبوع عن المصنوع والقول الواقع عن غير تكلف ولا تعمل

وأنت تتبين في كل ما تصرف فيه من الانواع انه على سمت شريف ومرقب منيف ، يبهر اذا أخذ في النوع الربّي والأمر الشرعي والكلام

الالهي الدال على أنه يصدر عن عزّة الملكوت وشرف الجبروت وما لا يبلغ الوهم مواقعه من حكمة وأحكام واحتجاج وتقرير واستشهاد وتقريع واعذار وانذار وتبشير وتحذير وتنبيه وتلويح واشباع وتصريح واشارة ودلالة وتعليم أخلاق زكية وأسباب رضية وسياسات جامعة ومواعظ نافعة وأوامر صادعة وقصص مفيدة وثناء على الله عز وجل بما هو أهله وأوصاف كما يستحقه وتحميد كما يستوجبه وأخبار عن كائنات في التآني صدقت وأحاديث عن المؤتنف تحققت ونواهٍ زاجرة عن القبائح والفواحش واباحة الطيبات وتحريم المضار والخبائث وحث على الجميل والاحسان ، تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوّة عليك في منظر بهيج ونظم أنيق ومعرض رشيق غير متعاصٍ على الاسماع ولا مغلق على الافهام ولا مستكره في اللفظ ولا متوحش في المنظر غريب في الجنس غير غريب في القبيل ممتلىء ماء ونضارة ولطفا وغضارة يسري في القلب كما يسري السرور ويمر الى مواقعه كما يمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر طموح العباب جموح على المتناول المنتاب كالروح في البدن والنور المستطير في الافق والغيث الشامل والضياء الباهر « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » من توهم أن الشعر يلحق شأوه بانَ ضلاله ووضح جهله ، اذ الشعر سمت قد تناولته الألسن وتداولته القلوب وانثالت عليه الهواجس وضربَ الشيطان فيه بسهمه وأخذ منه بحظه ، وما دونه من كلامهم فهو أدنى محلاً وأقرب مأخذاً وأسهل مطلباً ولذلك قالوا فلان مفحم فأخرجوه مخرج العيب كما قالوا فلان عيي فأوردوه مورد النقص

والقرآن كتاب دل على صدق متحمله ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها وبرهان شهد له براهين الاولياء المتقدمين وبينة على طريقة ما سلف الأولين

تحدّاهم به اذ كان من جنس القول الذي زعموا انهم أدركوا فيه النهاية و بلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن في العلاج والوصول الى أعلى مراتب الطب فجاءهم بما بهرهم من احياء الموتى و ابراء الاكمه والأبرص ، و كما أتى موسى بالعصا التي تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان من الرياح والطير والجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمة و بدائع من اللطف ، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الاول والآخر وقوفا واحداً ويبقى حكمها الى يوم القيامة

انظر وفقك الله لما هديناك اليه و فكر في الذي دللناك عليه ، فالحق منهج واضح والدين ميزان راجح ، والجهل لا يزيد إلا غما ولا يورث إلا ندما . قال الله عز وجل (٣٩ : ٩) : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب » وقال (٤٢ : ٥٢) « و كذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتابُ ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » وقال : (٢ : ٢٦) « يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً » وعلى حسب ما آتي من الفضل وأعطى من الكمال والعقل تقع الهداية والتبيين فان الأمور تتم باسبابها و تحصل بآلتها ، ومن سلبه التوفيق وحرم الرشاد والتسديد ، فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فاحمد الله على ما رزقك من الفهم ان فهمت ، وقل رب زدني علما ، وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وان ارتبت فيما بيناه فازدد في تعلم الصنعة وتقدمْ في المعرفة فسيقع بك على الطريق الارشد ويقف بك على الوجه الاحمد ، فانك اذا فعلت ذلك أحطتَ علما و تيقنت فهما

ولا يوسوس اليك الشيطان بانه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية وأرجح منك في الفصاحة أقوام وأقوام ورجال ورجال فكذبوا وارتابوا ، لان القوم لم يذهبوا عن الاعجاز ولكن اختلفت أحوالهم : فكانوا بين جاهل وجاحد وبين كافر نعمة وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات وحائر عن النظر في الدلالات ، وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان وغاو تحت حبالة الشيطان ومقذوف بخذلان الرحمن . وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة . وهلا جعلت بازاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامري في حسن اسلامه وكعب بن زهير في صدق ايمانه وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا . على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر أو بحر زاخر . وقد بينا أن لا اعتصام إلا بهداية الله ولا توفيق إلا بنعمة الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

فتأمل ما عرفناك في كتابنا وفرّغ له قلبك واجمع له لبك ، ثم اعتصم بالله يهدك وتوكل عليه يمنك ويجرك ، واسترشده يرشدك ، وهو حسبي وحسبك ونعم الوكيل

فهرس

صفحة

٣ مقدمة الناشر
٤ ترجمة المؤلف
٩ خطبة المؤلف
١٣ فصل في أن نبوّة النبي ﷺ معجزتها القرآن
١٦ في أن القرآن لايحتاج في كونه حجة الى دلالة أخرى
١٧ في أن القرآن آية كافية في الدلالة ويقوم مقام معجزات غيره
٢٠ فصل في الدلالة على أن القرآن معجزٌ
٢١ التحدّي الى القرآن وعجز بلغاء العرب عن أن يأتوا له بمثل
٢٧ انما احتيج الى التحدّي لاقامة الحجة واظهار وجه البيان
٢٨ تفاوت الناس في ادراك الاعجاز ومعرفة وجه دلالته
٢٩ اعتراف بلغاء العرب بعجزهم عن مثل بلاغة القرآن دالٌّ على عجز غيرهم
٣١ صوارف العرب عن الاسلام في بداية الدعوة
٣٢ هل كانت المعارضة ممكنة ومَنَعَ منها الصَّرْفة ، أم الذي منع منها هو الاعجا
٣٣ هل غيرُ القرآن من كلام الله عزوجل معجز أيضا ؟
٣٦ فصل في جملة وجوه اعجاز القرآن :
٣٦ ١ — الاخبار عن الغيوب مما لايقدر عليه البشر
٣٧ ٢ — أميّة النبي ﷺ وأنه لم يقرأ كتب الاقدمين وسيرهم
٣٨ ٣— أن القرآن متناهٍ في البلاغة الى الحد الذي يُعلَم به عجزُ الخلق عنه
٣٨ خروج القرآن في جملته عن المعهود من نظام جميع كلام العرب

صفحة

٣٩ أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع
٣٩ أن بديع تأليفه لايتفاوت رغم ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها
٤١ ان كلام الفصحاء يتفاوت في الفصل والوصل والعلو والنزول الخ
٤١ ان نظم القرآن وقع موقعا من البلاغة يخرج عن عادة كلام المخلوقات
٤٥ ان الذي ينقسم عليه الخطاب من الوجوه التي توجد في كلام العرب موجود في القرآن
٤٥ ان لطف التعبير القرآني عن الاحكام والرد على الملحدين مما يتعذر على البشر
٤٦ في أن الكلمة القرآنية اذا تُمثّل بها في تضاعيف كلام كثير كانت واسطة عقده
٤٧ الحروف التي في أوائل بعض السور
٤٩ سهولة أساليب القرآن وكونها غير مطموع أن يقدر البشر عليها
٥٢ فصل في شرح ما بينّا من وجوه اعجاز القرآن
٥٢ الاخبار عن الغيوب والصدق والاصابة في ذلك كله
٥٢ اخباره عن قصص الاولين وسيَر المتقدمين
٥٢ الاعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف
٥ فصل في نفي الشعر من القرآن
٥ أن الفصحاء حين أُورد عليهم القرآن لم يكونوا يعتقدونه شعرا
٥ ما في القرآن من كلام موزون
٥ فصل في نفي السجع من القرآن
٦ فصاحة القرآن لايجوز أن يقع فيها سجع موصوف بالاضطراب
٦ اعادة ذكر القصة الواحدة في القرآن بأساليب مختلفة دليلٌ على الاعجاز
٦ العرب ونظمها الشعر
٦ رجعٌ الى مذهب القائلين بالصرفة

صفحة

٦٩ فصل في ذكر البديع من الكلام
٦٩ هل يمكن أن يُعرَف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع
٧٠ كلمات من البديع مأثورة عن الصحابة و فصحاء العرب
٧٣ أنواع من البديع في شعر امريء القيس و غيره
٩٥ في أن البديع شيء و وجوه الاعجاز في القرآن شيء آخر
٩٧ في أنه لاسبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع لانه ليس فيه مايخرق العادة
٩٨ فصل في كيفية الوقوف على اعجاز القرآن
١٠٥ امكان تشابه أساليب الشعراء و الكتاب
١٠٩ تعريف البلاغة عند بعض الأمم
١١٠ خطبة نبوية « توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا »
١١٠ « « « ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم »
١١٠ « « « ان أحسن الحديث كتاب الله »
١١١ « « في أيام التشريق « ان دماءكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام »
١١٢ « « يوم فتح مكة « كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدمي »
١١٢ « « بالخيف « نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها »
١١٣ « « « ألا ان الدنيا خضرة حلوة »
١١٣ كتاب نبوي الى ملك فارس
١١٤ « « الى النجاشي
١١٤ نسخة عهد الصلح مع قريش عام الحديبية
١١٤ في أن مقارنة الكلام النبوي بالكلام القرآني تدل على اعجاز القرآن
١١٥ خطبة الصدّيق الاعظم « وليت عليكم و لست بخيركم »

صفحة

١١٥ عهد أبي بكر الى عمر رضي الله عنهما
١١٦ كتاب أبي عبيدة ومعاذ بن جبل الى عمر رضي الله عنهم
١١٧ عهد من عهود عمر رضي الله عنه
١١٨ خطبة عثمان رضي الله عنه « ان لكل شيء آفة ، ولكل نعمة عاهة »
١١٩ كتاب عثمان الى علي حين حُصر رضي الله عنهما
١١٩ تأبين علي أبا بكر رضي الله عنهما لمّا قُبض
١٢١ خطبة علوية « ان الدنيا قد ادبرت وآذنت بوداع »
١٢١ « « ما خُلق امرؤٌ عبثاً فيلهو »
١٢١ كتاب علي الى ابن عباس وهو بالبصرة رضي الله عنهم
١٢٢ كلام لابن عباس رضي الله عنهما
١٢٢ خطبة لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه
١٢٣ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه
١٢٤ خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
١٢٤ خطبة للحجاج بن يوسف في أهل العراق
١٢٤ خطبة لقس بن ساعدة الإيادي
١٢٦ خطبة لأبي طالب
١٢٦ استنتاج المؤلف أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين
١٢٨ في أن كلام مسيلمة أخسُّ من أن يُشتغل به
١٣٠ نقد معلقة امريء القيس وبيان عوارها في جانب اعجاز القرآن
١٤٧ آخر نقد معلقة امريء القيس
١٤٨ الامثلة على أن نهج القرآن ونظمه تتيه العقول في جهته وتحار في بحره
١٦٥ الآيات قسمان: مايتم بنفسه أو بنفسه وفاصلته ، ومايشتمل على كلمتين أو كلمات

صفحة

١٦٦ الاعجاز في بعض الآيات يقع في تنزيل الخطاب وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى
١٦٧ البلاغة في آيات الأحكام
١٧٣ في أن جنس الشعر لا يعارض نظم القرآن
١٧٥ نقد أجود قصائد البحتري « أهلا بذلكم الخيال المقبل » و بيان عوارها
١٨٩ آخر نقد قصيدة البحتري اللاميَّة
١٩٢ الاشارة الى مطاعن الملاحدة في القرآن
١٩٥ فصل هل عَجْزُ أهل العصر النبوي عن المعارضة يقتضي عجز من بعدهم ؟
١٩٦ فصل في التحدي
١٩٨ فصل في قدر المعجز من القرآن
٢٠٠ في أن الكلام يقع فيه الأبلغ و البليغ
٢٠١ فصل في أنه هل يُعلم إعجاز القرآن ضرورة ؟
٢٠١ فصل فيما يتعلق به الاعجاز
٢٠٢ فصل في وصف وجوه من البلاغة
٢٠٤ الاستعارة في القرآن
٢٠٥ التلاؤم في القرآن وأن بعض الناس أحسنُ أحساساً به من بعض. الفواصل
٢٠٦ المناسبة ، والتصريف ، والتضمين
٢٠٧ حسن البيان
٢١٣ الايجاز والبسط
٢ . تفاوت الناس فيما يتوصل اليه من البيان بالتعلم
٢١٥ هل يجوز أن يقال ان بلاغة القرآن هي أقصى ما يبلغه البشر من البلاغة ؟
٢١٦ فصل في حقيقة المعجز
٢١٩ فصل في كلام النبي ﷺ وأمور تتعلق بالاعجاز
٢٢٣ فصل من شرط المعجز أن يسلم أنه أتى به من ظهر عليه
٢٢٤ فصل متى عظم محل الشيء فقد يكون الاشتباه فيه عمًّا

خزانة الأدب

ولب لباب لسان العرب

وهو شرح على شواهد شرح الكافية للرضي

تأليف

عبد القادر بن عمر البغدادى

طبعت على نسخة العلامة الشنقيطي (رقم ١ نحو ش بدار الكتب المصرية) وهي منقولة من نسخة المؤلف
وحليناها بتصحيحات العلامة الجليل صاحب السعادة الاستاذ احمد تيمور باشا رحمة الله عليه
وتصحيحات وتعليقات المحقق الكبير الاستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي
استاذ آداب اللغة العربية في جامعة عليكرة الاسلامية بالهند

صدر الجزء الثالث منها في ٤٤٠ صفحة مطبوعا في مطبعتنا السلفية
على مثل الورق النفيس الذى طبعنا عليه الجزء الاول والثانى
وقد فتحنا باب الاشتراك في الجزء الرابع بعشرة قروش
أيضا كما كانت الحال في الاجزاء السابقة

كتب اسلامية ولغوية يجب أن لا تخلو منها مكتبة قيمة

ص	
١٠	الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض
٢٥	شرح الشفا لملا علي القاري
٥٠	علل الحديث لابن أبي حاتم
٢٠	مبارق الازهار شرح مشارق الانوار
١٢	شرح العقائد العضدية وحواشيها
٢	العقيدة الواسطية لابن تيمية
٤	مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ اهل الجاهلية
٦٠	نهاية السول شرح منهاج الاصول للاسنوي بحاشية الشيخ بخيت
٢٥	شرح المنار وحواشيه في الاصول
١٠	كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي
٢٥	مجمع الأنهر شرح ملتقى الابحر
٣	نظرية تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها
١٠	شرح شرعة الاسلام بهامشه تسع رسائل للبركوي
٢٥	كشف الحقائق شرح كنز الدقائق للافغاني
١٠	شرح منية المصلي
٢٠	الفتاوى الخيرية
٥	فتاوي النووي
٣	نظام النفقات في الشريعة الاسلامية للعلامة الشيخ أحمد بك ابراهيم
٣	نقد علمي لكتاب الاسلام وأصول الحكم
١٠	لسان العرب ـ تحت الطبع ـ يباع بالجزء
١٠	خزانة الأدب للبغدادي ـ تحت الطبع ـ تباع بالجزء
٧	الاضداد للانباري
١٠	المزهر للسيوطي
٥	الملاحن لابن دريد